مختار السويفى

أم الحضارات

ملامح عامة
لأول حضارة صنعها الإنسان

تقديم:
الدكتور جاب الله على جاب الله

الدار المصرية اللبنانية

أم الحضارات

ملامح عامة
لأول حضارة صنعها الإنسان

الناشــر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ١٣٣١٦ / ٩٨
الترقيم الدولى : 8 - 466 - 270 - 977
جمع وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

االطبعة الأولى : رمضان ١٤١٩ هـ ـ يناير ١٩٩٩ م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

صدق الله العظيم

إهـــــداء ...

إلى حبيبة الروح ...

زهرة الشباب النقية الطاهرة ..

صاحبة البسمة الوضيئة ..

والطباع النبيلة الطيبة ..

ابنتى هالة ..

رحمها الله وأكرم مثواها ..

تــقـديــم

بقلم : ا . د جاب الله على جاب الله

الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار

أنعم الله سبحانه وتعالى على مصر بنعم لا سبيل إلى حصرها ، ولا يخفى على أحد إن إحدى هذه النعم هى شعبها ، فأينما وليت وجهك لن تجد شعبا امتدت جذور حضارته فى أغوار التاريخ مثلما امتدت جذور حضارة الشعب المصرى ، زد على ذلك أنها حضارة لا تتسم بمجرد الأصالة والعراقة فحسب ، وإنما تتميز كذلك بامتدادها الزمنى وتواصلها الفكرى منذ الماضى البعيد حتى الوقت الراهن .

ولا يسعنا فى مثل هذه العجالة أن نقدم للقارىء الكريم العوامل التى جعلت مصر تتميز عما دونها من بلاد العالم بمثل هذا التراث الحضارى العظيم ، وربما يكفى أن نشير إلى موقعها الفريد بين قارات العالم القديم التى أبدعت أولى حضارات الإنسان ، فهى بلد إفريقى يطل على البحر المتوسط (ومن ثم أوربا) ولها باب مفتوح على آسيا ممثلا فى شبه جزيرة سيناء ، والقارىء الكريم يدرك بلا ريب أن هذا الجزء من العالم هو الذى شهد بزوغ الحضارات وتطورها على مدار الحقب التاريخية المتعاقبة ، وكان لمصر قصب السبق فيه وأعطت له من إبداعات شعبها وعصارة عقلها الكثير والكثير .

ويكفى أن نشير كذلك إلى ما حباها الله به من نيل كريم يفيض بالخير كل عام ليمدها بماء الحياة (وجعلنا من الماء كل شىء حى) يسقى إنسانها ويروى زرعها وحيوانها ويخصب أرضها ، وعلى صفحته تنتقل سفنها لتربط أرجاءها برباط وثيق من الألفة وتجمع أواصر شعبها على ثقافة واحدة حتى صاروا جميعا على قلب رجل واحد .

ويكفى أن نشير أيضا إلى مناخها المعتدل ، فلا هو شديد البرودة ولا هو شديد الحرارة ، وإنما هو بين هذا وذاك مما شجع الإنسان على العمل والإبداع دون معاناة من

الطبيعة ، بل وأثـر على مـزاجه وتفكيره فكـان ، ولا يـزال ، معتـدلا سمحا ينـأى عن التطرف ويبغض التعصب .

وفوق هـذا وذاك ، وهب الله مصر شعبا صبـورا ، دءوبا ، لـديه طـاقة هـائلة على العمل وقـدرة غير محدودة على الابتكـار وإمكانـات كبيرة للخلق والإبـداع ، وحتى فى أشد الظروف وأصعب الحالات كان صبره ودأبه وإيمانه العميق بخالقه وبقدراته الذاتية خير معين لـه على تخطى المحـن والخروج من الشـدائد لمعـاودة تـأديـة دوره فى الإبـداع الحضارى .

أبـدع الشعب المصرى حضارة عـريقة سبقـت حضارات شعـوب العالم القـديم فى ابتكاراتها وبزتها فى عمائرها وفنونها ، وأذهلت العلماء المعاصرين بفكرها وعلمها ، وهى حضارة يحلو للبعض أحيـانا أن يسميها « الحضارة الفرعونية » ولـو من باب التمجيد ، ولكنا نـرى فى ذلك تجنيا على الواقـع وافتئاتا على الحقيقـة ، فالفراعنـة (أى الملوك) لم يكونوا إلا من أبنـاء الشعب وخيطا فى نسيجه المتكامل ، خـرجوا من طين الأرض ، ولم يهبطوا عليـه من السماء ، وهم وإن كانـوا قد قـاموا بتـوجيه الأمور سيـاسيا واقتصـاديا وعمرانيـا ، فإنهم لم يحققوا كل ذلك بعصـا سحريـة ، وإنما بأيدى كل أبنـاء الوطن ، وبذلك تكون الحضارة المصرية هى إبداع الشعب المصرى بكل فئاته وطوائفه ، بحكامه ومحكوميه ، بفلاحيه وعماله وموظفيه ومفكريه وفنانيه ، أى أنها باختصار حضارة شعب وليست حضارة حاكم .

وقد ألهبت الحضارة المصرية ، ولا تزال ، خيال الناس شرقا وغربا فأقبلوا عليها إما علماء وباحثين ، وإما زائرين عـاشقين . أما العلماء فقد راحوا ينقبـون عنها فى مظانها ويدرسـون وينشرون ثم ينقلون ما تعلموه عنهـا وما علموه منها إلى أبنـاء بلدانهم ليصير جزءاً من ثقافتهم العامة ، هذا فى حين أن هذه الحضـارة نفسها تعانى بعضا من الغربة فى وطنها ، صحيح أن هنـاك إحساساً ضمنيـاً كامناً فى ضمائر المصريين بمـدى أهمية تراثهم وخطورته ، ولكن يظل فى معظم الأحوال مجرد شعور كامن ، غامض ، لا تقابله معرفة علمية بماهية هذا التراث ولا بحقائق مظاهره التاريخية والفكرية .

وقد يدهش الكثيرون إذا ما قيـل لهم أن ما كتب عن تـاريخ مصر الفـرعونيـة وحضارة شعبها بـأقلام مصريـة ضئيل إلى حد مـؤلم ، لا سيما إذا ما قـورن بما تفيض به كـل يوم تقريبا المطابع ودور النشر الأجنبية عن كل مظهر من مظاهر الحضارة المصرية ، حقا أنه يصدر بين الحين والآخر دراسـة أو كتاب من أحد دور العلم ، ولكنهـا كتب ودراسات تخاطب فى المقام الأول طـلاب الجامعات والمعـاهد ، ولذلك فإنها تـرتبط ارتباطـا وثيقا «بـالمقرر » وبـالقواعـد التى تتحكم فيها يسمـى الآن بالكتب الجامعيـة من حيث عـدد الملازم والصفحـات . . . الخ . أمـا والأمـر كذلـك فإن مثل هـذه المؤلفـات لا تعنى بالمثقف ، دع عنك القارىء العادى .

ومن هنا كـان ترحيبنا بـالكتاب الـذى بين أيدينا كبيرا ، فهـو الجزء الأول من أجزاء ستتلوه بمشيئة الله أجـزاء أخرى وكلها موجهـة إلى القراء على عمومهم . ونظـرة خاطفة على مـوضوعـاته تـدل على أن الكاتـب حاول أن يغطى نـواح شتى من حيـاة المصريين القدماء فى مجالاتها السيـاسية والاقتصادية والاجتماعيـة والطبية والفكرية (الـدينية منها والأدبية) .

وقد بذل المؤلف جهدا واضحا لكى تصل المعلومة إلى القارىء بلغة سهلة بعيدة عن التكلف وبأسلوب سلس بسيط حتى يجد فيه المتعة الذهنية والوجدانية فى آن معا .

والكاتب ، مثل غيره من ملايين المصريين ، عـاشق لتراب وطنه ، ولكنه يتميز على الكثيرين منهم بأنه ترجم عشقه هذا إلى قـراءة تاريخه والغوص فى أعماق ماضيه ، فوجد فيه متعة ملأت عليه كيانه ، ولأنه مدرك تماما لأهمية التاريخ فى تنمية الوجدان ، فإنه لم يشأ أن يستأثر بما عـرفه من قراءاته لنفسـه ، وإنما آثر أن يشرك فيه أبناء الـوطن من قراء ومثقفين ، فقدم لهم حصيلـة قراءاته عسـاها أن تحفزهـم على ورود مناهلها لـلاستزادة منها ، وهو يفعل ذلك بكل تواضـع ودون ادعاء بالتخصص فى علم المصريات ، ومن هنا تلمس فى كلماته لا برودة العلماء ، وإنما حرارة العاشقين .

أ.د. جاب الله على جاب الله

الأمين العام

للمجلس الأعلى للآثار

مصر .. من مليون سنة !

فى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد بـدأ تاريخ مصر المكتوب ، وتوحدت الـدولة تحت قيادة ملك واحد يضع فوق رأسـه تاجًا مزدوجًا ، يتألف من تاج الـوجه القبلى الأبيض وتاج الوجـه البحرى الأحمر ، وقبل ذلك التـاريخ كان الصعيـد مستقلاً فى مملكة ، وكـانت الدلتا مستقلة فى مملكة أخرى .

● ولكن هل يعنى ذلك أن مصر قبل الوحدة كانت بلا حضارة ؟! . . وهل ظهرت « الدولة » المصرية هكذا فجأة واعتبرت أول دولة فى تاريخ العالم وأول « حكومة مركزية » أنشئت للناس . . ؟! .

● الاجابة على هذا السؤال لم تكن سهلة ولا ميسورة حتى أواخر القرن التاسع عشر، حين قام بعض العلماء الأجانب باكتشافات أثـرية سلطت الضوء على مراحل البدايات الأولى لحضارة مصر القـديمة ، متمثلة فى تلك الآثار المبهـرة التى خلفها قدماء قـدماء المصريين الذين عاشوا فى مختلف المناطق المصرية فى عصور ما قبل التاريخ .

● وعصور ما قبل التاريخ عصور زمنية طويلة جدا ، وقد تقاس بمئات الآلاف من السنين ، ولعل أوضح تعريف علمى لهذه العصور هـو أنها العصور التى سبقت معرفة الانسـان للكتابـة . . فالكتـابة كـانت الوسيلـة المثلى للإنسـان لتدويـن وتسجيل كل الأحـداث وأمور الحيـاة . . وهى التى يبدأ بها تـاريخ أى شعب من شعـوب الأرض . ومن الحقائق التاريخية والأثرية الثابتة ، أن مصر كانت أول دولة فى العالم القديم عرفت مبادىء الكتـابة وابتـدعت الحروف والعلامـات الهيروجليفية ، وأن المصريين القـدماء كانـوا من أحرص شعوب العالم القـديم على تسجيل وتدوين تـاريخهم والأحداث التى

صنعوها أو تعرضت لهم فى حياتهم التى عاشوها . وبهذه الخطوة الحضارية العظيمة ، انتقلت مصر من عصور ما قبل التاريخ ، وأصبحت أول دولة فى العالم لها تاريخ مكتوب .

● ولكن . . ماذا كانت عليه صورة مصر وصورة المصريين فى تلك الأزمان السحيقة منذ مئات الآلاف من السنين . . ؟! .

فى قرية مصرية صغيرة اسمها « السلسلة » تقع شمال كوم امبو بمحافظة أسوان ، عثرت إحدى بعثات التنقيب الأثرية على جمجمة متحجرة لانسان مصرى كان يعيش فى تلك المنطقة فى عصر موغل فى القدم . . وعندما أجريت الدراسات والفحوص العلمية لتلك الجمجمة باستخدام أحدث أجهزة التحليل الطيفى والاشعاعى ، تبين أن عمرها يزيد على « مليون » سنة ! .

●ومعنى ذلك أن منطقة جنوب مصر كانت عامرة ومأهولة منذ أكثر من مليون سنة .

وقبل ذلك بعدة ملايين أخرى من السنين ، كانت مصر ومناطق واسعة من شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية غارقة تحت مياه البحر . . ثم حدثت تطورات «جيولوجية» أدت إلى انحسار البحر وظهور الأرض . ثم تكوّن منخفض البحر الأحمر كامتداد للأخدود الأفريقى العظيم . . وتكونت جبال الصحراء الشرقية وجبال سيناء . . ثم بدأ النيل يتخذ مجراه ويحفر واديه الخصيب ويكوّن دلتاه .

● ومرت عصور طويلة كانت الأمطار تسقط فيها بغزارة شديدة جدا ، فظهرت النباتات البرية ذات الحبوب والثمار والجذور التى تصلح للغذاء ، وظهرت بالتالى أنواع كثيرة من الحيوانات والطيور .

● وأثبتت البحوث والدراسات الجيولوجية أن منطقة كوم امبو كانت فى الماضى عبارة عن بحيرة واسعة من الماء العذب ، يصب فيها نهران ينبعان من جبال البحر الأحمر ويخترقان الصحراء الشرقية ، وينتهيان إلى مصب فى تلك البحيرة . كما كانت هناك أيضا عدة أنهار تنبع من تلك الجبال وتحفر وديانها فى الصحراء الشرقية حتى تصل الى وادى النيل .

● أما الصحراء الغـربية فلم تكن مغطاة بـالرمال كما تبدو الآن ، بل كـانت مناطق مخضرة معشوشبة ، حافلة بالأشجار والنباتات وعيون المياه العذبة .

● أمـا دلتا النيل فقـد كانـت فى البدايـة خليجًا من الماء المالـح يمتد من البحـر إلى داخل الأرض . . ثم أخـذ النيل يغمـرها بطميـه المتراكم على مـدى آلاف السنين حتى تكونـت أرضها . . وجرى النيـل فوق هذه الأرض فى عـدة فروع لم يعـد باقيًـا منها الآن سوى فـرع دمياط وفـرع رشيد . ولـذلك فقد كـان النيل يغمر أغلب منـاطق الـدلتا ، فامتلأت بالأحراش والنباتات الكثيفة .

● اننا نحتاج كثيراً من الخيال حتى نتصور حياة الانسان المصرى الأول فى تلك البيئة الطبيعية فى أرض الصعيد وأحراش الدلتا !



مع الانسان المصرى الأول !

منـذ عشرات الآلاف من السنين ، لم تكـن منـاطق الصحـراء الشرقيـة والصحـراء الغربية التى تحيط بوادى النيل المصرى بالشكل الذى هى عليه الآن . . كانت الظروف المناخيـة مختلفة تمامًا . . كانـت السماء ممطرة بغزارة ، والأرض خضراء مليئة بـالأشجار البرية ذات الحبـوب والثمار والجذور التى تصلح للطعام . . وكـانت هناك مجمـوعات كبيرة من مختلف أنواع الحيوانات آكلة اللحوم وآكلة الأعشاب . . بالاضافة إلى جماعات بشرية بدائيـة كانت تكيّف حياتها طبقا لظروف تلك البيئـة الطبيعية ، وتعيش معتمدة على عملية « جمع » الطعام بأقل مجهود .

● وعلى مـدى آلاف السنين التـى تعـاقبـت ، تغيرت الأحـوال الجويـة والظـروف المنـاخية ، فقلّ سقـوط الأمطار ، بـل وانعدم سقـوطها تمامًـا فى كثير من المنـاطق التى تحولت إلى صحـارى لا زرع فيها ولا مـاء . . واضطرت الجماعـات البشرية والفصـائل الحيوانية إلى النزوح إلى مناطق أخرى تتوفـر فيها المياه وتصلح للحياة . . واضطرت هذه الجماعات البشرية إلى التحول من عملية « جمع » الطعام إلى عملية « إنتاج » الطعام .

● ولم تكن تلـك الجماعات البشريـة تعيـش حيـاة متحضرة بمعنى الكلمـة . . بل كانت تعيش حياة بدائية تعتمـد على « الأحجار » لصنع الأدوات اللازمة لتلك الحياة . ولذلك فقـد سميت هذه العصـور باسم « العصور الحجـرية » حيث كـان يتم اختيار الأنواع الصلبة من تلك الأحجار لصناعة ما يحتاجه الانسان من فؤوس وسكاكين وغير ذلك من الأدوات والوسـائل التى يحتاجها الانسـان للحصول على غذائه من النبـاتات والحيوانات التى يصطادها ، أو يستخدمها للدفـاع عن نفسه ضد الحيوانات المتوحشة والمؤذية .

● ومنـذ تلك الحقبة مـن الماضى السحيق ، ظهـر الفضل العظيم لنهـر النيل على مصر وعلى المصريين أنفسهم ، الذين وجـدوا مساحات شاسعـة من الأراضى الطمية الخصيبة التى تنحسر عنها مياه الفيضان فى كل عام .

● وبمرور الـزمن تعلم هؤلاء المصريـون الأوائل ممارسة العمليـات الزراعيـة من بذر ورى وحصـاد . وأتاح لهم الاستقـرار فى وادى النيل أن يقـوموا بـاستئنـاس الحيوانـات وتربيتها بأعداد كبيرة تضمن إمدادهـم الدائم بكل احتياجاتهم من لحوم وألبان وجلود.

● وكان النيل فى ذلك الزمن السحيق نهراً عاصيًا متمردًا لم يسيطر عليه أحد بعد . . ولكن عبقرية هـؤلاء المصريين الأوائل تجلت فى معرفة موعد الفيضـان السنوى المعتاد . وعرفوا بـالتالى الوقت المناسب لاعـداد الأرض للزراعة . وعندمـا انتشرت زراعة الحبوب على نطاق واسـع ، عرفوا السبيـل إلى تخزين هذه الحبـوب وتشوينهـا فى صوامع بـدائية لاستخدام الفائض فى بقية أوقات السنة .

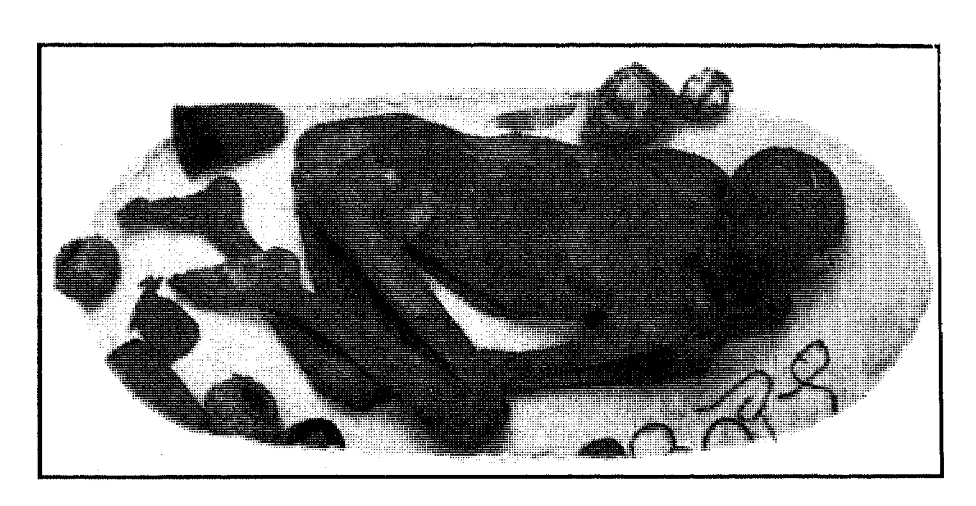
● وهكذا قام المصريـون الأوائل بأول انقلاب فى موازين الطبيعـة ، وحرروا الانسان من عـذاب البحث المستـديم عـن الطعام بـاعتبـاره أهم ضرورة من ضرورات حيـاتـه واستمرار وجوده ، الأمر الـذى أدى بالتالى إلى إتاحة الفرصـة أمام هذا الانسان المصرى الأول ليجـد الفراغ أو الـوقت الخالى ليستثمـره فى تنميـة مواهبـه ومهـاراتـه الذهنيـة ، والدخول إلى ميـادين حياتية أخرى أدت إلى تغيير كـامل شامل فى إيقاع الحيـاة الفردية والجماعية . .

● ومن هذا المنطلق الجديد استطاع المصريون الأوائل أن يبتـدعوا قواعد السلوكيات الأخلاقية السوية سواء بالنسبة لـلانسان الفرد أو بالنسبة للجماعة ككل . . وبدأ ظهور البوادر الأولى للحكمة والعقائد الدينيـة . ومن هذا المنطلق أيضا خطا الانسان المصرى الأول أولى خطواته فى « عالم الفن » .

● وأدت وفرة الطعام على ذلك النحو إلى التشجيع على زيادة أعداد كل من الانسان والحيوان . . وبالتالى فقد أصبح من الـلازم إعداد المزيد من مساحات الأرض الصالحة للزراعة . واستطـاع المصريون الأوائل ابتكار الطرق والأدوات والوسـائل الزراعية [التى مازال أغلبها مستخدمًا فى الريف المصرى حتى الآن !] .

● واكتشف هؤلاء المصريون الأوائل أن العمليات الزراعية تحتاج إلى نوع من التعاون والجهود الجماعية لتصبح أكثر فعالية فى مواجهة خطر الفيضان ، وفى إعداد الأرض والبذر والحصاد . . واعتبروا أن هذا التضافر هو فى حقيقة الأمر لصالح الجماعة ككل . . ولهذا فقد كان من المنطقى أن تتوحد الأسر والعائلات الصغيرة فى شكل « قرية » . . وأن تتوحد هذه القرى المتنامية فى شكل « مقاطعات » . . ثم تتوحد هذه المقاطعات أو الأقاليم فى شكل « مملكة » تحكمها « حكومة » واحدة .

● وهكذا نشأت فى الوجه القبلى مملكة تتكون من « ٢٢ » إقليما . . ونشأت فى الوجه البحرى مملكة أخرى تتكون من « ٢٠ » إقليما .



منذ عصور ما قبل التاريخ ، آمن المصريون القدماء الأوائل بأن هناك حياة بعد الموت ، ولذلك فقد كانوا يدفنون مع الميت بعض أوانى الطعام والشراب وقطع الحلى . وقد حفظت جثة هذا الرجل بفعل جفاف الصحراء وبدون تحنيط ، بالرغم من انه مات منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة .

المصريون الأوائل : من أين جاءوا وكيف عاشوا ..؟

من هم المصريـون الأوائل ، ومن أين جـاءوا . . وهل هم من أصل آسيـوى أم من أصل أفريقى . . ؟ .

● شغلت هذه الاسئلة أذهان كثيرين من علماء الأنثروبولوجيا « علم الانسان » . . وفى سنة ١٩٧٤ عقـدت ندوة علميـة عالمية تحت إشراف اليـونسكو ، كـان موضـوعها الوحيـد هو دراسة أصل السكان الأوائل الـذين استوطنوا مصر القـديمة . . واختلفت نظريات بعض العلماء ، إلى أن استقروا على رأى راجح أملته طبيعة الموقع الفريد للديار المصرية الممتـدة من جنوب أسوان إلى شـواطىء البحر المتوسط . . والتـى يشقها النيل العظيم هابطًا من الجنـوب إلى الشمال . . والتى تحف بها الصحارى من الشرق والغرب لتوفير الخصوصية التى تميزت بها عبقريـة المكان ، من توفير الأمان للسكان وحثهم على البقاء والاستقرار والانتاج لتوفير الخير والرخاء .

● لقد تميز مـوقع مصر بأنه حلقة الوصـل بين قارتى آسيا وأفريقيـا ، ومفرق الطرق التى كـانـت تجوبها الهجـرات الانسـانيـة الوافـدة مـن أوربـا وآسيـا بحثـا عن الأمـان والاستقرار، كما تجوبها الهجرات الانسانية الوافـدة من المناطق التى تعرضت للجفاف فى شمال وغـرب أفريقيـا . ولذلك فقـد رجح العلماء القول بـأن المصريين الأوائل هم من سلالة الجنـس الحامى من أصول أفريقية [مـن شمال أفريقيا وأرض الصومـال] ممتزجة ومختلطة بـأصول آسيويـة وأوربية ، خصوصًـا بالنسبـة للمصريين الأوائل الذين كـانوا يعيشون فى مناطق الدلتا ومناطق مصر الوسطى .

● وكان ـ ومازال ـ يحلـو لبعض العلماء اليهود ومن يتشيعون لهم أن يجردوا مصر من الأسبقيات الحضـارية التى حققتها فى عصـور ما قبل التاريخ ، ويحاولـون الادعاء بأن

هذه الاسبقيات الحضارية ــ خصوصًا بالنسبة للزراعة ـ قد نشأت أولاً فى البلاد القديمة التى كانت معروفة بإسم « ميزوبوتاميا » أى بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات، وفى بعض المناطق الأخرى مثل إيران وسوريا وفلسطين . . ومن هذه البلاد والمناطق انتقلت حرفة الزراعة إلى مصر ! .

● غير أن علماء منصفين وكثيرين خالفوا هذا الرأى وأثبتوا فساده استنادًا إلى النظريات الثابتة والمعروفة فى علم الإكولوجى « علم البيئة » والتى أثبتت بأدلة علمية قاطعة أن ضفاف النيل فى أرض مصر كانت أصلح بيئة مناسبة أمام الانسان الأول لممارسة « الزراعة المنتظمة » لأول مرة فى تاريخ الانسانية ، وذلك بحكم الظروف المناخية وبسطوع الشمس بصفة دائمة ، بالاضافة إلى دورة الفيضان السنوى لنهر النيل والذى كان يحدث بصفة منتظمة عامًا وراء عام .

● ويقرر علماء البيئة أيضًا أن تطور الزراعة بوادى النيل المصرى استغرق فترة طويلة بدأت منذ نحو عشرين ألف سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام . . وأن احتراف المصريين الأوائل للزراعة أجبرهم على الاستقرار بجوار الأرض المزروعة ، فتعلموا بناء البيوت من طين النيل فى بداية الأمر .

● كما يقرر علماء الاجتماع أن استقرار وارتباط هؤلاء المزراعين المصريين الأوائل بالأرض أدى إلى تكاثرهم بأعداد كبيرة ، فتعلموا التكاتف الاجتماعى للدفاع عن أنفسهم ولتوفير الأمان والاطمئنان للجماعة ، كما تعلموا فكرة تقسيم العمل النظامى بين الرجال والنساء . . فظهر بينهم نظام انسانى اجتماعى واقتصادى بعد أن تعلموا إختزان المحاصيل الزراعية للوفاء باحتياجاتهم بصفة دائمة على مدار السنة ، وكانت هذه أول فكرة اقتصادية ابتدعها الانسان ليتغلب على الجوع نهائيا .

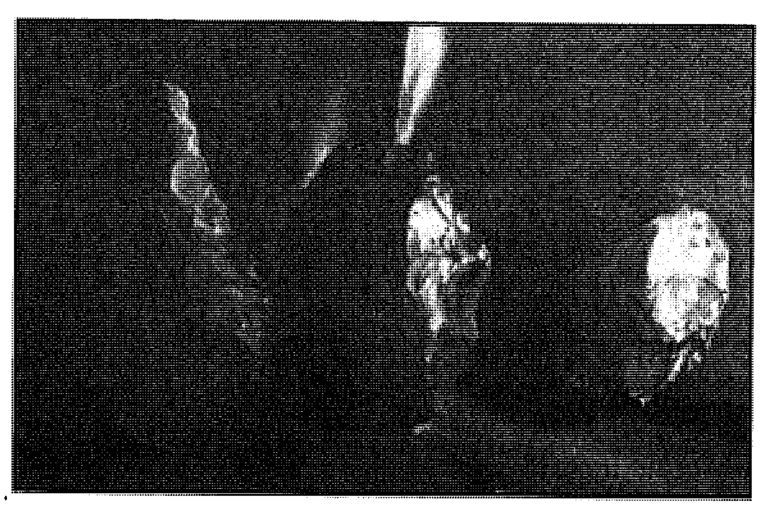
● ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الآن ، قامت بعثات علمية لا حصر لها ، أوفدتها الجامعات والمعاهد المتخصصة ومتاحف الآثار والفنون الجميلة من كافة أنحاء العالم ، بعمل الحفائر الأثرية للبحث عن مخلفات وآثار هؤلاء المصريين الأوائل الذين استوطنوا مصر وعاشوا فيها خلال آلاف السنين فى عصور ما قبل التاريخ . وقد

أجـريت هـذه الحفـائر والبحـوث العلمية فى معظـم منـاطق ضفـاف النيل ، وفى الصحارى المصرية .

● ونـذكر هنـا باختصـار شـديد أن هـذه البعثـات العلمية عثـرت على آثار هـؤلاء المصريين الأوائل فى منطقة السلسلـة بالقرب من كـوم امبو . . وفى جبل القطـران قرب بحيرة قارون بـالفيوم . . وفى ممر إدفـو / مرسى علم بـالصحراء الشرقيـة . . وفى تلال ووديـان النوبـة القديمـة . . وفى بعض الـواحات بـالصحراء الغـربية . . وفى منطقـة بيرطرفاوى التى تقع على بعد نحو ٤٠٠ كم جنوب غرب الواحات الخارجة .

● وعثرت أيضا على آثـار أكثر رقيًا لهؤلاء المصريين الأوائل فى منطقة العبـاسية شمال شرق القاهرة . . وفى المعـادى وطره وحلوان جنوب القاهـرة . . وفى ميدوم والجرزة ببنى سويف . . وفى البدارى ودير تاسا بأسيوط . . وفى أبيدوس [العرابة المدفونة] بسوهاج . . وفى العمرة ونقادة والجبلين بقنا . . وفى مرمدة بنى سـلامة بجنوب غرب الدلتا . . وفى مناطق كثيرة أخرى .

● وتدل البحـوث العلمية التى أجريت على تلك الآثـار على فضل هؤلاء المصريين الأوائل فى ابتداع الإرهاصات الأولى للحضارت الانسانية فى عصور ما قبل التاريخ .



أدوات حجرية من عصور ما قبل التاريخ

القرى المصرية فى عصور ما قبل التاريخ

مازال حديثنا عن حضارة مصر والمصريين فى عصور ما قبل التاريخ ، وبالتحديد فى الفترة ما بين عامى ٨٠٠٠ و ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وهى الفترة التى أصطلح على تسميتها باسم « العصر الحجرى الحديث » .

● اكتشف علماء الآثار من المصريين والأجانب عدة قرى عاش فيها المصريون الأوائل خلال هذا الزمن السحيق . وقد يكون من الصعب أن نتعرف على مظاهر الحياة الاجتماعية فى تلك القرى كلها فى هذا المجال الضيق ، وسنكتفى الآن بالتعرف على آثار أقدم قريه مصرية اكتشفت فى الوجه البحرى .

● الاسم الحديث لهذه القرية هو « مرمدة بنى سلامة » . . وتقع جنوب غرب فرع رشيد ، على بعد حوالى ٥١ كم شمال غرب القاهرة ، فى المسافة ما بين قريتى وردان والخطاطبة الحديثتين . ويقرر علماء الآثار أن تلك القرية القديمة كانت مزدهرة اقتصاديا ، ومنظمة اجتماعيا ، ومزدحمة بالسكان [نحو ١٦٠ ألف نسمة !] .

● ومن أهم وأحدث التقارير الأثرية العلمية التى نشرت عن حضارة المصريين الأوائل الذى سكنوا تلك القرية ، تقريران علميان نشر أولهما سنة ١٩٧٨ ونشر الثانى سنة ١٩٧٩ . ومن هذين التقريرين نستطيع أن نعطى صورة ملخصة عن مظاهر الحياة الاجتماعية العامة التى تؤكدها الأدلة والشواهد الأثرية التى تم العثور عليها فى بقايا تلك القرية القديمة .

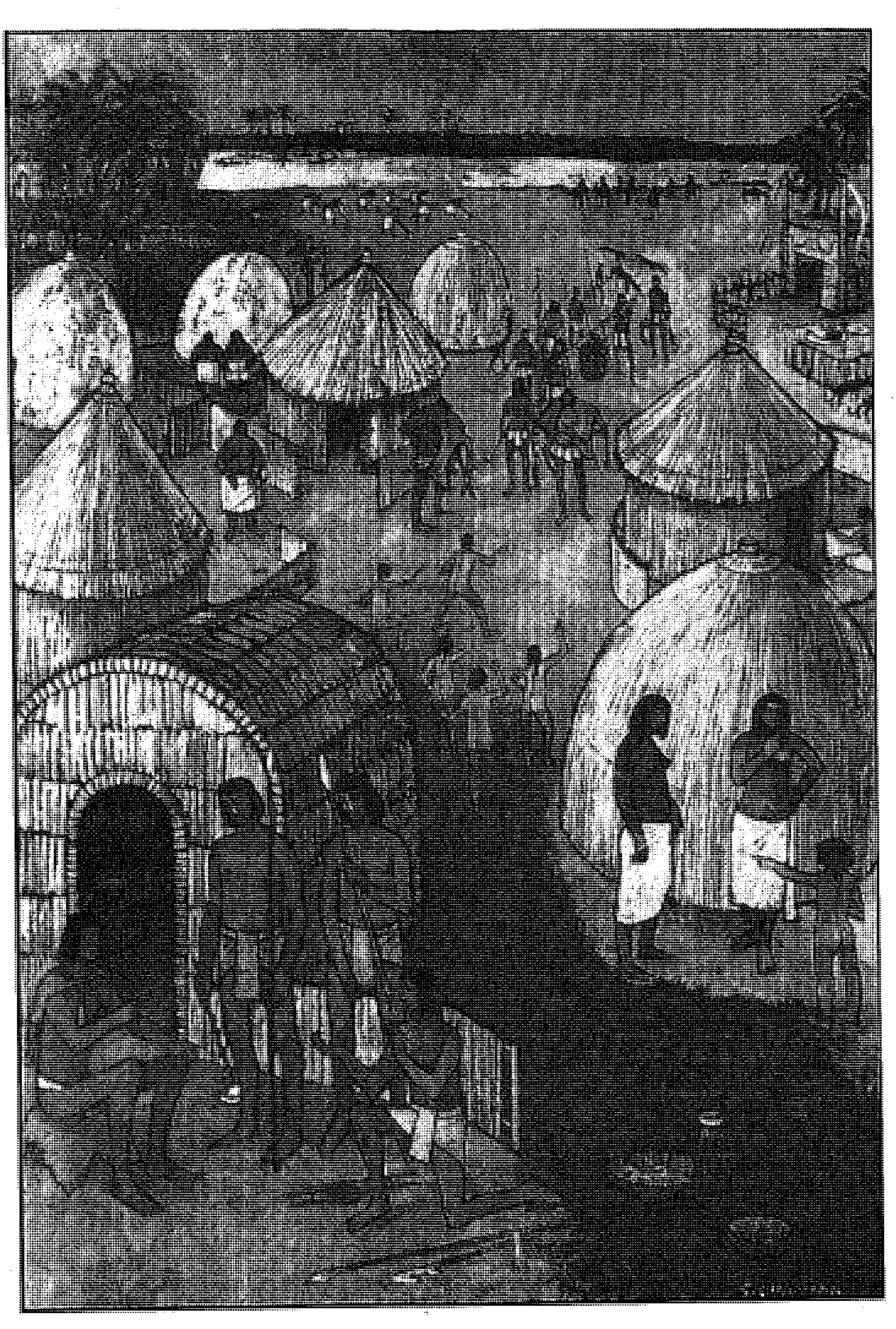
● كان سكانها يمارسون حرفة الزراعة إلى جانب حرفة الصيد [حيوانات وطيور وأسماك] . . وكانوا يعرفون الطريقة المثلى للزراعات النيلية ، أى التى تخضع لأحوال نهر النيل من فيضان وتحاريق . . ويعرفون الطريقة المثلى لحرث الأرض التى انحسرت عنها مياه الفيضان باستخدام المحراث الذى اخترعوه لاستعماله فى شق الأرض وتقليب التربة

. . ويعرفون الطريقة المثلى لبذر البذور ودفنهـا فى التربة باستخدام أنـواع من العصى ذات الرؤوس الحجريـة ، وهى مهمة كانت تقوم بها النساء مع مجمـوعات من الصبيان والبنات . . كما اخترعوا المنـاجل المصنوعة من الخشب وذات سنون حـادة مصنوعة من حجر الصوان واستخدموها فى عمليات جنى المحاصيل . . كما ابتدعوا فكرة «الرحاية» لاستخدامها فى طحن الحبوب تمهيدًا لصناعة الخبز .

● ويقول بعض علماء الآثـار ـ ومنهم بريستيد ـ إن هذه الأدوات الزراعية البـدائية التى صنعها المصريون الأوائل فى العصر الحجرى الحديث وعصور ما قبل التاريخ تعتبر أجمل صنعًا وأحسن صقلا وأكثر اتقاناً من جميـع الأدوات المماثلة التى عثر عليها فى بقايا وآثار حضارات هذه العصور فى جميع أنحاء العالم .

● ويقـول بعـض العلماء أيضًـا أن هـؤلاء الفـلاحين المصريين الأوائل هـم أول من استخلص القمح المعـروف حاليًـا من « القمح البرى » الذى كـان ينبت تلقائيًـا وذلك بـاستخدام التهجين . وبـالنظر إلى وفـرة المحاصيل الـزراعية فقـد كان سكـان القريـة يستهلكون ما فيه كفايتهم ، ويقومون بتخزين رصيد الحبوب الذى يكفيهم طوال العام حتى موعد حصـاد المحاصيل الزراعية الجديدة فى العام التـالى . وكانت الصوامع التى تخزّن فيها الغـلال على شكل حفر فى بـاطن الأرض الجافة مغلفـة ومغطاة من الـداخل بالحصير المجدول .

● أما المساكن التى كانوا يسكنون فيها فكـانت عبارة عن بيوت وأكواخ بسيطة مبنية بطين النيل ومن بعض الأحجار الخشنـة ، وذات أسقف مغطاة بسيقان البـوص محمولة على الجدران . وبعض جدران تلك البيـوت كانت مكسوة بـالحصير الملصق بطبقة من الصلصـال . وكـانت البيـوت تبنى فى صفـوف متقـابلـة تفصل بين كل صفين طـرق مستقيمة ضيقة . ويدل هذا التخطيط على وجود نظام اجتماعى موحد ملزم للجميع ، بمعنى أن هناك سلطـة حاكمـة كانت تفرضـه . . وبداخل كل بيت مـن تلك البيوت كانت تـوجد حفرة تستخـدم كموقد لاعداد الطعـام . وتدل الآثار التى عثـر عليها فى



رسم متخيل لإحدى قرى الوجه البحرى
فى عصور ما قبل التاريخ .

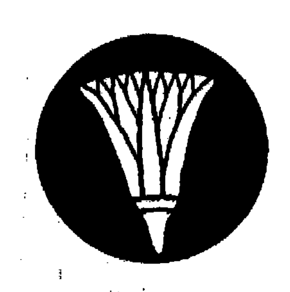
بقايا تلك البيوت على أن سكانها كانوا يتناولـون طعامهم بداخلها وفى مكان مجاور تمامًا لموقد الطهى .

● وعرف سكان تلك القرية كيف يصنعون مـلابسهم من جلود الحيوانات المدبوغة ومن نسيج الكتـان . ومعنى هذا أنهم كـانوا يزرعـون الكتان إلى جـوار الحبوب ، وانهم عرفـوا وابتدعوا طريقـة تعطين هذا الكتان وتنسيلـه فى شكل خيوط يغزلـونها ويعدونها للنسيج على أنوال بدائية ابتـدعوها للقيام بتلك المهمة . . كما عرفـوا طريقة صنع الإبر اللازمة للخياطة ولوصل قطع الجلود أو النسيج ببعضها لاعدادها كرداء . . كما صنعوا أشكالاً متقدمة من السكاكين والمكاشط والسهام والمطارق والفؤوس .

وصنعوا أيضا الأوانى الفخارة المستخـدمة فى حفظ الحبوب أو فى طهى الطعام ، كما تم العثـور على بعض كؤوس منحـوتة من حجـر البازلت الصلـب ، الأمر الـذى يدل بصفة قـاطعة على أنهم ابتـدعوا المثاقب والمخـارز اللازمـة لتفريغ هذا الحجـر الصلب ولتسوية حوافه وجوانبه الخارجية . .

● وعرفـوا أدوات الزينة واستخـدموا « التوتيـا » فى تكحيل العيون ولعـلاج أمراض العيون .

● أما الجوانب الروحية فلا تعرف لهم ديانة محددة ، ولكن طريقة بناء مقابرهم ودفن موتاهم تدل على أنهم كانوا يؤمنون بـالحياة الآخرة ، لأنهم كانوا يدفنون مع الميت بعض الأوانى وبعض الحبوب ، اعتقادًا فى انها قد تنفعه بعـد انتقاله من عالم الأحياء إلى العالم الآخر .



فضل المرأة المصرية القديمة
فى اكتشاف معدن النحاس

فى عصور ما قبل التاريخ ، عرف المصريون الأوائل كيفية استخدام « الششم » وهو مادة «الملاخيت » [مسحوق كربونات النحاس القاعدية] لتزيين العين بنفس الطريقة التى يستعمل بها « الكحل » .

● وتقول المعاجم والقواميس العربية أن « الششم » هو ما يوضع فى العين للاستشفاء به . وأن اسم « ششم » معرب عن كلمة « جشم » الفارسية ومعناها العين . غير أنى لاحظت أن هذه المادة كانت تسمى فى اللغة المصرية القديمة باسم «شسمت» . . ولهذا أرجح أن كلمة « ششم » ذات أصل مصرى قديم ، انتقلت إلى الفرس ، ومنهم انتقلت إلى اللغة العربية .

● ويقول بعض علماء الآثار أن المرأة المصرية القديمة كانت السبب فى إنتقال الحضارة المصرية من العصر الحجرى إلى عصر المعادن الذى يسمى علميًا « العصر الخالكوليثى » أو عصر بداية استخدام النحاس فى صناعة الأدوات التى كانت تصنع من قبل من حجر الظران أو الصوان .

● ويفسر العلماء هذا الدور العظيم الذى قامت به المرأة المصرية القديمة فى اكتشاف النحاس على أساس افتراض محتمل إلى حد كبير . . فمن المعروف منذ القدم أن المرأة كانت تتولى وظيفة إعداد الطعام للأسرة ، ولذلك فهى التى كانت تتولى أمر إشعال النار وتشغيل المواقد لطهى الطعام .

● ومن المحتمل أن امرأة مصرية قديمة مجهـولة ، كانت تقوم بعمل عجينة الكحل من مادة « الملاخيت » حين كـانت بجانب الموقد المشتعل تنتظر نضـج الطعام الموضوع فوق النـار ، فسقطت هـذه العجينة فى النار بطـريقة عفـوية أو لأى سبـب آخر ، ولم تستطع تلك المرأة بطبيعة الحال أن تمد يـدها فى النار لتنقذ عجينتها الغـالية . وبعد أن نضج الطعام وخمدت نـار الموقد ، لاحظت المرأة أن العجينة قد تحولت إلى معـدن براق هو معدن النحـاس . . لقد أدّت النار إلى صهر العجينة وتبخير بعـض مكوناتها وبقى معدن النحاس فى نهاية الأمر .

● ويقول علماء آخـرون بنظريـة أخرى عن دور المرأة المصريـة القديمـة فى اكتشاف النحاس فى شبـه جزيرة سينـاء وفى الصحراء الشرقية . . فمنـذ عصور ما قبـل التاريخ كان المصريون يـرسلون بعثات أو حملات تعدينيـة للحصول على « التركواز » أو الفيروز من شبه جزيرة سيناء ، وللحصول على الذهب من الصحراء الشرقية . وغالبا ما كانت هذه البعثات تبقـى فى تلك الأماكن لمدد طويلة ، لـذلك فقد كان هؤلاء المبعـوثون من جنود وعمال يصطحبون معهم زوجاتهم ليتولين إعـداد الطعام وغير ذلك من الواجبات الأسرية والأعمال المعاونة الأخرى .

● وكـانت المواقـد البـدائيـة عبـارة عن حفـرة فى الأرض الجافـة تـوضع فيهـا قطع الأخشاب أو الأعشاب وفروع الأشجار التى كانت تستخدم كوقود قبل اكتشاف الفحم النباتى .

●ومن المعروف أن مكـونات النحاس فى سينـاء كانت توجـد على شكل رواسب فى الطبقـات السطحيـة من الأرض . ومـن المؤكدّ أن بعـض النسـاء المصريـات حين كن يعددن المواقد فى أرض تختلط فيها مكـونات النحاس بالحصى والتراب ، لاحظن ذلك البريق المعدنـى الأصفر يلمع وسط رمـاد النار بعد خمودهـا . وبذلك بـدأت عمليات اكتشاف المنـاطق التى تـوجد بها مكـونات النحـاس ، سواء فى سينـاء أو فى الصحراء الشرقية .

● ومن معـدن النحاس استطـاع المصريـون الأوائل فى عصور مـا قبل التـاريخ أن

يصنعوا الأدوات الزراعيـة والأدوات الصناعية ، وأن يطـوعوه لصناعـة الخرز المثقوب ، واستخدموه فى صناعة قطع الحلى كالعقـود والأساور والأقراط ، بل وصنعوا منه التماثيل فيما بعد .

●وبالرغم من اختلاف وجهة النظر فى كل من هاتين النظريتين اللتين قال بهما علماء الآثـار ، فإن كـلاً منهما لا تغفل ذلك الـدور الحضارى العظيـم الذى قـامت بـه المرأة المصرية القديمـة فى اكتشاف النحاس ، وانتقال الحضارة المصريـة من العصر الحجرى إلى عصر المعادن الأكثـر تقدمًا ورقيًـا ، وذلك قبل أن يبزغ للتاريخ فجـر ، بل وقبل أن يوحد الملك مينا الوجهين البحرى والقبلى فى مملكة واحـدة هى أقدم دولة وأقدم حكومة مركزية انشأها الانسان المتحضر على كوكب الأرض .



تمثال للملك بيبى { الأسرة السادسة } مصنوع من النحاس ومعروض بالمتحف المصرى .

فى قرية صعيدية .. منذ ٦٥٠٠ سنة !

بعد زيارتنا لمرمدة بنى سلامة التى اعتبرت أقدم قرية مصرية بالوجه البحرى فى عصور ما قبل التاريخ ، نزور الآن إحدى قرى الصعيد التى اشتركت فى صنع الإرهاصات الأولى للحضارة المصرية فى تلك العصور الغارقة فى القدم . . وهى قرية «البدارى» التى تقع الآن بمركز البدارى بمحافظة أسيوط على الضفة الشرقية للنيل ، فى المسافة ما بين مدينتى أبو تيج وطما .

● لم تكن البدارى أقدم قرى الصعيد التى سكنها المصريون الأوائل ، فقد ظهرت قبلها ـ بمئات وآلاف السنين ـ قرى أخرى أكثر قدمًا ، يرجع تاريخ بعضها إلى العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث . . ولكن البدارى تتميز بأنها أقدم مكان فى مصر كلها عثر فيه على أدوات وأشياء مصنوعة من معدن النحاس . ومعنى هذا أنها أول قرية مصرية تبين لنا كيف دخلت مصر عصر النحاس ، المسمى علمياً باسم «العصر الخالكوليثى» .

● بدأت الحفائر الأثرية التى كشفت لنا عن آثار البدارى منذ أكثر من سبعين عامًا ، وبالتحديد فيما بين عامى ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥ . وقد أجريت هذه الحفائر فى بعض القرى والنجوع التابعة لمركز البدارى وأهمها نزلة المستجدة والهمامية ونزلة الشيخ عيسى والشيخ علم الدين .

● وتدل الآثار التى عثر عليها فى كل تلك المناطق المتقاربة ، على أن تاريخها يرجع إلى نحو عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد ، وعلى أن المصريين الأوائل الذين عاشوا فى تلك المناطق كانوا على درجة متقدمة فى الرقى الحضارى بالمقارنة لغيرهم من المصريين الأوائل الذين عاشوا فى الصعيد خلال العصور الحجرية السابقة .

● وبتحليل ودراسة هذه الآثار خلص المؤرخون وعلماء الآثار المصرية إلى مجموعة

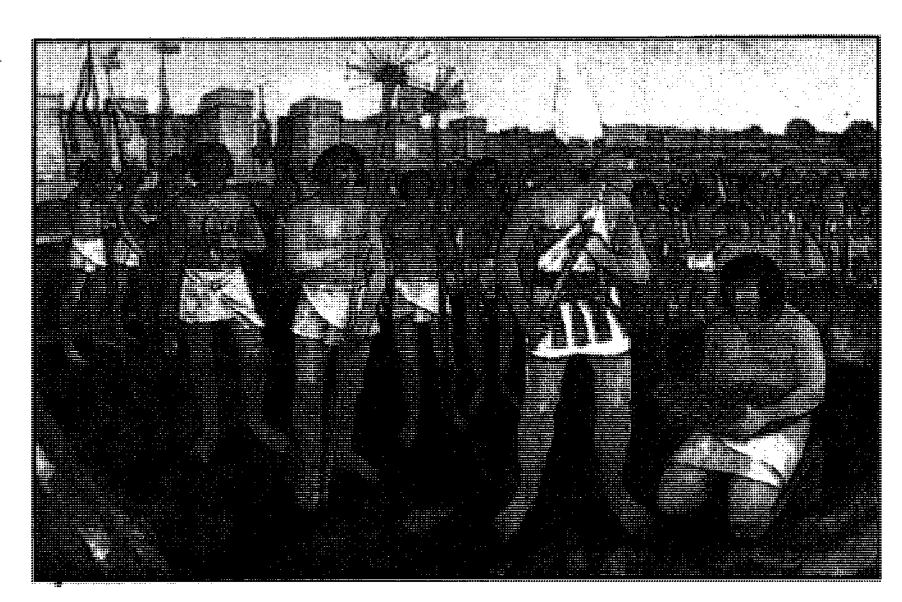
من الحقائق يمكن أن نستخلص منها صورة عامة لحياة المصريين القدماء فى تلك المنطقة منذ ٦٥٠٠ سنة .

● كان السكان حينذاك يعتمدون على الزراعة بصفة أساسية لتوفير ما يحتاجونه من غذاء وملابس . . فقد زرعوا الحبوب والخضراوات والثمار كمحاصيل غذائية ، كما زرعوا الكتان واستخدموه على نطاق واسع فى صنع ملابسهم بعد غزله ونسجه بطريقة أكثر رقة وتقدما من طريقة غزل ونسج الكتان فى القرى المصرية الأكثر قدمًا سواء فى الوجه القبلى أو الوجه البحرى . كما استخدموا الملابس المصنوعة من جلود الحيوانات اتقاءً لبرد الشتاء ، وبرعوا فى دباغة الجلود وجعلها ناعمة لينة . وكانوا يلبسون هذه الملابس الجلدية مع الاحتفاظ بصوفها إلى الداخل .

● ومعنى براعتهم فى نسج الكتان فى شكل أقمشة رقيقة وملونة يجعلنا نقطع بأنهم استطاعوا غزل الكتان فى خيوط رفيعة وابتكروا أنوالاً للنسج أكثر كفاءة من الأنوال التى كان يستعملها المصريون الأوائل قبلهم .

● وفى ذلك الزمن استقرت تمامًا حرفة رعى وتربية القطعان بعد استئناس الحيوانات المفيدة التى توفر للأهالى ما يحتاجونه من لحوم وألبان وجلود . . كما نجحت عمليات تدجين الطيور واستئناس وتربية الحيوانات المستخدمة فى الحمل والركوب والقيام بأعمال الحراسة . كما قام الأهالى بتربية الحيوانات المنزلية المدللة كالقطط التى كانت تفيدهم فى التخلص من الفئران والثعابين والحشرات المؤذية . لذلك فقد انحسرت حرفة صيد الحيوانات البرية اللازمة للغذاء ، وإن بقيت عمليات صيد الأسماك المتوفرة بكثرة فى نهر النيل . ومع ذلك فقد كان الأهالى يخرجون لصيد الحيوانات والطيور كنزهات ترفيهية فى الصحراء المجاورة أو فى أحراش النيل .

●وقد اهتم المؤرخون وعلماء الآثار المصرية الذين درسوا الآثار التى تركها هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا فى منطقة البدارى منذ ٦٥٠٠ سنة بدراسة وتحليل تلك الطفرة الصناعية الكبرى التى اعتبرت بحق خطوة تقدمية إلى الأمام فى تاريخ الحضارة المصرية فى عصور ما قبل التاريخ ، وأعنى بها عملية تعدين النحاس واستخدامه فى صناعة ما كانوا يحتاجونه من أدوات .



رسم متخيل لإحدى قرى الوجه القبلى أثناء مباركة
المحصول الزراعى فى عصور ما قبل التاريخ .

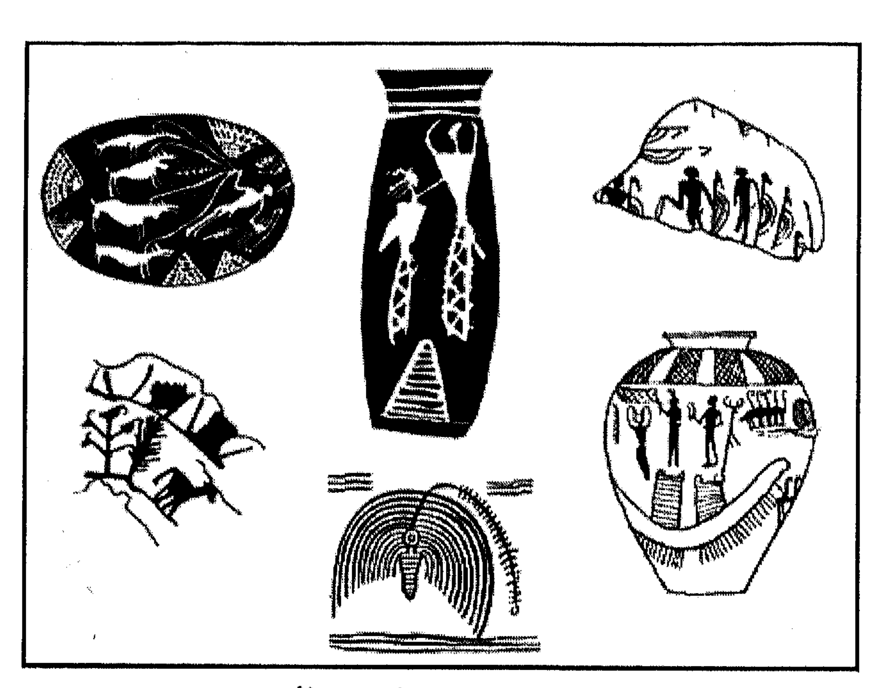
الصعايدة الأوائل .. أقدم المعدّنين فى مصر !

مازلنا فى زيارة مركز البدارى بمحافظة أسيوط لنتعرف على الآثار التى تركها لنا المصريون الأوائل الذين عاشوا هناك فى القرن الخامس والأربعين قبل ميلاد المسيح عليه السلام .

● تدل القطع الأثرية المصنوعة من النحاس التى تم العثور عليها فى منطقة البدارى على أن هذه المنطقة تعتبر أقدم مكان فى مصر تم فيه تعدين النحاس . . فقد عثر على كثير من الأدوات المصنوعة بطريقة بدائية من هذا المعدن ، مثل الحلى وحبات الخرز والمثاقب ودبابيس الشعر ودبابيس شبك الملابس الجلدية والكتانية .

● وبالنظر إلى أن خام النحاس لا يوجد بتلك المنطقة ، فمن المتصور انهم قد استجلبوا أخلاط النحاس الخام من شبه جزيرة سيناء ومن الصحراء الشرقية . وليس فى هذا الاستنتاج أى قدر من المبالغة ، حيث عثر على آثار مصرية كثيرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد فى مناطق غرب سيناء وفى وادى الحمامات القريب من تلك المنطقة والذى يصل ما بين وادى النيل وجبال البحر الأحمر مخترقًا الصحراء الشرقية .

● ومن الموضوعات التى حيرت علماء الآثار أن هؤلاء المصريين الأوائل الذين عاشوا فى منطقة البدارى فى ذلك الزمن القديم ، قد اهتدوا إلى طريقة صنع ثقب فى أحد طرفى الإبرة المصنوعة من النحاس والتى كانوا يستخدمونها فى الخياطة . . فهذا الثقب الذى كان يلضم فيه الخيط كان يستلزم صنعه وجود مثقاب ذى سن رفيع جدا وحاد ، مصنوع من معدن آخر أشد صلابة من معدن النحاس . . فى حين أن هؤلاء المصريين



رسوم توضيحية منقوشة على بعض الأوانى

المصرية .. من عصور ما قبل التاريخ ..

الأوائل كانوا لا يعـرفون بعد طريقة صنـاعة وتعدين البرونز التى اهتـدوا إليها بعد ذلك بنحـو ألف سنـة . . فكيف تسنى لهم إذن أن يثقبـوا أحـد طرفى الإبـرة المصنـوعـة من النحاس ؟! . . هـذا السؤال لم يتم الـوصول إلى معـرفة الاجـابة عليـه إجابـة صحيحة قاطعة حتى الآن .

● وبالـرغم من أن المصريين الأوائل الذين عـاشوا فى الوجهين القبلى والبحـرى منذ ٦٥٠٠ سنه لم يكونوا قد توصلـوا بعد إلى اختراع « عجلة الفخرانى » التى سهلت عملية صناعة وتشكيل الأوانى الفخارية . . إلا أن مـا عثر عليه فى البدارى من أوانى الفخار يدل على دقة الصنـاعة والذوق المبتكر . . ولم تعد الأوانى بـدائية الشكل أو محروقة دون عناية مثل الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى القرى المصرية الأقدم زمنا ، وإنما كانت ذات أشكال مبتكـرة غير مسبوقة ، وكـانت بعض الأوانى ذات جدران وحـواف رقيقة وسطح مصقول لامع ، الأمر الذى يـدل على أنهم أول من ابتكر المراحل الأولى لصناعة الخزف .

● وكانوا أيضا أول من ابتكر أشكالاً غير مسبوقة لهذه الأوانى الفخارية التى تطورت وأصبحت ذات أشكـال كروية واسطـوانية وذات رقاب ضيقـة من أعلى ، كما أن بعض هذه الأوانى كانت ذات لـون أحمر لامع ومزخرفة بخطوط بيضاء متقـاطعة ذات أشكال هندسية .

● كما تطـورت بعض الأوانى وأصبحت ذات لـونين ، فـالجزء العلوى منهـا أصبح أسود اللون ، والجزء السفلى كان أحمر اللون ، وذلك دون استخدام أية ألوان إضافية إلى عجينة الفخار . ويرجع ذلك إلى انهم ابتكروا طريقة جديدة لحرق الأوانى بعد تشكيلها من الطين أو الصلصـال ، وذلك بحـرقها « مقلـوبـة » فى النار ، فيظل الجزء العلـوى مغمـوسًا فى عشـب النار أو فى المواد المحـروقـة فيكتسب اللـون الاسـود بينما يظل الجزء الرئيسى الـذى يمثل جسم الآنية معرضًـا للهواء أثناء الحرق فيتأكسـد ويكتسب اللون الأحمر .

● وتدل جميع الشواهد الأثرية التى تم العثور عليها على أن أهالى البدارى قد عاشوا حياة مرفهة فى ذلك الزمن البعيد فى عصر ما قبل التاريخ . .

الصعايدة الأوائل .. وحياة أكثر تقدمًا وحضارة !

نواصل الحديث عن آثار المصريين الأوائل الذين عاشوا فى عصور ما قبل التاريخ فى منطقة البدارى بمحافظة أسيوط حوالى عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هؤلاء المصريين الأوائل قد عاشوا حياة مرفهة وأكثر حضارة وتقدمًا بعد أن عرفوا كيفية تعدين النحاس الذى كانوا يحصلون على خاماته من شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية .

● وبالرغم من كثرة عدد البعثات العلمية المصرية والأجنبية التى أجرت أبحاثها وحفائرها الأثرية فى تلك المنطقة ، إلا أنه لم يتم العثور على أى أثر من البيوت التى كانوا يعيشون فيها حياتهم الأولى . . وجميع الآثار التى تم العثور عليها كانت مدفونة فى آلاف المقابر التى دفنوا فيها موتاهم . ومن هذه الآثار نستطيع أن نستدل على مظاهر حياة الرفاهية والتقدم الحضارى التى عاشوها فى عصور ما قبل التاريخ .

● تم العثور على عدد كبير من القلائد التى كانت تعلق على الصدر ، والأساور التى كانت تزين الأيدى والأذرع ، والخواتم التى تزين الأصابع ، والأقراط والحلقان التى كانت تستعمل كحلى لزينة الآذان ، والأحزمة والمآذر المزينة بالخرز الملون . ومن الغريب أن استعمال جميع هذه الحلى وأدوات الزينة لم يكن قاصرًا على النساء وحدهن ، بل كان استعمالها يشمل النساء والرجال والأطفال جميعًا .

● ولوحظ أن بعض قطع الحلى كانت مصنوعة من العاج وقشر بيض النعام ، الأمر الذى يدل على أن هؤلاء المصريين الأوائل كانت لهم صلات مع مناطق النوبة العليا أو بلاد وسط افريقيا حيث توجد الأفيال التى تصنع من أنيابها وسنونها قطع الحلى . كما أن بعض هذه القطع كانت مصنوعة من الأصداف أو مزينة بحبات الفيروز . وهذا دليل آخر على صلاتهم بسواحل البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء .

● وتم العثور على أمشاط للشعر بعضها مصنوع من العظام وبعضها مصنوع من العاج . ولوحظ أن هذه الأمشاط ذات سنون طويلة متقاربة وضيقة الفتحات ، الأمر الذى يدل على استعمالها لتنظيف الشعر وتسريحه ، كما أن معظم هذه الأمشاط كانت مزينة برؤوس أو أياد ذات أشكال فنية مثل الأشكال الآدمية والحيوانية وأشكال الطيور.

●ودلت بقايا الجماجم والهياكل العظمية لهؤلاء المصريين الأوائل على أن شعرهم كان أسود أو بنى اللون . . وأن الرجال كانوا يحلقون لحاهم وشواربهم كدليل على الرغبة فى الأناقة والحرص على النظافة العامة .

● وعثر أيضا على عديد من المصاحن المصنوعة من حجر الاردواز الناعم والتى كانت تستعمل لطحن المواد التى كانوا يستعملونها فى الزينة وتلوين وجوه النساء [المكياج] . . ومن هذه المواد التى عثر عليها كبريتيد الرصاص وأوكسيد الحديد والراتنج والملاخيت [كربونات النحاس القاعدية التى كانت تستعمل كعلاج ولتلوين محاجر العيون] .

●كما عثر على ما يدل على أنهم ابتكروا طريقة استخراج الزيوت من النباتات العطرية واستخدموها فى تنظيف البشرة وتنعيمها واعطائها رائحة زكية .

● ومن القطع الأثرية التى عثر عليها ما يؤكد لنا درجة الرقى التى وصل إليها هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا فى منطقة البدارى فى عصور ما قبل التاريخ ، وذلك مثل الملاعق المصنوعة من العاج والتى كانوا يستعملونها فى تناول الطعام بطريقة متحضرة فى ذلك الزمن المبكر .وكانت هذه الملاعق ذات تجاويف مربعة أو مستطيلة أو بيضاوية، وصنعوا لها مقابض مزينة بأشكال زخرفية أو أشكال على هيئة طيور أو حيوانات لطيفة.

● ومن الخطوات الحضارية التى خطاها سكان البدارى فى ذلك الزمن المبكر انهم ابتكروا فتحًا جديدًا لفن نحت التماثيل الصغيرة فى مصر . . فقد عثر فى مقابرهم على مجموعات من تماثيل النساء مصنوعة من الصلصال ومن الفخار ومن العاج . وبالرغم من الأشكال البدائية لتلك التماثيل إلا أنها تؤكد فكرة ظهور الإرهاصات الأولى لفن

النحت الذى تطور فى العصور اللاحقة حتى أصبحت مصر رائدة لفن النحت فى العالم القديم كله .

●ويقـول بعض العلماء أن تلـك التماثيل الصغيرة التـى دفنـوهـا مع الموتـى كـانت لتحقيق أغراض سحرية لخدمة الميت وحمايته فى العالم الآخر . .

● ولوحظ أن أكثـر مقابرهم كانت جـدرانها مبطنة بالحصير ، وانهم كانـوا يضعون جسد الميت على لـوحة من الخشب أو الحجـر ، وهى طريقة لم تكن مستعملـة من قبل حيث كان يـوسد الجسد فوق التراب . وربما كـانت هذه الطريقة المستحـدثة هى التى تطورت فيما بعد إلى فكرة صناعة التابـوت الخشبى أو الحجرى الذى كان يوضع بداخله الميت . كما كـانوا يلفـون أجساد مـوتاهم فى أكفـان من الجلد أو قماش الكتـان . ومن الغريب أيضا انهم كـانوا يدفنون حيواناتهم النـافقة فى مقابر خاصة وكـانوا يلفون جثثها بالأكفان .

● أما حـرصهم على تـزويد المقبرة بعـدد من الأوانى وأدوات الزينـة والأدوات التى كانت مستعملـة فى الحياة ، فهو يـدل بشكل قاطع على إيمانهم بأن ثمة حيـاة فى العالم الآخر ، كما يـدل على وجود مشاعـر أسرية مستقرة تظهـر فى طريقـة التعبير عن الحنان والتعاطف مع الميت الراحل والحرص على راحته الأبدية . . ومن المشاعر السامية المعبرة عن تلك الأحاسيس الراقية حرصهم على وضع باقة من الورود والزهور العطرية بالقرب من صدر الميت .



فى الوجه القبلى .. قبل مينا بألف سنة !

منذ أقدم عصور التاريخ ، بل وفى عصور ما قبل التاريخ ، كان المصريون يطلقون على بلادهم اسم « الأرضين » وهو اسم مازال المصريون المحدثون يستعملونه حتى الآن بمعنى « الوجهين » القبلى والبحرى .

● وقد أدرك المصريون الأوائل الذين كانوا يعيشون فى عصور ما قبل التاريخ فى الوجهين القبلى والبحرى معتمدين على الزراعة ، أن عمليات الرى والصرف والبذر والحصاد و إعداد مساحات الأراضى التى ينوون زراعتها بالقرب من ضفاف النيل وروابيه ، تحتاج إلى التعاون والتآزر وبذل الجهود الجماعية .

● وأدى هذا التضافر الجماعى إلى مصير حتمى هو ضرورة « الوحدة » . . وهى وحدة بدأت أولاً بتوحيد العائلات الصغيرة فى شكل جماعة . . وتوحيد تلك الجماعات فى شكل قرية . . وتوحيد تلك القرى والمدن فى شكل مقاطعات أو أقاليم أوسع نطاقًا . . وتوحيد تلك المقاطعات أو الأقاليم فى شكل دولة ذات حكومة مركزية واحدة . وعلى هذا الأساس نشأت فى مصر مملكتان . . مملكة فى الوجهه البحرى ، والثانية فى الوجه القبلى .

● ومن الناحية العلمية فإن البحث فى معرفة أسماء الملوك الذين حكموا « الوجهين» فى عصور ما قبل التاريخ يعتبر من أصعب الأمور . . ولا يعرف المؤرخون من هذه الأسماء سوى أسماء بعض الملوك الذين حكموا الوجه البحرى ، واسم ملك واحد ممن حكموا الوجه القبلى فى تلك العصور ، وهو الملك « العقرب » .

● جعلت الطبيعة الجغرافية والبيئية من الوجه القبلى شريطا ضيقا ممتدًا على ضفتى

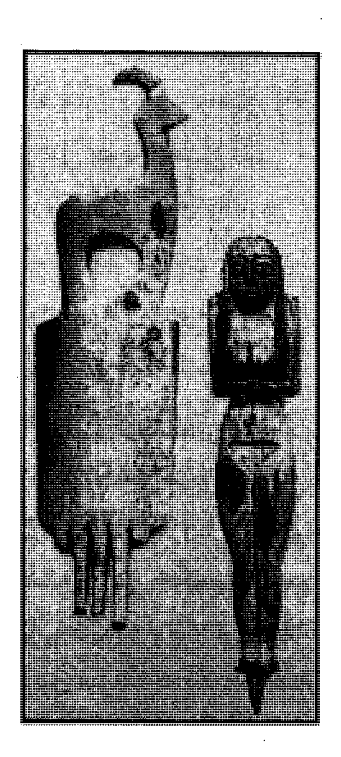
النيل ، تحيط به الصحارى والتلال الصخرية وهذه البيئة الصعبة القاسية هى التى علمت الصعايدة الأوائل الذين كانوا يعيشون فى الوجه القبلى فى عصور ما قبل التاريخ فضيلتى الأصرار والمثابرة ، وأن يكدحوا ويكافحوا دائما وباستمرار ضد الخطر الذى كان يهدد أراضيهم الزراعية ، وهو زحف الرمال الحمراء والصفراء القادمة من الصحراء ، ومنعها من ابتلاع الأرض الخصبة السوداء التى كانوا يسمونها « كيمى » . . كما كانوا يسمون أرض الصحارى الصفراء باسم « دشر » [وأرجو ملاحظة تقارب التسمية بين كلمة « دشر » المصرية القديمة وبين كلمة « ديزرت DESERT » المستعملة فى بعض اللغات الأجنبية] .

● وبالاضافة إلى هذا الخطر الدائم كان هناك خطر مواجهة مياه الفيضان السنوى حين كانت تفيض على الضفتين وتغمر قراهم وأراضيهم الزراعية ، الأمر الذى يتطلب بالضرورة إقامة الجسور على طول ضفتى النهر ، للتحكم فى مياه الفيضان لصالح الانتاج الزراعى ، مع درء خطر الاغراق والتدمير . كذلك فقد قام نهر النيل بدوره فى تسهيل تحقيق هذا التضافر الاجتماعى بين جميع سكان الوجه القبلى ، باعتباره ممراً مائيًا يحقق لهم سبل الاتصال السريع مع جميع سكان القرى والمدن والأقاليم الواقعة على ضفتى النيل بالوجه القبلى حتى مفرق الدلتا .

● وقد أدت هذه الاتصالات المستمرة بين أقاليم الوجه القبلى إلى ظهور ضرورة التنسيق الادارى وتنظيم الجهود الجماعية من أجل صالح السكان ككل ، ومن أجل حشد قوى هؤلاء السكان للوقوف ضد ما يداهمهم من أخطار . وكان هذا الاعتبار هو البذرة التى أنبتت فكرة الدولة التى يحكمها ملك واحد وحكومة مركزية واحدة تعمل لصالح الوجه القبلى بكل أقاليمه ، وكان عددها اثنين وعشرين إقليما . وهذا الدور الادارى والسياسى هو الذى ميز الوجه القبلى بالقدرة الفائقة على قيادة السلطة الادارية والسياسية طوال عصور التاريخ المصرى القديم فى معظم حقباته .

● واتخذت مملكة الوجه القبلى من نبات البردى شعارًا لها . . كما اتخذ ملوكها من التاج الأبيض المعروف ـ واسمه القديم « حدجت» ـ شعارًا ملكيا يلبسه كل من يرتقى عرش تلك المملكة .

● وكانت لمملكة الوجه القبلى عـاصمتان فى مدينتين متقابلتين على ضفتى النيل فى المسافة ما بين جنوب الأقصر وشمال أسوان . المدينة الأولى التى تقع على الضفة الشرقية للنيل هى العـاصمـة السيـاسية والادارية ، وكـان اسمهـا القديـم « نخب » وتسمى «الكاب » حـاليًا . أمـا المدينة الثـانية التى تقع على الضفـة الغربيـة المقابلة ، فكـانت العاصمة الـدينية . وكان اسمها القـديم « نخن » وأطلق عليها الإغريق القـدماء اسم «هيراكونبوليس » أى مدينة الصقر . وكان ملـك الوجه القبلى يتخذها مقرًا لسكناه . . واسمها الآن « الكوم الأحمر » وتقع على بعد حوالى ١٥ كيلو مترا شمال مدينة إدفو .



تمثال صغير لامرأة ، ومشط له يد على شكل غزال ، مصنوعان من العاج ، من عصور ما قبل التاريخ .

فى الوجه البحرى .. قبل مينا بألف سنة !

كان سكـان الوجـه البحرى فى عصور مـا قبل التاريـخ أسعد حالا مـن معاصريهم سكان الوجه القبلى .

● فى ذلك الزمن كـانت الدلتا تتكون من إثنـى عشر فرعًا ، تتفرع منهـا مجموعة لا حصر لها من الروافد المائية الصغيرة ، لذلك فقد كانت معظم أراضيها مليئة بالأحراش والخلجان والمستنقعات والمناطق العشبية . . أما أراضيهـا الزراعية فقد كانت على درجة عالية من الخصوبة ، فزرعت إلى جانب الحبوب بمحاصيل إضافية مثل الكتان والكروم وحدائق الفواكه .

●وكان مناخها أكثر اعتدالاً وأقل قسـوة من مناخ الوجه القبلى . . كما كانت تحف بها شرقًا وغربًا مناطق عشبية واسعة تـرعى فيها قطعان الأغنام والماعز والمواشى الأخرى . . هذا إلى جانـب ما كان يتوفر فيهـا من أسماك ودواجن وطيور ، بالاضـافة إلى وجود عـدد من الملاحـات التـى كـان يستخرج منهـا الملـح الـلازم للطعـام ولحفظ اللحـوم والأسماك .

● وبسبب هذه الـوفرة الهائلة فى الطعـام تعرضت منـاطق الوجه البحـرى لهجرات استيطانية متكررة من الليبيين القادمين من الغرب ، ومن الساميين القادمين من الشرق . . غير أن هذه الهجـرات كانت سرعـان ما تتمصر وتذوب فى مجتمعـات المصريين من سكان الـدلتا الأصليين . كما أدت وفرة الطعـام أيضًا وسهـولة الحصول عليـه إلى توفير الوقت الكـافى أمام المتميـزين من السكان لكى يتفـرغوا للتأمل وابتـداع الحكمة ونسج الأساطير بالاضافة إلى الابداعات الفنية والصناعية .

● وإذا كان الـوجه القبلى فى عصـور ما قبل التـاريخ قد تميـز بالقـدرة على القيادة

الادارية والسياسية ، فقد تميز الوجه البحرى بالقدرة على القيادة الفنية والحرفية . ويقول كثير من المؤرخين ـ استنادًا إلى أسباب جغرافية وبيئية وسكانية ـ إن الوجه البحرى فى ذلك الزمن كان أكثر تقدمًا من الوجه القبلى من الناحية الحضارية .

● و إذا كان علماء الآثار قد عثروا على الكثير من الآثار التى تركها سكان الوجه القبلى فى عصور ما قبل التاريخ ، فقد كان من الصعب العثور على الآثار التى تركها سكان الوجه البحرى فى تلك العصور ، فقد ضاعت تلك الآثار وتلاشت واختفت تمامًا تحت الركامات الهائلة من طمى النيل التى تراكمت على مدى آلاف السنين .

● كان الوجه البحرى آنذاك مقسماً إلى عشرين إقليما ، يتكون كل إقليم منها من وحدة رئيسية تمثل قرية كبيرة أو مدينة وما يتبعها من قرى أخرى صغيرة . ومثل أقاليم الوجه القبلى كان لكل إقليم حاكم أو رئيس ومعبد وسوق تجارى . ومثلما حدث أيضا فى الوجه القبلى ، فقد توحدت أقاليم الوجه البحرى فى شكل مملكة يحكمها ملك واحد وحكومة مركزية واحدة .

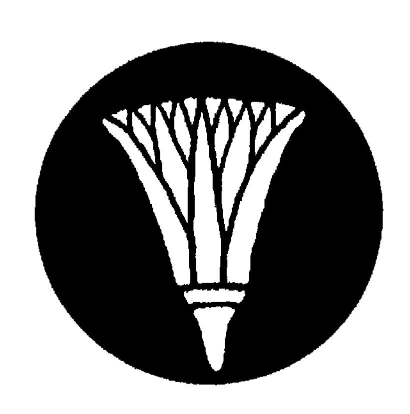
● وبسبب عدم العثور على آثار كافية للاستدلال منها على أحوال مملكة الوجه البحرى فى عصور ما قبل التاريخ ، فقد كان من الصعب تمامًا التعرف على أحوال تلك المملكة والأعمال التى قام بها شعبها وملوكها . وبالرغم من هذا القصور فى العثور على الدلائل الأثرية إلا أن علماء الآثار قد تمكنوا لحسن الحظ من إجراء العديد من الأبحاث والحفائر الأثرية حتى تم العثور على بقايا وآثار قرية كاملة يرجع زمانها إلى عصور ما قبل التاريخ ، وهى قرية « مرمدة بنى سلامة » التى تقع بجنوب غرب الدلتا .

● ولحسن الحظ أيضا فقد تم العثور على أثر بالغ الأهمية يتضمن أسماء تسعة من ملوك الوجه البحرى فى عصور ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات منهم الملوك « سخا » و« خايو » و « تيش » . وقد وردت هذه الأسماء فى ثبت دوّنه الكتاب المصريون فى عصر الأسرة الخامسة التى حكمت مصر لفترة تقدر بنحو مائة وخمسين سنة فيما بين عامى ٢٤٩٤ ق م ـ ٢٣٤٥ ق م . . أى بعد مرور نحو ١٧٠٠ سنة على العصر الذى كانت فيه مصر مقسمة سياسياً إلى مملكة الوجه القبلى ومملكة الوجه البحرى .

● وقد اتخذت مملكة الوجه البحرى من « زهرة اللوتس » شعارًا لها ، كما اتخذ ملوكها من التاج الأحمر بشكلـه المعروف ـ وكان اسمـه القديم « دشرت » ـ شعارًا ملكيًـا يلبسه كل من يرتقى عرشها .

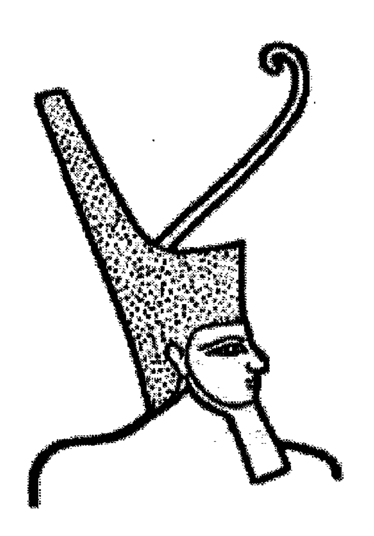
●وكانت لمملكة الـوجه البحرى عاصمتان متجاورتـان هما مدينتا « بى » و « دب » وقـد ادمجتا معًـا فى مدينـة واحدة اطلـق عليها اسم « بـوتو » . . وتسمـى حاليًـا « تل الفراعين » وتقع بشمال غرب الدلتا بالقرب من مدينة « دسوق » جنوب بحيرة البرلس .

● وتقول اسطـورة « إيزيس وأوزيـريس » إن إيزيس قـد لجأت هى وابنها الـرضيع «حورس » إلى أحراش الدلتا فى منطقة « بوتو » . . وظلت هناك حتى اشتد عوده وخرج منها مطالبًا بعرشه فى مصر الموحدة .



زهرة اللوتس

[شعار مملكة الوجه البحرى]



التاج الأحمر

تاج مملكة الوجه البحرى

وحدة مصر .. قبل مينا بألف سنة !

رأينـا كيف أن حيـاة المصريين الأوائل على ضفاف النيـل ، فرضـت عليهم عـوامل الوحـدة وتأليف القلوب والسعى إلى الصـالح العام الـذى يعود بالخير عليهـم جميعًا . ورأينا كيف اتحدت القـرى فى شكل أقاليم ، وكيف اتحدت الأقـاليم فى شكل مملكتين بالوجه القبلى والوجه البحرى . وذلك فى عصـور ما قبل التاريخ وقبل ظهور الملك مينا بنحو ألف عام .

● وتشهد جميع الأدلة الأثـرية التى عثر عليها أو تم اكتشافهـا فى مختلف مناطق كل من هاتين المملكتين على عـدم وجود أية فـوارق كبيرة بين المصريين الأوائل الذين كـانوا يسكنون فى هاتين المملكتين . . فقـد كانت الزراعة هى الحرفة الـرئيسية للسكان فى كل من الوجهين القبلى والبحرى . وكانت الزراعة معتمدة أساسًا على نهر النيل الذى ينهل الجميع من خيراته ، كما يتعرض الجميع لأخطار فيضانه .

● وكان سكان الوجهين يتكلمون لغة واحدة مشتركة وإن اختلفت لهجاتها . . تمامًا مثلما يحدث الآن . . فالمصريـون المحدثـون جميعا يتكلمـون العربية ، ولكـن اللهجات وطريقة نطق الحروف أو الكلمات قد تختلف بين أهالى الوجه القبلى وأهالى الوجه البحرى وسكان المناطق الصحراوية والمناطق الساحلية .

●وكان سكان مملكتى الوجـه القبلى والوجه البحرى يدينون بديـانة تستلهم مبادئها من الروح والعادات والتقاليـد الزراعية . لذلك فقد كانت عقائدهم الـدينية متقاربة فى المبنى والمعنى ، وإن اختلفت الآلهة وتعددت بتعـدد الأقاليم فى كل من المملكتين . .

فقد كان لكل اقليم إلهه الخاص الذى يتعبد إليـه السكان اعتقادًا منهم ان هذا الإله هو الذى يحمى إقليمهم ويوفر لهم الخيرات ويدفع عنهم شرور الحياة . . كما كان لكل من المملكتين إله رئيسى يؤمـن به سكان كل مملكة . . وكان الإله « حـورس » هو الإله الرئيسى فى مملكـة الوجه البحـرى ، والإله « ست » هو الإلـه الرئيسى فى مملكة الـوجه القبلى .

● وبالرغـم من العداء الاسطورى الشهير بين الإلهين « حورس » و « ست » ــ طبقا لما ورد فى اسطورة إيزيس وأوزيريس ـ إلا أن الأساس الدينى فى كل من هاتين الديانتين يعتبر واحدًا . كما كانت العقائد الدينيـة التى سادت بين سكان المملكتين فى عصور ما قبل التاريخ تنتمى إلى فكرة فلسفية واحدة هى « حلول القوة الإلهية فى شخص الملك» . وهذه الفكرة ظلت سائدة فى نظم الحكم فى معظم أنحاء العالم عبر آلاف السنين وحتى وقت قريب حيث كان يستنـد كثير من الملوك فى أوربا وآسيا وأفريقيـا إلى الفكرة القائلة بأنهم « ظل الله فى الأرض » .

● وقـد أدت البيئـة الزراعيـة التى كـان يعيش فيهـا المصريـون الأوائل من سكـان الوجهين القبلى والبحرى أثناء عصور ما قبل التاريخ إلى خلق الفرص بين هؤلاء السكان لكى يتبادلوا المنافع ، ويتبادلوا المواد الأولية والمحاصيل الزراعية التى قد تتوفر فى منطقة دون أخرى على مدار السنة . . بالاضافة إلى تبادل المصنوعات المحلية التى قد تتميز بها كل مملكة عـن المملكة الأخرى ، مع مـا كان يصحب ذلك بطبيعـة الحال من اختلاط اجتماعى نتيجة للمعاملات المستمرة ، ونتيجة لكثير من حالات الزواج والمصاهرة .

● وبسبب مـا كانت تتعـرض له مملكـة الوجـه البحرى من تهديـد وغارات يشنهـا الآسيويـون من الشرق والليبيون من الغرب ، فقـد كان من اللازم أن تجهز المملكـة قوة تحميها مـن تلك الغارات المتكـررة . ولا شك فى أن تلك القوة هـى التى دفعت بعض ملوك الـوجه البحـرى إلى ضرورة التفكير فى توحيـد سكان الـوجهين فى دولة واحـدة ، وذلك بدمج قوة الـوجه القبلى فى قوة الوجه البحرى ، ولوضع حـد للانفصال الذى لا معنى له بين مصر العليا ومصر السفلى .

● وعلى هذا الأساس قام ملوك الوجـه البحرى بفرض سيطرتهم على الوجه القبلى ،

ووحدوا المملكتين فى دولة واحدة ، جعلوا عاصمتها فى مدينة « أون » التى تقع فى منطقتى عين شمس والمطرية شمال القاهرة ، على أساس انها عاصمة تتوسط الوجهين ويسهل منها إدارة شئون الوجهين معًا .

● هذه الوحدة المصرية التى قامت قبل عصر الملك مينا بمئات السنين كانت محل جدل علمى بين المؤرخين وعلماء المصريات ، فبعضهم أكد وجود هذه المملكة المصرية الموحدة فى عصور ما قبل التاريخ ، وبعضهم أصر على أن الملك مينا هو أول من وحد الوجهين وأسس الأسرة الملكية الأولى ، وبدأت فى عهده العصور التاريخية التى مرت على مصر اعتبارًا من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد .



رسم توضيحى لجنود محاربين من عصور ما قبل التاريخ .

تجربة وحدة مصر .. فى عصور ما قبل التاريخ

أشرنا إلى اختلاف بعض المؤرخين وعلماء المصريات حول حدوث أو عدم حدوث «وحدة» سياسية جمعت مملكتى الوجه البحرى والوجه القبلى فى مملكة واحدة ، خلال عصور ما قبل التاريخ ، وقبل « الوحدة الخالدة » التى حققها الملك مينا بعد ذلك بمئات السنين .

● وبالرغم من ندرة الشواهد الأثرية التى يمكن الاستناد إليها لتدعيم هذا الاستنتاج المؤيد لفكرة حدوث الوحدة الأولى ، إلا أن غالبية المؤرخين وعلماء المصريات يرجحون الآن الرأى القائل بحدوث هذه الوحدة الأولى فى عصور ما قبل التاريخ ، وذلك بعد دراسات مستفيضة لكثير من النقوش والصور التى تعود إلى ذلك العصر السحيق فى القدم . . وبعد دراسة رموز وشعارات وآلهة الأقاليم المصرية فى كل من الوجهين البحرى والقبلى قبل أن يتحدا ، والتى ظل كثير منها قائماً بعد أن استقرت « الوحدة الخالدة » بين الوجهين فى العصور التاريخية .

● كما استند العلماء أيضا إلى ما تضمنته أسطورة « إيزيس وأوزيريس » ـ وهى أقدم أسطورة فى العالم ــ وقد ذكرت بها بعض تفاصيل الأحداث التى وقعت فى مصر فى عصور ما قبل التاريخ . وتقول هذه الأسطورة أن « حورس » وهو الإله الرئيسى لمملكة الوجه البحرى خرج بجيشه وأنصاره لمحاربة عمه « ست » وهو الإله الرئيسى لمملكة الوجه القبلى ، وانتصر عليه فى النهاية ، وأصبح أول من تولى عرش مصر الموحدة من البشر المؤلهين .

● واستندوا كذلك إلى ما تضمنته « متون الأهرام » ــ وهى نصوص كتبت فى عصر الأسرة الخامسة أى بعد قيام هذه الوحدة الأولى بأكثر من ألف وخمسمائة سنة ـ حيث

ذكرت فى تلك المتون إشارات إلى أحـداث أسطورية ، ربما تكـون قد حـدثت واقعيًا فى مصر فى عصورها وأزمانها الغارقة فى القدم . ويفهم من بعض هذه الإشارات أن مصر، بوجهيهـا القبلى والبحرى ، كانت قد تـوحدت فى مملكة واحـدة يحكمها « رع » . . ثم تعرضت هـذه الوحدة إلى أحـداث واختلافـات دينية أدت إلى انفصامهـا ، حتى أعيد توحيـد الوجهين مـرة أخرى فى مملكة واحـدة فى بداية عصر الأسرات سنـة ٣٢٠٠ قبل الميلاد .

● ويجمع هؤلاء المؤرخون على أن المملكة المصرية الموحـدة فى عصور ما قبل التاريخ اتخذت عاصمة جديدة ، بدلاً من « بوتو » عاصمة الوجه البحرى و « نخب » عاصمة الوجـه القبلى . وتقع هذه العاصمـة الجديدة بـالقرب من مفرق دلتـا النيل لكى يتم لها الاشراف على شئون الوجهين من مكـان مناسب قريب لكل منهما . وكـان هذا المكان هو مدينة « أون » التى تقع فى منطقة عين شمس والمطرية حاليًا .

● كانت مدينـة « أون » منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ تمثل المركـز الرئيسى لعبادة الإله « رع » الذى يرمز إلى الشمس . . ولعل هذا هو السبب فى تسميتها « هليوبوليس» أى مدينة الشمس فى العصر اليونانى الرومانى . . كما سميت « عين شمس » فى العصر الاسلامى، وهو الاسم الذى ظل مستخدمًا حتى الآن .

● وبعد قيام الوحدة الأولى بين الوجهين البحرى والقبلى فى عصر ما قبل التاريخ ، اتخذت المدينـة شعارًا لها يتمثل فى قـرص الشمس يحيط بـه جنـاحان منشـوران ، يمثل الجناح الأول الوجه البحـرى ويمثل الجناح الثانى الوجه القبلى . وهـذا الشعار بالذات أصبح رمزًا فـرعونيا دائمًا ظل مستخدمًـا على مدى أكثر من أربعة آلاف سنـة استغرقتها العصور التاريخية القديمة فى مصر .

● غير أن هذه الوحدة المصرية الأولى التى حدثت فى عصر ما قبل التاريخ لم تصمد إلى الدوام طويلا ، ولحقت بها عوامل التفكك والانحـلال نتيجة للثورات العديدة التى قـام بها أهـالى وكهـان وحكـام أقـاليم الـوجـه القبلى ، للتخلص من الهيمنـة الـدينيـة والسياسية التى فرضها الوجه البحـرى على مقدراتهم وعقائدهـم الدينية . . فقد كانت

هناك عدة مراكز دينية فى كثير من مناطق الوجه القبلى ، أهمها ما كان فى مدينة « نخن » [الكوم الأحمر حاليا] التى كانت العاصمة الـدينية لمملكة الوجه القبلى . . ومركز دينى آخـر فى « نقـادة » و « البـلاص » بمحـافظـة قنـا . . ومـركـز هـام ثـالـث فى مـدينـة «الأشمونين» بمحافظة المنيا .

● وكانت هـذه المراكز الدينيـة تعتنق أفكاراً وعقـائد ونظرات دينية تختلف مبـادئها الأساسية عن مبادىء وأساسيات ديانة عبادة الإله « رع » الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ظهور تيـارات التعصب الدينـى الذى أدى بدوره إلى تفكـك الوحدة ، وعـودة مملكتى الوجه القبلى والوجه البحرى إلى الاستقلال مرة أخرى .



عين شمس .. عاصمة مصر الأولى !

كان اسمها فى اللغة المصرية القديمة « أونو » كما ينطق أيضا « أيونو » . ثم ورد ذكرها فى التوراة والانجيل باسم « أون » وهو الاسم الذى استقرت عليه اللغة القبطية . . وفى العصر اليونانى الرومانى أطلقوا عليها اسم « هليوبوليس » أى مدينة الشمس . . وبعد الفتح العربى سميت باسم « عين شمس » [ويلاحظ التقارب بين نطق كلمتى عين وأون] .

● وقد ارتبط اسمها بالشمس لأنها كانت مركزاً لعبادة الإله « رع » إله الشمس . . وهى العبادة التى كان لها أكبر الأثر فى الفكر العقائدى والفكر السياسى فى جميع العصور التاريخية القديمة بمصر . وبالرغم من أن هذه العبادة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ ، إلا أنها أخذت تكتسب أهميتها بين العبادات المصرية القديمة منذ أن اتخذت « أون » عاصمة للوحدة المصرية الأولى بين الوجهين البحرى والقبلى ، ثم ازدادت أهميتها فى عصر الأسرة الرابعة [٢٥٧٠ ــ ٢٤٨٠ ق م] حين أصبح الملوك يسندون شرعية حكمهم إلى الادعاء بأنهم أبناء « رع » . . وظهر اسم « رع » مقرونًا بأسمائهم مثل « خفرع » و « منكاورع » . وبلغت ديانة « رع » ذروتها فى عصر الأسرة الخامسة [٢٤٨٠ ـ ٢٣٤٠ ق م] .

● وتدل شواهد أثرية عديدة على أن ضفاف وروابى النيل عند حافة الصحراء الشرقية وبالقرب من مفرق الدلتا ، كانت من المناطق العامرة خلال عصر ما قبل التاريخ . وكان مفرق الدلتا فى تلك العصور يقع جنوب مفرقها الحالى بمنطقة القناطر الخيرية . وعثر على آثار كثيرة يرجع زمانها إلى تلك العصور فى الشريط العمرانى القديم الممتد من منطقة المطرية وتل الحصن وعرب الحصن وأرض النعام وعين شمس حتى منطقة صحراء العباسية والممتدة جنوبا حتى منطقة المعادى وطرة وحلوان . وتدل جميع

تلك الآثار الغارقة فى القدم والتى عثر عليها فى تلك المناطق على أن المصريين الأوائل الذين عاشوا فيها خلال عصور ما قبل التاريخ كانوا ذوى حضارة متميزة ، بل ويقول بعض المؤرخين أنهم كانوا على علاقة بالشعوب الأجنبية فى مناطق فلسطين وشمالها .

● وكانت منطقة « أون » ـ حتى من قبل أن تتخذ أول عاصمة لمصر الموحدة مركزاً لعبادة الإله « رع » إله الشمس ، كما كانت أيضا مركزا علميًا للحكمة والفلسفة والفلك وتنظير العقائد الدينية ، ومنها خرجت أول رؤية فلسفية لأقدم مذهب دينى لتفسير نشأة الوجود وخلق السموات والأرض والانسان .

● وقد تأثر الفلاسفة اليونانيون الأوائل فى القرن الخامس قبل الميلاد ـ أى بعد مرور أكثر من ٣٥٠٠ سنة ـ بتلك الرؤية الفلسفية المصرية لنشأة الوجود وخلق العالم ، وأخذوا بها أو ببعض جوانبها ومبادئها فى وضع أقدم الأسس الأولى للفلسفة اليونانية .

● وتقول النظرية المصرية انه فى البدء كان خضم المحيط الأزلى « نون » وانبثق منه الإله « أتوم » الذى خلق نفسه بنفسه ثم خلق كل شىء بدءاً بالسموات والأرض . ومن الغريب أن اسم « أتوم » هذا قد أطلق فى اللغات الأجنبية على « الذرة » وهى أصل كل شىء . . وكان اسمه فى اللغة الأجنبية المصرية القديمة ينطق بكلمة « تم » [ومعناها التمام أو الكمال أو الاكتمال ـ كما أن معناها فى اللغة العربية اكتمل] . أما كلمة « أتوم » فهى تصحيف للاسم المصرى القديم . وتقول النظرية أيضاً أن « أتوم » هو أصل الجنس البشرى ، ويشير بعض العلماء المفسرين إلى التقارب بين كلمتى « أتوم » و «آدم» .

● ولم تفقد مدينة « أون » [عين شمس] أهميتها العلمية بعد أن زالت أهميتها السياسية كأول عاصمة لمصر الموحدة فى عصور ما قبل التاريخ ، وبعد أن تفككت هذه الوحدة وعادت مملكة الوجه البحرى إلى عاصمتها « بوتو » [تل الفراعين حاليًا] وعادت مملكة الوجه القبلى إلى عاصمتها القديمة فى المدينتين المتقابلتين على ضفتى النيل « نخب » و « نخن » [الكاب والكوم الأحمر حاليًا] . . وظلت المدينة محتفظة بدورها العلمى والحضارى طوال العصور التاريخية التى مرت على مصر على مدى آلاف السنين حتى العصر اليونانى الرومانى حين أطلق عليها اسم « هليوبوليس » .

أمجاد مصرية .. فى عين شمس القديمة

ذكرنا أن مدينة أون [عين شمس حاليا] كانت أول عاصمة اتخذتها مصر الموحدة فى عصور ما قبل التاريخ ، وأشرنا إلى أنها كانت تتبوأ مركزاً دينياً رفيعاً ، كما كانت مركزاً تعليمياً للحكمة والفلسفة والفلك وتنظير العقائد الدينية .

● وظلت هذه المدينة محتفظة بتلك المكانة العالية بين المدن المصرية طوال حقبات التاريخ القديم بأكملها . وبالرغم من قلة الآثار التى عثر عليها أو تم اكتشافها فى منطقة « عين شمس » إلا أن باستطاعتنا أن نستكمل المعلومات عن هذه المدينة العظيمة مما ورد فى التسجيلات المكتوبة على الآثار التى تركها ملوك وفراعنة مصر فى العصور التاريخية المختلفة ، أو بالمعلومات التى ذكرها عديد من المؤرخين القدماء من الأجانب والعرب .

● تدل المدونات الهيروجليفية القديمة على أن « كبير كهنة مدينة أون » كان لقباً يدل على مكانة رفيعة على أعلى مستوى دينى ودنيوى ، فقد لقب به الوزير «إيمحوتب » وزير الملك « زوسر » [حوالى عام ٢٩٨٠ ق م] ، وهو أول معمارى عبقرى فى تاريخ الحضارة الانسانية ، وهو الطبيب العظيم الذى اعتبره القدماء — من المصريين والأجانب — إلهاً للطب ، وهو المهندس الذى أشرف على تصميم وبناء الهرم المدرج بسقارة الذى يعتبر أول بناء حجرى بهذه الضخامة فى تاريخ الانسان على الأرض .

● كان المصريون القدماء يلقبون كبير كهنة أون بألقاب « كبير العرافين الفلكيين » و « الرائى الأعظم » و « الناظر إلى السماء » وذلك باعتباره على رأس الفلكيين الذين كانوا يرصدون مسارات النجوم فى السماء ويضبطون التقويم لقياس الزمن وحساب السنوات والشهور والأيام .

● ومن الثابت تاريخياً أن ملوك الأسرة الخامسة المعروفين باسم « ملوك الشمس » هم الذين جعلوا عبادة الشمس « رع » ديانة رسمية للدولة المصرية . وتدل الشواهد الأثرية على أن الملك « أوسر ـ كاف » أول ملـوك هذه الأسرة كان كبير كهنة مـدينة أون ، وتولى عرش مصر بعـد الملكة « خنت كاوس » وكـانت آخر من حكـم مصر من ملوك الأسرة الرابعة .

● وتدل بعض المدونات الأثرية أيضاً على أن مدينة أون كانت مركز القضاء والقانون فى مصر القديمـة . وكان بها قصر عظيم يعيش فيـه صاحب أكبر منصـب قضائى فى البلاد ، وكان اسمه « قصر القاضى » . كما كان بها قصر آخر يسمى « القصر الكبير » كان يعيش فيه حاكم الإقليم أو ينـزل به الفرعون عندما يقوم بزيـارة المنطقة ، بالاضافة إلى عدد كبير من قصـور النبلاء وعلية القوم ، وإلى مجمـوعة كبيرة من المعابـد الضخمة وبيـوت الأهالى ، والجبـانات والمدافـن ، خصوصـاً فى منطقة تل الحصـن بالقـرب من المطرية . ويقول علماء الآثار أن هناك آثاراً كثيرة مـازالت مدفونة تحت المبانى والمنشآت الحديثة وبيوت الأهالى فى منطقتى عين شمس والمطرية وما حولها .

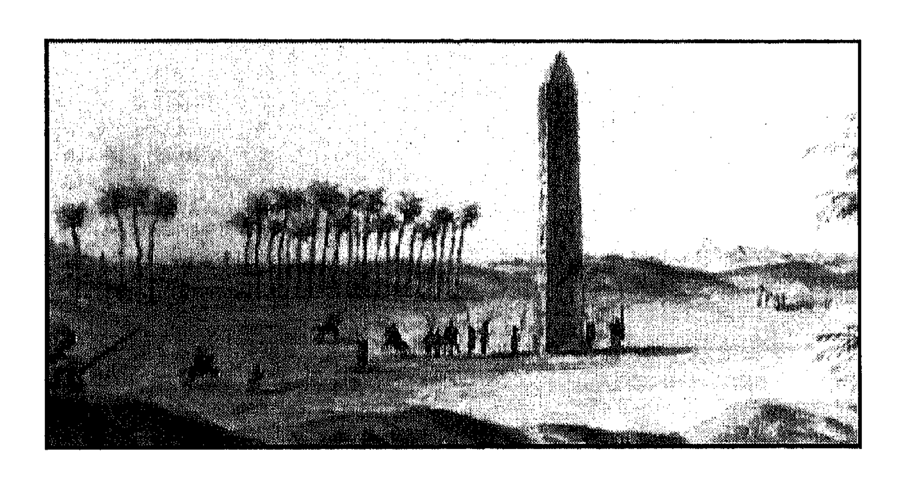
● كما أن آثاراً كثيرة قد نهبت فى عصر قياصرة روما الذين حكموا مصر خلال العصر الرومـانى ، خصوصاً بـالنسبة للمسلات التى كـانت مقامة فى سـاحات المعابـد وعند مداخلها . كما نهبت معظم المقـابر بكل ما كانت تحتويه من كنـوز وقطع أثرية . وتدل الشواهد على أن بقايا جدران المعابـد والقصور القديمة فى منطقتى عين شمس والمطرية قـد استخدمهـا الأهالى كمحجـر لتوريـد القطع الحجـرية التى استخـدمت فى مبـانى ومنشآت مدينة القاهرة الفاطمية عند بداية انشائها فى القرن العاشر الميلادى .

● وللأسف الشديـد فقد زالت جميع هذه الآثار العظيمة وانـدثرت ـ أو دفنت تحت الأرض كما يقول بعض علماء الآثار ـ ولم يعد باقياً منها سوى « مسلة عين شمس » وهى إحدى المسلات العديدة التى أقامها ملوك وفراعنة الدولتين الوسطى والحديثة فى تاريخ مصر القديم . وهـذه المسلة الباقيـة حتى الآن بناها الملك « سنـوسرت الأول » وهو من ملـوك الأسرة الثـانيـة عشرة فى القـرن العشرين قبل الميـلاد . وهـى قطعـة واحـدة من

الجرانيت الوردى ترتفع نحو ٤ , ٢٠ متراً ، ويبلغ وزنها نحو ١٢١ طنًا .

● ومن الآثـار ذات الطابع الدينـى التى مازالت قـائمة حتى الآن « شجرة مـريم » وهى الشجـرة التى يقـال أن العذراء مـريم قـد استظلت بظلهـا حين وصلت إلى مصر ومعها السيد المسيح عليـه السلام حين كان طفلاً ، بالاضافـة إلى « البئر المبارك » الذى حفره المسيح عليـه السلام بيـديه المباركتين حين ذهبت أمـه العذراء مـريم للبحث عن ماء .

● ومن هـذا النبع المبـارك شرب المسيح والعـذراء ، وقـامت العـذارء بغسل ثيـاب المسيح وألقت ماء الغسيل على الأرض فنبـت فيها نبات البلسم المعروف بـاسم « شجر البلسان » وكان زيته العطرى يستخدم فى تكريس ماء التعميد وتدشين الكنائس وعلاج كثير من الأمراض والحروق والبواسير . ويقول بعـض المؤرخين العرب أن هذا النبات لا تصلح زراعتـه إلا فى هـذه المنطقة مـن أرض مصر ولا ينبت فى أيـة جهة أخـرى ، وأن سلاطين المماليك كانوا يهتمون بزراعته ويصـدرون زيته أو يهدونه لملوك الفرنج وبطريرك الأقباط .



رسم بالألوان المائية يرجع تاريخه إلى عام ١٨٠٠ م من أعمال الفنان الألمانى « لويجى ماير » للمسلة المصرية ، وهى إحدى بقايا آثار عين شمس [مدينة أون القديمة] .

عين شمس ..وأقدم تقويم شمسى فى العالم !

حرصت المجتمعات الانسانية فى عصور ما قبل التاريخ على معرفة كيفية حساب الزمن . واهتدت تلك المجتمعات بصفة عامة إلى اتخاذ القمر وسيلة لهذا الحساب ، فالقمر يمر بدورة منتظمة من الممكن تتبعها بسهولة ، فهو يبدأ هلالاً ويظل يكبر حتى يكتمل بدراً ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يدخل المحاق ويختفى ، ثم يعود إلى الظهور فى شكل هلال جديد .

● وهكذا بدأ المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ يعتمدون على القمر فى تحديد بداية ونهاية الشهر القمرى الذى جعلوه وحدة لحساب الزمن .

● وبالنظر إلى أن حياة المصريين الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ كانت مرتبطة تمامًا بالزراعة والدورة الزراعية ، فقد لاحظوا أن الشهور القمرية مختلفة الطول ما بين ٢٩ ؛ ٣٠ يومًا ، وبالتالى فهى ليست دقيقة ولا تصلح إطلاقا فى تحديد الدورة الزراعية ولا ضبط مواعيد مواسم الزراعة من فيضان وحرث وبذار وحصاد .

● وقد ذكرنا من قبل أن مدينة « أون » [عين شمس] كانت عاصمة مصر الأولى فى عصور ما قبل التاريخ ، وكان كهنتها مشهورين برصد الشمس والنجوم مع تدوين نتائج الرصد بصفة منتظمة ، ولذلك فمن المقطوع به بصفة نهائية أن كهنة وعلماء عين شمس هم الذين وضعوا ـ فى عصور ما قبل التاريخ ـ أول وأدق « تقويم شمسى » فى العالم .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن المصريين الأوائل والمصريين القدماء كانوا على معرفة تامة برصد النجم « سوتيس » المعروف باسم « الشِّعْرَى اليمانية » . . واهتموا برصد ظاهرة اقتران شروق هذا النجم بشروق الشمس كل سنة . . وبدأوا حساب

السنين عندما حدث هذا الاقتران فى أول شهر « توت » . . وهو اليوم الذى حددوه كأول يوم لبداية السنة المصرية .

● وهكذا ابتدع هؤلاء الفلكيون المصريون الأوائل فكرة حساب السنين ، على أساس ان السنة تتكون من ٣٦٥ يومًا ، مقسمة إلى ١٢ شهراً متساويًا ، ويتكون كل شهر من ٣٠ يومًا ، وجعلوا الأيام الخمسة الأخيرة أيام أعياد قومية وشعبية يبدأ بعدها عام جديد .

●وقسموا السنة الشمسية المصرية إلى ثلاثة فصول تتناسب مع الدورة الزراعية ، وهى فصول الفيضان والشتاء والصيف . . ويتكون كل فصل من أربعة شهور . . كما قسموا كل شهر إلى ثلاثة أقسام متساوية يتكون كل قسم منها من ١٠ أيام « أعشور » . . وتتميز هذه الأقسام بأنها مضبوطة ومتساوية ، ولا يتعدى القسم الأخير منها على الشهر التالى ، مثلما يحدث فى الأخذ بنظام الأسابيع حيث يتكون كل أسبوع من ٧ أيام ، وقد تتداخل هذه الأسابيع فى الشهور ، فتبدأ أيام الأسبوع الأخير فى شهر ، وتنتهى فى الشهر التالى كما يحدث حاليًا .

● وابتدع هؤلاء الفلكيون المصريون الأوائل أيضا فكرة تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة متساوية تبدأ من منتصف الليل إلى منتصف الليل الذى يليه . وقسموا هذه الساعات إلى قسمين : ١٢ ساعة لليل و ١٢ ساعة للنهار .

● ولكن بالنظر إلى أن فترة السنة بالقياس الزمنى الفلكى تساوى ٣٦٥ يومًا وربع يوم ، فقد كان لابد من إضافة يوم سادس إلى أيام الأعياد الخمسة كل أربعة أعوام . وذلك حتى ينتظم رصد اقتران شروق الشعرى اليمانية بشروق الشمس . وقد لاحظ الفلكيون المصريون الأوائل أن هذا التقويم الشمسى الذى ابتدعوه يعدل نفسه بنفسه كل ١٤٦١ سنة .

● وبدراسة وتحليل المدونات الأثرية والإرصادات المكتوبة فى البرديات أو على جدران المعابد القديمة ، تمكن علماء الآثار والفلكيون المحدثون من تتبع حدوث ظاهرة اقتران شروق الشعرى اليمانية بشروق الشمس فى أول شهر توت مع ظهور أول تباشير

فيضان النيل بمنطقة أسوان ، وحددوا تاريخ حدوث هذه الظاهرة لأول مرة فى التقويم الميلادى المعمـول به حـاليًا وذلك فى سنـة ١٣٩ ميلاديـة . وبذلـك أصبح من السهل عليهم تحديـد التاريخ الـذى ابتكر فيه المصريـون الأوائل فكرة التقـويم الشمسى على أساس تكـرار حدوث هذه الظـاهرة فى عـام ١٣٢١ ق م ، وفى عام ٢٧٨١ ق م ، وفى عام ٤٢٤١ ق م . . وهـو العام الذى حـدده العلماء لبداية التقـويم الشمسى المصرى . . بينما يقول علماء آخرون أن هذا التقويم المصرى بـدأ عام « ٥٧٠١ قبل الميلاد » وهو أول تقويم شمسى عرفه الانسان .



أداة لقياس ومراقبة تتبع مسار النجوم والكواكب مصنوعة من جريد النخيل .

مصر علمت العالم حساب الأيام والسنين !

فى عصور مـا قبل التاريخ ، وبعـد أن ابتدع كهنة عين شمس التقـويم الشمسى ، وقسموا السنة إلى ٣٦٥ يومًـا ، بواقع ١٢ شهراً يتكون كل شهر من ٣٠ يومًـا مع اضافة خمسة أيـام أعياد بعـد نهاية الشهر الثـانى عشر وقبل بـداية السنة الجديـدة ، انتظمت مواعيد المواسم الزراعية ، ولكن إلى حين .

● ولأن السنة الشمسية طبقـا للحساب الفلكى الدقيق تتكون من ٣٦٥ يـومًا وربع يوم ، فلـم يعد اقتران شروق الشِّعْـرَى اليمانية وشروق الشمس يحدث مع بـداية تبـاشير الفيضان فى أول شهر توت . وذلك بسبب حدوث فارق قدره يوم واحد كل ٤ سنوات ، وحدوث فـارق ١٠ أيام كل ٤٠ سنـة ، و٣٠ يومًـا كل ١٢٠ سنة وهكـذا . . وبطبيعة الحال فإن هذه الفـوارق تؤدى حتمًا إلى اختلال حسـاب تواريخ الدورة الـزراعية . ومع ذلك فقد كان هذا التقويم الشمسى المصرى يصحح نفسه بنفسه كلما مرت ١٤٦١ سنة فيعـود اقتران شروق الشعرى اليمانيـة وشروق الشمس مـع وصول تبـاشير الفيضـان إلى اسوان فى أول شهر توت .

● ويـؤكد علماء الآثـار المصرية والفلكيـون المحدثـون أن الكهنة المصريين ورجـال الحكومة والدولـة القدماء كانوا يعدلون التقويم الشمسى المصرى ويصححـونه بطريقة تزيـل هذا الاختلال فى حسـاب التواريخ . ومعنـى ذلك أنهم كانـوا يدركـون أن السنة الشمسيـة الدقيقـة تساوى ٣٦٥ يـومًا وربع يـوم ، فيعدلـون حساب السنين على هـذا الأساس .

●غير أن المصريين الأوائل الذين ابتـدعوا هـذا التقويم الشمسى فى عصـور ما قبل التاريخ لم يجعلوا للسنين أرقامًا مسلسلة ــ كما هو حادث الآن فى التقويم الميلادى ـ بل

كانوا يحددون التواريخ بطريقة أخرى ، فيقولون مثلا « حدث فى السنة التاسعة فى الشهر الثانى من فصل الفيضان فى اليوم الرابع والعشرين من حكم الملك / فلان . . » .

● وبالرغم من هذه الصعوبة فى تحديد التواريخ وتسلسل السنين ، فقد تمكن علماء الآثار والفلكيون المحدثون من حساب سنوات التاريخ المصرى القديم بطريقة حسابية فى غاية السهولة ، وذلك اعتمادًا على ما دونه المصريون القدماء من تسجيلات كثيرة جدا لارصاداتهم لظاهرة اقتران شروق الشعرى اليمانية بشروق الشمس . وعلى سبيل المثال إذا دون القدماء هذا التاريخ مقرونًا برصدهم للشعرى اليمانية بأن يذكروا أن شروق هذا النجم اقترن بشروق الشمس فى اليوم السادس عشر من شهر برموده [أى ليس فى أول شهر توت] فيمكن عندئذ اجراء الحسابات الفلكية بطريقة فى غاية اليسر تؤدى إلى تحديد تاريخ هذا الحدث فى إحدى السنوات الأربع الواقعة بين سنتى ١٨٨٢ ـ ١٨٧٩ قبل الميلاد .

● ويقول « برستيد » أن التقويم الشمسى الذى ابتدعه المصريون الأوائل فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، ظل مستخدمًا لفترة تزيد عن ٦٠٠٠ سنة حتى الآن ، وهذا التقويم المصرى هو الأساس الذى يقوم عليه التقويم الميلادى المستعمل الآن فى جميع أنحاء العالم .

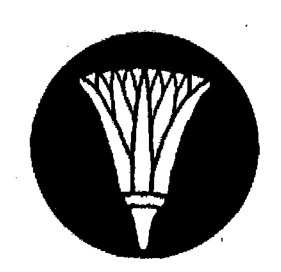
● وأدخلت على التقويم المصرى بعض التعديلات والتصحيحات الطفيفة جدا على مدى آلاف السنين منذ أن وضعت قواعده وحتى الآن . . ففى سنة ٢٣٨ قبل الميلاد ، ومن مدينة الاسكندرية عاصمة مصر فى ذلك الزمن ، أصدر « بطلميوس الثالث » أمراً ملكيا يسمى « الأمر الكانوبى » قرر فيه إضافة يوم كل أربع سنوات إلى أيام الأعياد الخمسة فى نهاية السنة المصرية . وفى ذلك العصر أيضا توصل العلماء المصريون القدماء إلى فكرة تقسيم « الساعة » إلى ٦٠ دقيقة . ويلاحظ أن التعديل الذى قرره « بطلميوس الثالث » ليس جديداً ولم يكن تعديلاً بالمعنى المفهوم ، لأنه كان

مجرد تنفيذ لعرف قديم حين كـان الكهنة المصريون يعدلون التقويم فى الازمـان القديمة ولكن بطرق مختلفة .

● وحين حضر « يـوليوس قيصر » إلى مصر سنـة ٤٧ قبل الميـلاد ، أعجب بـدقـة التقويـم الشمسى المصرى ، وحين عاد إلى روما ـ التى كانت تستعمل التقويم القمرى ـ أمر بتغيير هذا التقـويم ، واتباع التقويم المصرى بكافـة قواعده ، مع فكرة إضـافة يوم سادس إلى الأيام الـ ٣٦٠ كل أربع سنـوات . وفى روما سميت السنوات الثلاث الأولى سنوات بسيطة وسميت السنة الرابعة سنة كبيسة . . وسمى هذا التقويم الرومانى باسم « التقويم اليوليانى » .

● وظل التقـويم الشمسى المصرى معمـولاً فى كـافة أنحـاء أوربـا خلال العصـور الوسطى ، وأخذ به العالم الفلكى الشهير « كوبرنيكوس » .

● وبالنظر إلى أن الحسـابات الفلكية الدقيقة تدل على أن الـدوران السنوى لكوكب الأرض حول الشمس يستغرق بالضبط ٣٦٥ يوما + ٥ ساعات + ٤٨ دقيقة + ٤٦ ثانية . . أى أن فارق الربع يوم لم يكن ست ساعات بالضبط ، وانما تنقصة ١١ دقيقة و ١٤ ثانية . وقد تـراكمت هذه الدقائق والثوانى حتى سنـة ١٥٨٢ ميلادية ، وأدى ذلك إلى حدوث « الاعتـدال الربيعى » فى ١١ مارس بـدلاً من ٢١ مارس . ولذلك فقـد أصدر البابا « جريجورى الثالث عشر » بابا روما قراراً بتصحيح هذا الفارق ، وأعلن أن السنين التى تقبل القسمة على « ٤ » تعتبر كبيسـة ، وجعل بداية كل عام فى أول ينـاير . وهذا «التقويم الجريجورى » هو نفســه التقويم الميلادى المستعمل حاليًا مستمـدًا قواعده من التقويم المصرى القديم الذى ابتدعه كهنة عين شمس منذ أكثر من ٦٠٠٠ سنة .



التقويم القبطى عمره الحقيقى ٦٣٠٠ سنة !

حين وضع كهنة وعلماء عين شمس أسس وقواعد التقويم الشمسى المصرى فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، وضعوا فى الاعتبار المواءمة بين تقسيم أيام وشهور هذا التقويم وتقسيم مراحل الدورة الزراعية بدءاً من غمر الأرض بمياه الفيضان ثم الحرث والبذار والحصاد . وهكذا ارتبط التقويم الشمسى المصرى فى ذهن المصريين بأحوال الزراعة ومراحلها .

● وذاق الشعب المصرى الأمرين حين وقعت مصر تحت حكم الرومان وتعرضت البلاد إلى غطرسة وُلاتهم وجنود وضباط جيوشهم . وفى عهد الامبراطور الرومانى «دقلديانوس » [بين عامى ٢٨٤ ــ ٣٠٥ الميلاديين] تعرض المسيحيون المصريون إلى عمليات وحشية من الاضطهاد والتقتيل ، خصوصاً فى سنة ٣٠٣ ميلادية وما بعدها . ولذلك فقد أطلق المسيحيون المصريون اسم « عصر الشهداء » على فترة حكم هذا الامبراطور الظالم المستبد .

● واعتبارًا من بداية عصر الشهداء فى عام ٢٨٤ م ، بدأت الكنيسة المصرية عصرها ، وبدأت فى تطويع التقويم الشمسى المصرى للدخول إلى مرحلة جديدة سميت « التقويم القبطى » .

● وتبدأ السنة القبطية فى ١١ سبتمبر أو ١٢ سبتمبر [فى كل عام يسبق السنة الكبيسة فى التقويم الميلادى الحالى] . والتقويم القبطى ملتزم حرفيا بقواعد التقويم الشمسى المصرى القديم الذى وضع المصريون الأوائل أسسه فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد . وهو التقويم الذى يتبع الدورة الزراعية فى مصر .

● ومن المعروف تاريخيًا أن المصريين القدماء أطلقوا أسماء محددة على الشهور بدلاً من الأرقام ، وذلك فى عصر الأسرة السادسة والعشرين [٦٦٤ ـ ٥٢٥ قبل الميلاد] .

وقد احتفظ التقويم القبطى بأقرب منطوق لأسماء الشهور المصرية القديمة طبقا لقواعد النطق فى اللغة القبطية . كما ابتكر الفلاحون المصريون فى العصور اللاحقة أمثالاً شعبية ترتبط بكل شهر من هذه الشهور . وقد سميت هذه الشهور كما يلى :

● الشهر الأول « توت » ويقع فى شهرى سبتمبر واكتوبر الميلاديين . وترجع تسميته إلى الإله « تحوت » إله الحكمة والمعرفة والعلوم ، ويرمز إليه بالطائر المقدس «أبو منجل » الذى تظهر أسرابه فى أول السنة الزراعية ويتخذه الفلاحون بشيراً ببدء الزراعة . ويرتبط به مثل شعبى يقول « توت . . الكتكوت يأكل ويموت » وذلك لحدوث « شوطة » أو « فرة » تصيب الدواجن فى هذا الشهر بشكل وبائى ، فكان من اللازم تحذير المصريين بضرورة العناية بالدواجن التى يربونها وتوفير العلاج اللازم إذا مرضت .

●الشهر الثانى « بابه » ويقع فى شهرى اكتوبر ونوفمبر . وترجع تسميته إلى شهر «آبه » أو شهر عيد « أوبت » الذى كان يجرى الاحتفال به فى طيبة / الأقصر تمجيدًا للإله آمون . ويرتبط به مثل شعبى يقول « بابه . . خش واقفل البوابه » . . ففى هذا الشهر يكون الفلاحون قد انتهوا من الحصاد وتصبح المخازن مملوءة بالحبوب ، فكان من اللازم تحذيرهم بضرورة غلق أبواب المخزن أو « الشونة » خوفًا على الحبوب المخزونة من اللصوص أو المعتدين .

● الشهر الثالث « هاتور » ويقع فى شهرى نوفمبر وديسمبر . وترجع تسميته إلى الإلهة « حتحور » إلهة الحب والخصب والجمال والرقص والموسيقى . ويرتبط به مثل شعبى يقول « هاتور . . أبو الدهب المنثور » وفيه يكتمل نضج حبوب الذرة التى تبدو كالذهب المنثور .

● الشهر الرابع « كهيك / أو كياك » ويقع فى شهرى ديسمبر ويناير . وترجع تسميته إلى الاسم المصرى القديم « كاها كا » ومعناه اجتماع أو تآلف الأرواح ، حيث أن كلمة « كا » معناها الروح أو القرين . ويرتبط به مثل شعبى يقول « كياك . . صباحك

مساك تقوم من نومك تحضر عشاك » وذلك للدلالة على قصر طول النهار بالنسبة لطول الليل خلال ذروة فصل الشتاء .

● الشهر الخامس « طوبه » ويقع فى شهرى ينـاير وفبراير . وترجع تسميته إلى كلمة « طوبيا » فى اللغة المصرية القديمة ومعناها الأعلى أو الأسمى ، كما كانت تطلق على إله المطـر . ومن هذه الكلمـة أيضا اشتـق اسم مدينـة طيبة / الأقصر . ويـرتبط بـه مثل شعبى يقـول « طوبـه . . تخلى الصبية كركـوبه » ففى هـذا الشهر يشتـد البرد فتنكمش الأجسام التماساً للدفـء وتبدو الصبية كالمرأة العجـوز . وكان القدماء يحتفلون فيه بعيد القمح ونمو الزراعة الشتوية وبداية توريق الأشجار .

● الشهر السادس «أمشير» ويقع فى شهرى فبراير ومارس . وترجع تسميته إلى اسم الإله « مشير» وهو إله مصرى قديم للريـاح والعواصف . وفيه يشتد هبوب الهواء وتكثر العواصـف . ويرتبط بـه مثلان شعبيـان يقول أولهما « أمشير . . يقـول للزرع سير سير» دلاله على بداية نمو ونضج المزروعات الشتوية . ويقول الثانى « أمشير . . أبو الزعابيب الكتير » حيث تكثر فيه الرياح .

●الشهـر السابـع « برمهـات » ويقع فى شهـرى مـارس وابـريل . وكـان قدمـاء المصريين ينسبونه إلى الفرعون « أمنحتب» . وفيه ينضج الزرع وتنمو المحاصيل والثمار، ويبـدأ فيـه الفلاحـون عمليـة الحصـاد المبكـر . ولذلـك يـرتبط بـه مثل شعبى يقـول «برمهات . . روح الغيط وهات» .

●الشهر الثـامن « برموده» ويقع فى شهرى ابـريل ومايو . وتـرجع تسميته إلى اسم الإلهة « رنـوده » إلهة الحصاد عنـد قـدمـاء المصريين والتى كـانوا يـرمـزون إليهـا بالحيـة المقدسة . ويرتبط به مثل شعبى يقـول «برموده . . دقوا الشعير بالعموده . . ولايبقى فى الغيط ولاعوده» وذلك لأن الفلاحين يكونـون قد انتهوا من جمع وحصاد محصول الشعير وتهيأوا لدقه بالعامود الذى كان يستخدم قديماً فى عملية طحنه .

● الشهر التاسع « بشنس » ويقع فى شهرى مايو ويونيو . وترجع تسميته إلى الإسم المصرى القديم « بن خنسو » أى شهـر الإله خنسو إله القمر . ويـرتبط به مثل شعبى يقول « بشنس . . اكنـس البيت كنس » وذلك لأن الفلاحين يكـونون قد تخلصـوا من

المحصول أو تصرفوا فيه ، فمن الواجب عندئذ كنس وتنظيف البيت أو الشونة من بقاياه استعداداً لاستقبال المحصول التالى .

● الشهر العاشر « بؤونه» ويقع فى شهرى يونيو ويوليو. وترجع تسميته إلى اسم «با أونى» أى وادى الحجارة بالقرب من مدينة طيبة / الأقصر. ويرتبط به مثل شعبى يقول « بؤونه الحجر » للدلالة على شدة حرارة الجو التى تؤثر فى الحجر. وكان اليوم الحادى عشر من شهر بؤونه يسمى يوم « نزول النقطة » وتميل فيه مياه النيل إلى الاخضرار مبشرة بأول فصل الفيضان . وهناك اسطورة مصرية قديمة تقول أن « النقطة» هى أول قطرة من الدموع تنزل فى النيل من عينى « إيزيس» حزناً على مصير زوجها الشهيد « أوزيريس» فتبدأ مياه النيل فى الزيادة والفيضان .

● الشهر الحادى عشر « أبيب» ويقع فى شهرى يوليو وأغسطس . وترجع تسميته إلى اسم الإلهة« أبيبى» التى ترمز إلى الفرحة بانتصار الخير على الشر بانتقام « حورس » لأبيه «أوزيريس» من عدوه «ست» . ويرتبط به مثلان شعبيان يقول أولهما « اللى ياكل ملوخية فى أبيب يجيب لبطنه طبيب» وذلك لأن أعواد الملوخية الخضراء المزروعة فى الغيط تكون قصيرة فى هذا الوقت من السنة ، ومن ثم تكون مختلطة ببعض الأنواع من الأعشاب الضارة فيتسبب أكلها فى وجع البطن . أما المثل الشعبى الثانى فيقول «أبيب . . طباخ العنب والتين » دلالة على نضج هذه الثمار خلال هذا الشهر .

● الشهر الثانى عشر «مسرى» ويقع فى شهرى أغسطس وسبتمبر . وترجع تسميته إلى « مس رع» بمعنى ابن أو وليد رع إله الشمس . وفيه تزداد حرارة الشمس وتزداد مياه النيل . ويرتبط به مثل شعبى يقول « فى مسرى . . تجرى كل ترعه عسره » وذلك تعبيراً عن الفرحة بامتلاء كل الترع من وفرة مياه الفيضان بعد أن كانت شرقانة أو قليلة المياه . ومن الطريف أن نذكر أن الاسم المصرى القديم للترعة هو « اتروعا » معناه القناة الكبيرة ، ومن المؤكد أن الاسم العربى قد اشتق من اللغة المصرية القديمة .

● ومن هذا يتضح لنا كيف ارتبط التقويم القبطى بالتقويم الشمسى المصرى القديم . . ولا غرابة إذن أن نقول أن التقويم القبطى وإن كان قد بدأ سنة ٢٨٤ ميلادية ، إلا أن عمره الحقيقى يقترب من ٦٣٠٠ سنة حين وضع كهنة وعلماء « عين شمس » أسس وقواعد أول تقويم شمسى فى تاريخ الانسان على الأرض .

البحرية المصرية فى عصور ما قبل التاريخ

مازلنا نتحدث عن المصريين الأوائل الذين استوطنوا وادى النيل فى الوجهين البحرى والقبلى قبل أن تتوحد مصر فى دولة واحدة ، وأثناء العصور الغارقة فى القدم والتى يطلق عليها العلماء « عصور ما قبل التاريخ » .

● ومن الحقائق المؤكدة تاريخيًا أن النيل من أسباب عمران مصر ومدنيتها وحضارتها . . وهو الذى أتاح للمصريين الأوائل سبل الحياة على ضفافه وقرب شاطئيه فى تجمعات سكانية وقرى وأقاليم متجاورة متقاربة ، تبدو كلها كما لو كانت مدينة واحدة عجيبة الشكل . . مدينة مستطيلة باستطالة مجرى النيل فى واديه الخصيب . . تتلوى مع انحناءات الوادى فى ربوع الصحارى المحيطة بشاطئيه من أقصى الجنوب عند الجندل الأول حتى أقصى الشمال عند سواحل البحر الأخضر العظيم . . وهو الاسم الذى كان يطلقه قدماء المصريين على البحر المتوسط .

● كان النيل هو الشريان الحى الذى يربط بين وجهى مصر من دانيها إلى قاصيها ، ولذلك فقد كان لزامًا على المصريين الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ أن يبتكروا وسيلة لعبور النيل من شاطىء إلى شاطىء ، أو ليرتحلوا على صفحته من الجنوب إلى الشمال أو العكس كلما رأوا لهذا الترحال سبباً .

● وكانت المادة الأولية التى صنع منها المصريون الأوائل تلك الوسيلة هى نبات البردى الذى كان ينبت بكثافة شديدة على شطآن النيل وجزره وأحراشه . هذا النبات العظيم المبارك الذى كانت له أعظم الأفضال على الحضارة المصرية القديمة بأسرها . . فمن أعواده اتخذ المصريون القدماء بيوتًا وسقوفًا ، ومن أليافه جدلوا حبالاً وصنعوا نعالاً . . ومن أوراقه وسيقانه صنعوا أوراقا وصحائف رقاقًا ، كتبوا عليها كل ما كانوا

يعلمونه من علوم الدين والدنيـا ، تاريخًا وحسابًا وهندسة وطبًـا وفلكًا وأدبًا . . وفضلا عن ذلك كله صنعوا مـن سيقان هذا النبات وسيلتهم العملية لعبور النهـر بين شاطئيه والرحيل بين ضفافه .

●في بـداية الأمـر صنعوا هـذه الوسيلـة على شكل رمث أو « طـوف » أو على شكل قارب مفلطح ، يبنى من سيقان البردى المجدولة فى بعضها ، أو المحزومة مع بعضها ف شكل حزم قائمة بذاتها ، ثم « تربط » هـذه الحزم ببعضها بطريقة تجعلها تأخذ الشكل الانسيابى للمركب المائى المناسب للغرض الذى بنى من أجله ، ويتميز فى الوقت نفسه بخصائص الفن المصرى القديم ، وهو فن لـه طابع عملى من حيث التصميم الهندسى والشكل العام .

● وقد استخدمت هذه الرموث والأطـواف والقوارب والمراكب البدائية المصنوعة من حزم البردى المربوطـة ببعضها بالحبال بـأعداد كبيرة جدا فى عصور مـا قبل التاريخ . . استخدمت كـوسيلة عملية مثلى فى الانتقـال على صفحة النيل وفى أحراش مستنقعـاته . . واستخـدمت فى عمليـات صيـد الأسماك والطيـور ، واعتمـد عليهـا الفـلاحـون والصيادون والـرعاة كـوسيلة لممارسـة حرفهم ومهنهم المختلفـة ، كما استخدمـت بكثرة كوسيلة لعلية القـوم فى ممارسة الرياضة وقضاء الوقت فى نـزهات صيد الأسماك والطيور المائية ، وسجلوا ذلك فى آلاف المناظر والنقوش التى زينوا بها جدران مقابرهم .

● كذلـك فقد أدرك المصريـون الأوائل فى عصور مـا قبل التاريخ أن الخشـب أكثر صلاحية من سيقان البردى فى صناعـة القوارب والمراكب والسفن ، فخطوا تلك الخطوة الحضارية الجبارة ، وبدأوا فى استخدام الخشب كمادة أولية فى تلك الصناعة .

● وبطبيعة الحال فقـد كانت مصر من الأقطار الفقيرة فى الأشجـار الضخمة التى تصلح لاستخـراج الألـواح والقـوائم والعوارض الـلازمـة لصنـاعة المراكـب أو السفن الكبيرة ، ومع ذلك فقد اعتمد المصريون الأوائل فى صناعة مـا كانوا يحتاجونه من قوارب ومـراكب وسفن خشبيـة صغيرة ومتـوسطة على مـا كـان متاحًـا فى مصر من أخشـاب الأشجار المحلية ، مثل أشجار الجميز والسنط واللبخ والصفصاف والتين .

● وهذه الأشجار كلها محدودة النفع فى نجارة السفن وبنائها ، فأخشابها إما خشنة أو جافة قصيرة القطع أو ملتـوية ، وتحتاج إلى كثير من الجهد لتهـذيبها واختيار القطع المناسبة التى يمكن استخدامها ، ولهذا فقد كان لزامًا على المصريين الأوائل أن يستوردوا أنواع الأخشاب الجيدة من الخارج . . فكيف تم لهم ذلك . . ؟ ! .



استخدام القوارب الخفيفة المصنوعة من سيقان البردى فى رياضة صيد الأسماك والطيور فى أحراش النيل .

حين خرج المصريون الأوائل إلى البحر

صنع المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ قواربهم وسفنهم من نبات البردى الذى كان ينمو بكثافة شديدة على ضفاف النيل وفى أحراشه ، واستخدموها فى التنقل بين شاطئى النيل وعلى طول مجراه المصرى .

● وتدل العديد من الشواهد الأثرية على أن هؤلاء المصريين الأوائل قد استخدموا الأخشاب المحلية أيضا فى صناعة بناء السفن الكبيرة والمتوسطة . ولأن مصر تعتبر من البلاد الفقيرة فى الثروة الخشبية فقد كانوا يحتاجون إلى أنواع أخرى من الأخشاب أكثر جودة وملاءمة لصناعة السفن الأكبر حجماً ، حيث يحتاج الأمر إلى استخدام ألواح ضخمة يسهل تجهيزها بعد استخراجها من الأشجار ذات الجذوع الضخمة والسيقان الطويلة المستقيمة حتى يمكن استخدامها فى عمل القوائم والعوارض والصوارى عند بناء وتشييد السفن القادرة على الملاحة فى البحرين الأحمر والمتوسط .

● وتدل هذه الشواهد الأثرية على أن المصريين الأوائل منذ أكثر من ستة آلاف سنة ، استوردوا الأخشاب اللازمة لصناعة تلك السفن من خارج الديار المصرية ، وعلى الأخص من مناطق غرب آسيا فى السواحل اللبنانية والسورية ومناطق آسيا الصغرى .

● وفى ذلك الزمن أيضا ابتدع المصريون الأوائل طريقة بسيطة للتحكم فى « إقامة الصارى » عندما كانوا يحتاجونه لنشر الشراع ، أو « إمالة الصارى » حين كانوا يتحولون من عملية الإبحار بالشراع إلى عملية الإبحار وتسيير السفن بالمجاديف .

● وابتدعوا أيضا جهازاً للتحكم فى توجيه المركب أو السفينة من الخلف . ويتكون هذا الجهاز من « عمود الدفة » الذى كان يقام بمؤخرة المركب ، ويتم تحريك « مجداف الدفة » بواسطة ذراع مربوطة بهذا المجداف ومربوطة أيضا بأعلى عمود الدفة . وهذه

الذراع يمكن تحريكها إلى الجانبين يمينًا أو يسارًا ، بحيث يتم تعديل طرف مجداف الدفة لتوجيه المركب أو السفينة حسب المسار المطلوب .

● وفى عصور ما قبل التاريخ أيضا تمكن المصريون الأوائل من بناء المراكب والسفن بكافة أنواعها ، النهرية منها والبحرية ، وما صنع منها من نبات البردى وما صنع من الأخشاب ، وما يتم تسييرها بالمجاديف المتعددة التى تصل فى بعض الأحيان إلى أكثر من أربعين مجدافا ، وما يتم تسييرها باستخدام الشراع . ويؤكد المؤرخون على أن المراكب والسفن ذات الشراع ظهرت فى الحضارة المصرية قبل ظهورها بمئات السنين فى أية حضارة أخرى من حضارات العالم القديم المعاصرة لها أثناء عصور ما قبل التاريخ .

● وبالرغم من أن المصريين معروفون منذ أقدم الأزمنة بأنهم ليسوا من شعوب البحر، أى من الشعوب التى تضع البحر فى أقصى اهتماماتها ، فقد أثبت كثيرون من المؤرخين وعلماء الآثار أن المصريين الأوائل قد خرجوا إلى البحرين الأحمر والمتوسط فى عصور ما قبل التاريخ . وكان دليلهم فى ذلك هو العثور على الكثير من القطع الأثرية التى يرجع تاريخها إلى تلك العصور ، والتى استخدمت فى صناعتها مواد أو أحجار شبه كريمة لم يثبت وجودها بمصر ، مثل اللازورد وحجر الأوبسيديان والعاج .

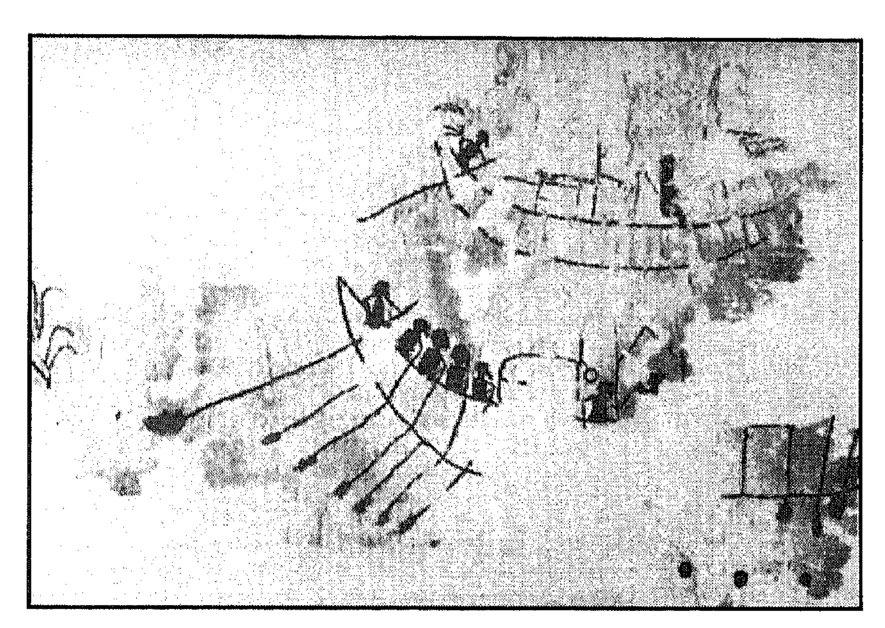
● وأثبتوا كذلك أن المصريين الأوائل فى عصر ما قبل الأسرات [أى قبل عام ٣٢٠٠ ق م] قد اهتموا باستيراد الزجاج الطبيعى والأحجار الكريمة وشبه الكريمة من خارج الديار المصرية . . وكانت لهم أيضا علاقات تجارية واسعة مع جزيرة « كريت » وغيرها من جزر البحر المتوسط والأقطار المجاورة لمصر ، وهى علاقات كان لها تأثير بالغ فى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بمصر ، كما كانت تؤثر أيضا فى أحوال القبائل والشعوب المجاورة .

● ومن آثار عصور ما قبل التاريخ بمصر التى عثر عليها فى كل من الدلتا والصعيد « نماذج » كثيرة لقوارب ومراكب وسفن مصنوعة من الفخار . كما تميزت آثار حضارة عصر ما قبل الأسرات بصفة عامة بالعديد من مناظر السفن الكبيرة والصغيرة المرسومة بالألوان على أسطح الأوانى الفخارية التى يرجع تاريخها إلى تلك العصور ، أو مرسومة

على جدران بعض المقابـر أو محفورة على صخور الجبال المحيطـة بوادى النيل أو ببعض جبال البحر الأحمر .

● وقد عثر على أثر نادر يرجع تاريخه إلى هذا العصر الغارق فى القدم وهو عبارة عن قطعة من قماش الكتان عثر عليها فى منطقـة الجبلين [بالضفة الغربية للنيل بين أرمنت وإسنا] . . وقـد استغرق تـرميم هذه القطعـة الأثرية النـادرة نحو أربع سنـوات وهى محفوظـة حاليا بمتحف تـورين . . وعلى قطعة القماش هذه رسـم مطرز يمثل سفينتين كبيرتين ، ونرى على كل واحـدة منهما كابينتين وعددًا كبيرًا من المجدفين الـذين يجدفون بمجاديف طويلة .

● ويقـول بعض المؤرخين وعلماء الأجنـاس ان المصريين القـدمـاء قـد استطـاعـوا الإبحار إلى أمريكا على متن سفن مصنوعة من سيقان البردى . . فهل هذا صحيح؟! .



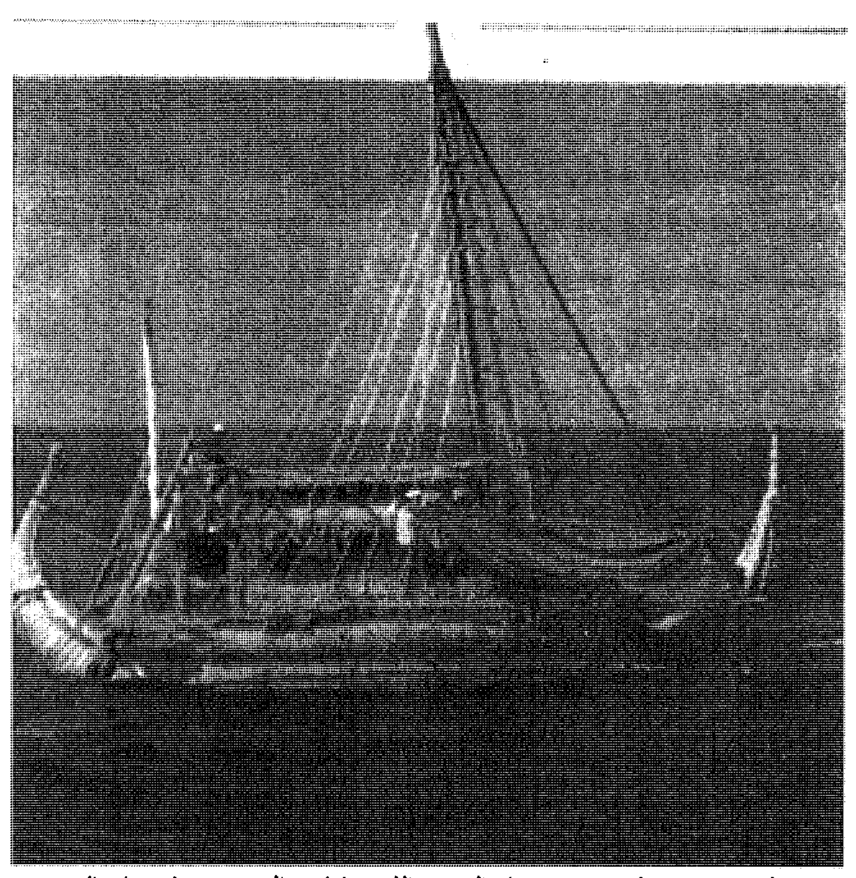
منظر مرسوم على قطعة من قماش الكتان ، يرجع تاريخه إلى عصور ما قبل التاريخ ، يمثل سفينتين بحريتين من السفن ذات المجاديف المتعددة .

هل وصل قدماء المصريين إلى أمريكا .. !

لاحظ بعض علماء الأجناس الذين قاموا بدراسة آثار الحضارات الهندية القديمة فى المكسيك ومناطق أخرى بأمريكا الجنوبية والتى يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف سنة قبل الميلاد ، وجود بعض التشابه بين تلك الحضارات والحضارة المصرية القديمة ، خصوصاً من ناحية بناء المعابد الدينية فى شكل معمارى يشبه الأهرام المصرية ، وبالذات فى شكل الهرم المدرج ، بالاضافة إلى بعض التشابه فى فن نحت الحجر والخشب وصناعة الحلى والمجوهرات .

● وبناء على الدراسات التى أجراها بعض هؤلاء العلماء ، ظهر افتراض ـ لم يثبت بشكل قاطع حتى الآن ـ بأن حضارات الهنود الحمر القدماء قد تأثرت بشكل أو بآخر بحضارة قدماء المصريين . ولكن هذا الافتراض العلمى كان يصطدم بمشكلة معرفة الكيفية التى وصل بها المصريون القدماء إلى أمريكا . . وكيف عبروا البحر المتوسط بطوله وعبروا المحيط الأطلنطى بعرضه حتى وصلوا إلى السواحل الأمريكية بالمكسيك ، وهل كانت لديهم سفن تصلح للقيام بتلك الرحلة الطويلة الصعبة . . ؟

● ومن أشهر آثار الهنود الحمر القدماء فى المكسيك معبد على شكل هرم يسمى «هرم الساحر » وهو مبنى على شكل مصاطب متدرجة فى الارتفاع ودرجة الميل ، وهو شكل يختلف عن شكل هرم زوسر المدرج بسقارة فضلاً عن الاختلاف فى الغرض من البناء والاختلاف فى الضخامة . . فالهرم المكسيكى الذى وجدت آثاره فى بقايا مدينة «أوكسمال » القديمة قد بنى فى الأصل ليكون معبدًا ، وكذا الحال بالنسبة لأهرام الهنود الحمر القدماء الأخرى التى بنيت لغرض دينى هو عبادة الشمس . . أما من ناحية الاختلاف فى مدى الضخامة ، فلا يزيد ارتفاع الهرم المكسيكى على ٢٥ متراً ، كما أن



المركب « رع » المصنوع من سيقان البردى والذى حاول به النرويجى « ثور هايردال »
عبور الأطلنطى ليثبت أن المصريين القدماء وصلوا إلى أمريكا بمثل هذا المركب .

قاعدته مختلفة عن شكل قواعد الأهرام المصرية ، فهى قاعدة مستطيلة وليست متساوية الأضلاع ، حيث يبلغ طولها ٧٣ متراً وعرضها ٥٥ متراً .

● وثمة نظرية لأحد علماء الأجناس المحدثين ، وهو العالم النرويجى « ثور هايردال » يقول فيها أن الحضارات القديمة اتصلت ببعضها نتيجة لرحلات بحرية قامت بها الشعوب القديمة عبر البحار والمحيطات ، وأن بحار العالم ومحيطاته كانت عاملاً فى الانتشار الحضارى فى الأزمنة القديمة ولم تكن عائقا منيعا أمام هذا الانتشار .

● وبناء على تلك النظرية ، حاول « ثور هايردال » إثبات امكانية وصول قدماء المصريين إلى شواطىء الأمريكتين قبل اكتشاف كل من « أميرجو » و « كريستوفر كولومبس » للأمريكتين بآلاف السنين .

● وفى عام ١٩٦٩ ، قام هذا العالم النرويجى بالابحار على ظهر مركب أطلق عليه اسم « رع » مصنوع من سيقان نبات البردى ـ وهو النبات الذى كان المصريون الأوائل يصنعون منه مراكبهم وسفنهم منذ عصور ما قبل التاريخ .

● واشتركت معه فى تلك المغامرة البحرية مجموعة صغيرة من البحارة ذوى الجنسيات المختلفة وبينهم مصرى . . وحاول هذا العالم عبور المحيط الأطلنطى من المغرب للوصول إلى أمريكا الوسطى على ظهر هذا المركب المصنوع من سيقان البردى .

● وكانت الرحلة شاقة جدًا ، وأوشكت أن تتم لولا تعرض المركب « رع » إلى اعصار عنيف ، فتحطم فى ظروف جوية فى غاية السوء ، على بعد نحو ٦٠٠ ميل من السواحل الأمريكية .

● ومع ذلك فان هذا الفشل فى الوصول إلى السواحل الأمريكية بعد أن قطع المركب « رع » هذه المسافة الطويلة عبر المحيط الأطلنطى لا ينفى من الناحية العلمية نظرية العالم النرويجى « ثور هايردال » فى احتمال وصول قدماء المصريين إلى أمريكا خاصة فى ضوء التشابه بين حضارة الهنود الحمر القدماء فى المكسيك وبعض معالم الحضارة المصرية القديمة .

أول أسطول تجارى فى تاريخ العالم

اصطلح المؤرخون على اطلاق اسم « الدولة القديمة » على حقبة من التاريخ المصرى القديم تبدأ بعصر الأسرة الثالثة سنة ٢٧٨٠ ق م وتنتهى بنهاية عصر الأسرة السادسة سنة ٢٢٨٠ ق م .

● وهناك آلاف من الشواهد الأثرية تدل دلالة قاطعة على أن صناعة بناء السفن فى عصر الدولة القديمة قد بلغت مرحلة عالية من مراحل التطور . ويقول مؤرخون كثيرون أن المصريين القدماء الذين عاشوا فى ذلك العصر قد تفوقوا فى صناعة وبناء السفن النهرية والبحرية بدرجة لم يبلغها أى شعب من شعوب العالم القديم المعاصرين لهم ، بما فى ذلك الشعوب التى توصف بأنها شعوب بحرية تجعل البحر فى أعلى اهتماماتها الحيوية .

● ومما لا شك فيه أن هذا التطور الذى لحق بصناعة السفن الضخمة فى ذلك العصر المبكر من تاريخ مصر القديم ، كان نتيجة مباشرة للتطور الحضارى للشعب المصرى وتطور حاجياته الاجتماعية من دينية ودنيوية .

● فى ذلك العصر أصبح المصريون فى حاجة ماسة إلى بناء سفن كبيرة ضخمة قادرة على القيام برحلات طويلة وشاقة . . فبنوا اعداداً كبيرة من السفن النهرية القادرة على نقل أعداد كبيرة من المسافرين أو العمال ، أو نقل كميات ضخمة من الصخور الجرانيتية من محاجر أسوان إلى بقية الأقاليم المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى ، أو نقل الأحجار الجيرية [المعروفة حاليا باسم الحجر السلطانى] من محاجر جبل المقطم بطرة وحلوان عبر النيل من ضفته الشرقية إلى ضفته الغربية .

● وفى ذلك العصر أيضا قام المصريون القدماء ببناء سفن بحرية قادرة على مقاومة

هياج البحر وأمواجه وقـادرة على حمل شحنة ضخمة من السلع ، لتمخـر عباب البحر الأحمر ذهـابًا إلى بـلاد بـونت لاستيراد مـا يحتـاجه المجتمـع المصرى من العـاج وخشب الابنوس وجلود الفهـود والنمور وسبائك الذهب والبخـور والدهانات العطـرية والقرود الحية والنسانيس وغير ذلك من محاصيل تلك البلاد الزراعية والحيوانية .

● ومن أقدم الأسـاطيل البحرية التجاريـة التى عرفها تاريخ العـالم القديم ، ذلك الاسطـول البحـرى الضخم الـذى أرسلـه الملك « سنفـرو » إلى شـواطـىء لبنـان لنقل اخشاب الصنـوبر والأرز . وقبل أن نصف هذا الاسطـول لابد أن نعرف شيئـا عن هذا الملك العظيم .

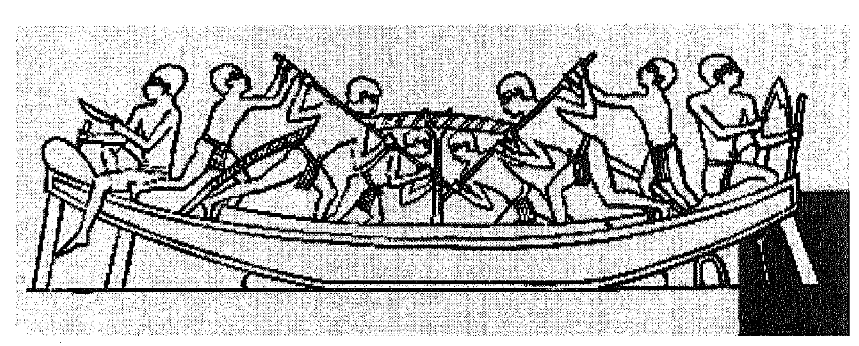
● هو أول ملـوك الأسرة الرابعـة ، ووالد الملك « خـوفو » صـاحب الهرم الأكبر . . وحكم مصر لمدة تزيد على ٢٤ عـامًا . ويربط علماء الآثار المصرية اسـم سنفرو بأربعة أهرام من أهـرام مصر هى : هرم ميدوم وهرمـا دهشور وهرم سيلا بـالفيوم . وفى عصره أجـرى أول إحصاء ثـابت ومعـروف لأعـداد رؤوس الماشية فى الأقـاليم المصريـة ، كما نشطت الصناعـات التعدينيـة خصوصًا فى منـاطق سيناء للحصـول على الفيروز وخام النحـاس . وقد اقتضـى هذا الـرخاء الاقتصـادى تجهيـز القوات العسكـريـة اللازمـة للمحافظة على أمن واستقرار البلاد . وقام بعـدة حملات حربية تأديبية أرسلت إلى بلاد النوبة وبلاد الحدود الليبية .

● وعلى النصب التذكارى المعروف أثريـا باسم « حجر باليرمو » دونت أسماء بعض ملوك مصر مرتبة تـاريخيًا . وفى مقابل اسم الملك سنفرو باعتباره مـؤسس الأسرة الرابعة كتب نص هيروجليفى يقـول انه أرسل إلى الشـواطىء اللبنانيـة اسطولاً مكونـاً من ٤٠ سفينة لتعـود محملة إلى أقصى طـاقاتها بخشب « عش » ـــ وهو الاسم المصرى القـديم لخشب الأرز ـــ وبأنـواع أخرى مـن الأخشاب مثـل الصنوبـر وخشب يسمى فى اللغـة المصرية القـديمة خشـب « مر » وهـو لا ينبت إلا فى مناطق السـواحل الشرقيـة للبحر المتوسط .

● ويقول النص الهيروجليفى أيضًا أن طول كل سفينـة من سفن هذا الأسطول كان

مائة ذراع مصرى قديم . وإذا عرفنا أن طول هذا الذراع المصرى كوحدة لقياس الأطوال يبلغ بالضبط ٣ , ٥٢ سم فمعنى ذلك أن طول السفينة كان ٣ , ٥٢ متراً .

● وتدل شواهد أثـرية أخرى على بناء ٦٠ سفينة بحريـة أخرى أقل حجماً وطولاً فى عصر سنفرو . . وكـانت هـذه السفن جميعًا تطقم بـالبحارة والمجـدفين وفى صحبتهم فصيلة من الجنـود مهمتها حماية البعثة البحـرية وحماية السفن من أيـة هجمات يقوم بها أهالى السواحل اللبنانية أو لتكون من مظاهر السلطة المصرية .



رسم توضيحى منقول عن نقش أثرى يبين كيفية بناء السفن والقوارب فى مصر القديمة .

أول سفن ناقلات للجنود فى تاريخ العالم

من الآثار الكثيرة التى يرجع تاريخها إلى عصر « الدولة القديمة »[من ٢٧٨٠ ق م إلى ٢٢٨٠ق م] نلاحظ كثرة تسجيل أوجه ومظاهر استخدامات المراكب والسفن بأنواعها وأحجامها المختلفة .

● ومن هذه التسجيلات المدونة بالهيروجليفية على جدران بعض المقابر والنصب التذكارية ، عرف المؤرخون أن صناعة بناء السفن وحرفة الملاحة النهرية والملاحة البحرية قد بلغت فى ذلك العصر شأواً عظيما . . وأصبحت حرفة منظمة كغيرها من الحرف الراسخة التى اشتهرت بها مصر القديمة . . وظهر كثيرون من رجال الدولة الذين سجلوا أسماءهم وألقابهم التى تتعلق بحرفة وأعمال السفن النهرية والبحرية مثل : رئيس السفينة . . سيد السفينة . . قائد السفينة . . مفتش السفن . . حامل لواء تدريب المجدفين . . أمين صناعة السفن . . المشرف على بناء السفن . . إلى غير ذلك من الألقاب المماثلة الأخرى .

● كما ظهرت تخصصات للبحارة أطلقت عليها تسميات مثل : مجدفون عاديون . . مجدفون أول . . ملاحون . . عمال الشراع . . الخ . وكان لقب « وعنو » فى اللغة المصرية القديمة يطلق على أولى مراتب العمل فى الجندية أو فى البحرية ، وهو يعادل لقب « نفر » فى اللغة العربية . . وكان لقب « نفو » يطلق على الريس . . ولقب «حرى» يطلق على الربان الذى يقود سفينة ضخمة . . ولقب « مر » يطلق على قائد الأسطول الذى يتكون من عدة سفن . . وبطبيعة الحال فقد كانت هذه الألقاب محل فخر لحامليها . وعلى سبيل المثال فقد تفاخر أحد أمراء البيت المالك فى عهد الملك خوفو ، وهو المدعو « مر ـ إيب » بأنه كان يتولى إمرة سفينتين ضخمتين هما : « روح الآلهة» و « نجمة مصر » .

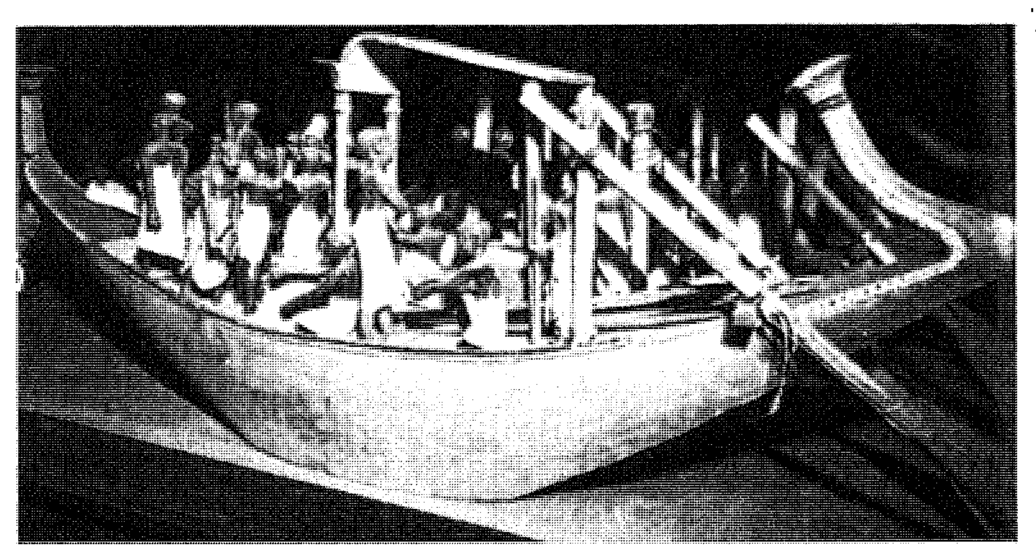
● ومن ضمن آثـار عصر الـدولـة القديمـة والتى يـرجع تـاريخهـا إلى عصر الأسرة السادسـة [من ٢٤٢٠ ق م إلى ٢٢٨٠ ق م] . . عثر على أثـر بالغ الأهميـة مدون على جدران مقبرة الوزير « وينى » يقول علماء الآثار عنـه أنه أول إشارة فى التاريخ الانسانى للخروج إلى البحر فى سفن من « ناقلات الجنـود » ويحكى النص المكتوب بالهيروجليفية قصة تكليف الوزير « وينى » بالقضاء على اعتداءات بعض فصائل جيش «الأكاديين» وقبائل البدو فى شمال سيناء على القوافل والبعثات التعـدينية المصرية التى كانت ترسل إلى هناك لاستخراج خام النحاس والفيروز والمعادن الأخرى . وكان جيش « الأكاديين» فى ذلك العصر قد زحف إلى بعض المنـاطق السورية بقيادة زعيمهم « نـرام سن » الذى بدأ الاستعداد للزحف جنوبا لغزو مصر ، مما دعا مصر إلى ارسال جيشها بقيادة الوزير « وينى » لوقف هذا الزحف .

● ويقول النـص فى ذلك أن الوزير « وينـى » قام بقيادة جيشين : جيـش برى عبر الصحراء المتاخمة للسواحل الجنوبيـة الشرقية للبحر المتوسط . . وجيش آخر على شكل حملـة بحريـة محمـولة على سفن ضخمـة نـاقلات للجنـود . وعنـدما وصل الجيشـان المصريان إلى جنوب فلسطين نظما صفوفهما وأطبقا على جيش الأعداء وأفنياه .

● وفى نص هيروجليفى آخـر دونـه « وينى » على جـدران مقبرتـه ، قال انـه كـان مكلفـا بتجهيز وقيـادة سفن كبيرة لنقل أحجار الجرانيـت من محاجر أسـوان على سفن عريضة مبنية من خشب السنط . ويفخر « وينى » بـأنه أشرف على بناء سفينة جديدة من تلك السفن استغـرق بناؤها ١٧ يومًـا فقط . . ويبلغ طول هذه السفينـة ٦١ ذراعًا مصريًا [نحو ٣٢,٢٥ مترا] ويبلغ عرضها ٣٠ ذراعًا مصريا [نحو ١٥,٧٠ مترا] .

● ويفخـر « وينى » أيضـا بأنـه تغلب على الصخـور التى تعترض مجرى النيل فى منطقة الجنـدل الأول بجنوب أسـوان والتى تجعل الملاحة مستحيلـة ، وذلك بأن أرسل عدة سفن إلى هنـاك مجهزة بـالرجال والأدوات الـلازمة لتعميق وتطهير المجـرى النهرى الذى حفـره المصريون القدمـاء فى عصور سـابقة على عصر « وينى » حيث استطـاعوا تحويل مجرى النيل ليلتف حول منطقة الجندل الأول متحاشيا صخورها . . وأصبح هذا

المجرى الجديد صالحًا للملاحة فيه بالمراكـب والسفن النهرية . وبذلك يعترف التاريخ الانسانـى بأن المصريين القدماء هـم أول شعب استطاع تحويل مجرى واحـد من أعظم أنهار الدنيا .



نموذج أثرى لمركب يرجع تاريخه إلى عصر الدولة الوسطى ويبلغ طول المركب الأصلى ٥٠ مترا وكان يعمل عليه ١٢٠ بحاراً .

زيارة لأقدم مركب عثر عليه الانسان

فى الجانب الجنوبى للهرم الأكبر أقيم هذا المتحف الفريد فى نوعه والذى يعرض فيه أقدم أثر فى العـالم لمركب خشبى ضخم تم بناؤه منذ ما يقـرب من ٤٦٠٠ سنة . . وهو المركب المعروف علميـاً باسم « مـركب خوفو » والـذى أطلق عليه خطأ اسـم « مراكب الشمس » .

● والملك « خوفو » هو ثانى ملـوك الأسرة الرابعة [عام ٢٦٥٠ ق م] . وذاع اسمه فى جميع أنحـاء العالم القـديم والحديث باعتبـاره صاحـب الهرم الأكبر الذى اعتبر على رأس قائمـة عجائب الدنيـا السبع ، وهو العجيبة الـوحيدة الباقيـة حتى الآن من تلك العجائب .

● وليس لهذا المركب مثيل بين كل آثار العالم . . ولذلك فهو يعتبر أقدم مركب أثرى ضخم تم العثـور عليه فى العالم الحديث . ويبلـغ طوله ٤ , ٤٣ متراً وعـرضه ٩ , ٥ متراً وارتفاع مقدمته ٦ أمتار وارتفاع مؤخرته ٥ , ٧ متراً وعمق غاطسه ٧٨ , ١ متراً .

● وعلى سطـح المركب نـرى « المقصـورة الملكيـة » وهـى عبـارة عـن حجـرتين متـداخلتين، الحجرة الأولى صغيرة ومفتـوحة فى اتجاه المقـدمة ، والحجـرة الثانيـة كبيرة وواسعـة يفصلها عن الحجـرة الأولى بـاب يغلق بالترابيـس . وسقف المقصورة الملكيـة مزدوج ومحمول من الداخل على ثلاثة مـن الأعمدة الخشبية المخروطة على شكل جذوع النخيل ، ويحملـه من الخارج ٣٦ عمودًا خشبيـا . وقـد عثر ضمن أجـزاء المركب على مجموعة كبيرة من مختلف أنواع الحصير ، كـان بعضها يستعمل لتغطية سقف المقصورة من الخارج لحجـب حـرارة الشمـس ، أو تـرش بـالماء فتقـوم مقـام أجهـزة الترطيب والتكييف .

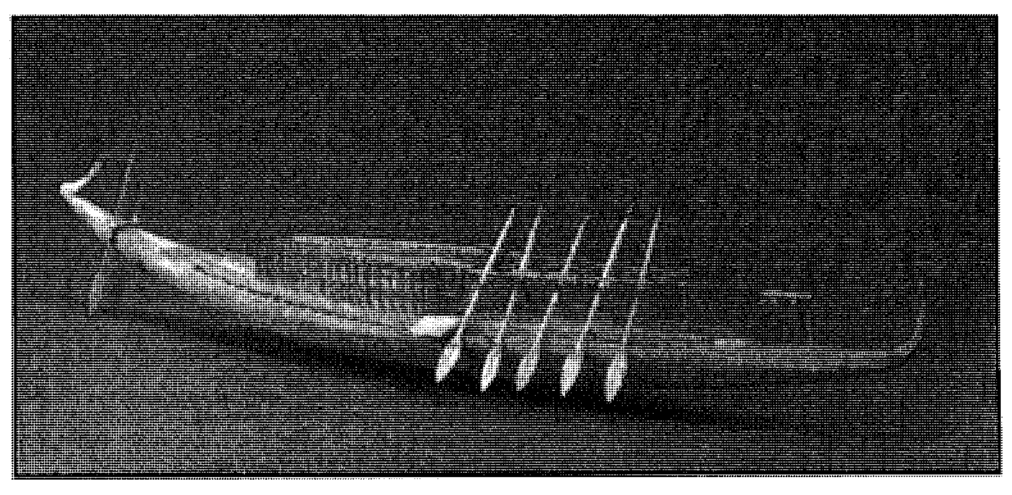
● ونـرى على جـانبى المركـب عشرة مجاديف خمسـة منهـا على كل جـانـب ، وهى مجاديف طـويلة ضخمـة تتراوح أطوالها مـا بين ٦,٥ متراً و ٨,٥ متراً . . بالاضـافة إلى مجدافين كبيرين فى مؤخرة المركب كـانا يقومان مقام الدفـة . . كما نرى « مدراة » خشبية طويلـة كانت تستعمل لجس وقيـاس عمق المياه . . ووتـدين خشبيين كانـا يستعملان لربط المرساة ومطرقة خشبية ضخمة كانت تستخدم لدق الأوتاد فى أرض الشاطىء عند رسو المركب وتوقفه عن الابحار فى النيل .

● وعند العثور على الحفرة التـى كان هذا المركب مدفوناً فيهـا ، وجد المركب مفككاً إلى ٦٥٠ جزءاً تتكون من ١٢٢٤ قطعة من الأخشاب . ويبلغ طول القطع الكبيرة نحو ٢٣ متراً ، كما يصل وزن القطعة الواحدة منها نحو طنين ونصف طن . كما كانت هناك قطع صغيرة أخرى من خشب شديد الصلابة ولا يتجاوز طولها أكثر من ١٠ سنتيمترات . . وكانت جميع هذه الأجزاء مـرصوصة ومرتبة بدقة وعناية شـديدة بداخل الحفرة التى كانت مدفونة فيها منذ ٤٦ قرنًا .

● وقد تـم تحليل عينات من جميع أنـواع الأخشاب التـى تتكون منها أجـزاء المركب تحليلاً علمياً فى المعـامل المتخصصة فى كل من انجلترا وهولندا ، واستخـدمت فيه أدق أجهـزة التحليل الكيميـائى والميكروسكـوبى والطيفـى والكربـون المشع . . وقـام بهذه التحليـلات علماء أجـانـب على أعلى مستـويـات الخبرة تحت إشراف المرحـوم الاستـاذ الدكتور زكى اسكندر الـذى أعد تقريرًا بالتوثيق العلمى لكل المواد النبـاتية والكيميائية التى تتكون منها أجزاء المركب وأخشابه .

● وتبين بصفة قاطعة أن بعض هذه الأخشـاب من أشجار مصرية محلية ، وأغلبها من أخشـاب مستوردة من منـاطق جنـوب شرق أوربا ، وآسيـا الصغرى ، والسـواحل اللبنـانية . . وكـانت المفاجـأة العلمية المذهلـة وجود بعض قطـع من أخشاب صلبـة اسمها العلمى باللغة الـلاتينية « مانيفرا إنديكا » وهى أخشاب مستخـرجة من نوع من الأشجـار لا ينبت إلا فى « الهند » . . الأمـر الـذى دعا بعـض المؤرخين إلى البحث عن وجود علاقات تجارية تمت بين مصر والهند فى عهـد « خوفو » . وهو أمر لم يحسم حتى الآن بشكل قاطع .

● وبداخل المتحف يمكننا أن نرى أيضا الحفرة التى كـان المركب مدفونًا بداخلها ، وهى محفورة فى بطن صخـر الهضبة ، ويبلغ طولها ٣١ متراً وعرضهـا ٦ , ٢ متراً وعمقها ٥ , ٣ متراً . وكانت مغطـاة بكتل حجرية ضخمـة مرصوصـة رأسيا وعددهـا ٤١ كتلة ويبلغ طول كل كتلـة ٥ , ٤ متراً وعرضها ٨ , ١ متراً وسمكهـا ٨٥ ,ـ متراً . كما يبلغ وزن كل كتلة منها حوالى ١٨ طنا .



نموذج حديث لمركب خوفو .. معروض حاليا بمتحف المركب بجنوب الهرم الأكبر .

أول « سيدة بحار » فى تاريخ العالم

يطلق المؤرخون اسـم « الدولة الـوسطى » على عصر الأسرتين الحادية عشرة والثـانية عشرة فى الفترة من سنة ٢١٣٤ ق م إلى سنـة ١٧٧٨ ق م . . أى انه عصر يـرجع تاريخه إلى نحو ٤٠٠٠ سنة .

● ومن ناحية التسلسل التـاريخى ظهرت الدولة الوسطى بعد انتهـاء عصر « الدولة القديمـة» فى نهاية عصر الأسرة السـادسة سنـة ٢٢٨٠ ق م . . ومن الأسرات السـابعة حتى العاشرة ، ساد عصر من الفوضـى يطلق عليه المؤرخون اسم « عصر الاضمحلال الأول» . ويتسم تاريخ هذا العصر بكثير من الغموض ، وسادت فيه حروب أهلية بين حكام الأقاليـم المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى ، وكثر استخـدام السفن النيلية فى تلك الحروب كناقلات للجنود والجيوش المتحاربة .

● وعلى جـدران مقبرة حـاكم إقليـم اسيوط وكـان اسمـه « تفيبـى » نص مكتـوب بالهيروجليفية يصف فيه إحدى المعارك الحربية التى قادها ضد عدوه ويقول : « اتجهت نحوهـم . . واسرعت بقتالهم كالبرق . . ولم أتـوقف عن الحرب مستغلا ريـح الجنوب وريح الشمال . . وسقط العدو فى الماء . . وجنحت سفنه إلى البر » .

● ويبـــدو أن هـــذه الحروب الصغيرة التى نشبـت بين حكـــام الأقـاليـم فى عصر الاضمحلال الأول والتى استخدمـت فيها السفن النيلية فى القتال كانـت بمثابة تمارين عملية للسفن البحرية الحربية التى استخدمت بكثرة فى عصر « الدولة الوسطى » حيث وصلت البحرية المصرية إلى ذراها وقمة نشـاطها ، وأصبحت الأساطيل الحربية المصرية تجوب أرجاء البحرين الأحمر والمتوسط .

● وفى عهد الملك « منتوحتب الرابع » [١٩٩١ ق م] وهو من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، أرسل الملك وزيره ومدير الخزانة الملكية وكان اسمه « حنّو » على رأس حملة بحرية لمحاربة شعب « خاوبنو » ، وهم أهالى جزيرة « كريت » . ولم يتم العثور حتى الآن على نص يبرر لنا سبب إرسال تلك الحملة البحرية المصرية إلى جزيرة كريت فى ذلك العصر ، وإن كان بعض المؤرخين الأجانب يقولون أن السبب فى ارسال تلك الحملة قد يرجع إلى قرار اتخذته مصر بايقاف الهجرات والتسللات التى كان يقوم لها بعض أهالى كريت وجزر بحر إيجه إلى مناطق الدلتا المصرية .

● ويبدو أن الوزير « حنّو » هذا كان متمرسًا فى قيادة الأساطيل البحرية ، فقد كلفه نفس الملك بقيادة أسطول بحرى توجه به إلى بلاد بونت [جنوب اليمن والصومال] لاحضار البخور والدهانات العطرية ومنتجات بلاد بونت الأخرى . وكان عدد الأفراد الذين اشتركوا فى تلك الحملة ٣٠٠٠ رجل ، خرجوا إلى البحر الأحمر براً عن طريق وادى الحمامات وبدأت رحلتهم البحرية من الساحل المصرى المطل على البحر الأحمر .

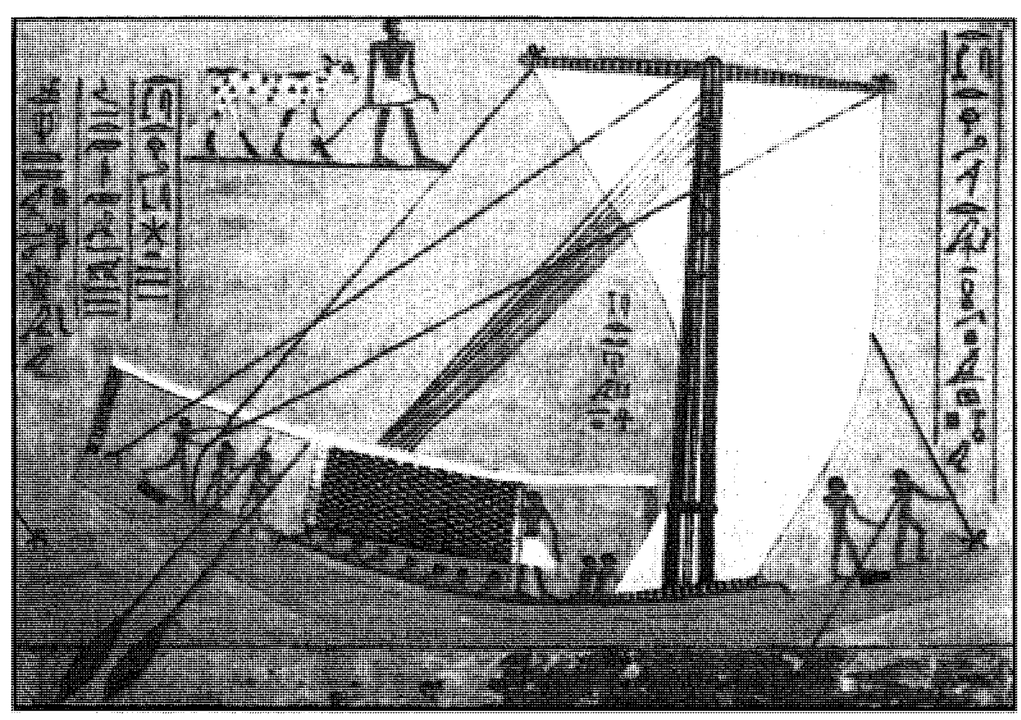
● وفى عصر الأسرة الثانية عشرة ظهر الكثيرون من قادة السفن والأساطيل البحرية المصرية الذين سجلوا أعمالهم وتفاصيل الرحلات التى قاموا بها تنفيذًا لأوامر الملوك . ومن هؤلاء قائد الاساطيل « خنت خت ور » الذى شيد نصباً تذكاريًا بناء على أوامر الملك « امنمحات الثانى » على ساحل البحر الأحمر فى نهاية وادى جاسوس ـ الذى كان يخترق الصحراء الشرقية ـ حيث كان يقع ميناء مصرى قديم اسمه « ساوو » ويشهد هذا النصب بسيادة مصر والسفن المصرية على البحر الأحمر .

● ومن قادة الأساطيل المصرية فى ذلك العصر قائد اسمه « خنم حوتب » كتب على جدران مقبرته نصا يقول فيه انه صحب الملك « أمنمحات الأول » فى حملة تتكون من ٢٠ سفينة مصنوعة من خشب الأرز لملاقاة العدو « حتى هزمناه وسحقناه ! » .

● وفى عصر الأسرة الثانية عشرة أيضا أمر الملك « سنوسرت الثالث » الذى حكم مصر فى الفترة من ١٨٨٧ ق م حتى ١٨٤٩ ق م ، بحفر القناة التى أطلق عليها قديماً

اسم « أجمل طرق الملك » والتى كـانت تربط الفرع الشرقـى للنيل ببحيرة التمساح التى كانت متصلة بالبحر الأحمر كامتداد طبيعى لخليج السويس .

وبذلك أصبحت الطرق الملاحية مفتوحـة أمام السفن المصرية لتجوب البحرين . . وأصبحت مصر أول دولة يمكن أن توصف بأنها « سيدة البحار » فى تاريخ العالم ! .



إحدى السفن البحرية الشراعية الضخمة ، التى كان يتكون منها الأسطول البحرى المصرى .

دور السفن المصرية فى طرد الهكسوس

تمامًا مثلما حدث بعد نهاية « الدولة القديمة » وظهور عصر اتسم بالفوضى أطلق عليه المؤرخون « عصر الاضمحلال الأول » ظهر عصر ثان من الفوضى فى أعقاب نهاية « الدولة الوسطى » [١٩٩١ ق م ـــ ١٧٧٨ ق م] أطلق عليه المؤرخون « عصر الاضمحلال الثانى » . وقد استمر هذا العصر من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة . وهى فترة استمرت قرابة مائتى عام وبالتحديد من عام ١٧٧٨ ق م إلى عام ١٥٧٠ ق م .

● وفى هذا العصر تمزقت أوصال مصر الدولة مرة أخرى بين حكام الأقاليم والغزاة الرعاة المعروفين تاريخيا باسم « الهكسوس » الذين تمركزوا فى الدلتا وسيطروا على حكام معظم الأقاليم المصرية .

● ودار التاريخ دورته ، وهب أبناء مصر يدافعون عن أرضها باصرار وطنى عظيم على إعادة توحيد البلاد وتحريرها من المستعمر الهمجى البغيض . وحدثت الإرهاصات الأولى لهذه الهبّة الوطنية المصرية فى عهد آخر ملكين من ملوك الأسرة السابعة عشرة ، وهما الملك الوطنى الشهيد « سقنن رع » والملك « كامس » .

● وقد انتشر فى عهد هذين الملكين استخدام السفن النهرية الضخمة كناقلات للعتاد الحربى والجنود والجيوش التى كانت تتم تعبئتها ونقلها عبر النيل متوجهة إلى الدلتا للقيام بالعمليات الحربية والهجمات المتعاقبة على قواعد الهكسوس .

● وقد لقب الملك « سقنن رع » بلقب « الشجاع » ـ كما ورد فى النصوص القديمة التى دونت فى عصره ـ وهى النصوص التى تذكر أن هذا الملك الوطنى قد خرج على

رأس جيش فى شكل « مسيرة حربية » انضم إليها الكثيرون من أبناء الشعب المصرى من فلاحين وعمال وحرفيين ومن هم فى سن الشباب من كافة الأقاليم المصرية متطوعين للاشتراك معه فى حرب التحرير المقدسة التى بدأها ضد معاقل الهكسوس ، وهى الحرب التى سقط فيها الملك شهيداً على أرض المعركة .

● وتولى ابنه الملك « كامس » مواصلة حرب التحرير المقدسة ، وواصل معاركه ضد معاقل الهكسوس حتى حاصرهم فى عاصمتهم الحصينة التى اتخذوها فى مدينة «أفاريس » [تل الضبع حاليا بشرق الدلتا] وجعلهم لا يجسرون على مجرد الخروج من تلك المدينة .

● وهناك نصوص تاريخية تثبت أن الملك « كامس » كان يبحر بسفنه من ناقلات الجنود وناقلات العتاد الحربى بطول النيل من طيبة / الأقصر حتى الفرع الشرقى للدلتا ، وانه كان يستخدم « سفينته » كقاعدة لقيادة العلميات الحربية . . وعلى نصب تذكارى أقامه « كامس » بمعابد الكرنك نص يقول فيه : « . . أبحرت شمالاً لضرب الآسيويين . . وقضيت الليل فى « سفينتى » وقلبى فرح . . وضربت العدو ودمرت أسواره . . وكان جنودى كالأسود . . » .

● ومع ذلك فلم يستطع الملك « كامس » أن يقضى على الهكسوس قضاءً مبرمًا أو يطردهم خارج البلاد . . فقد اضطر إلى العودة بجيشه جنوباً ليقضى على مؤامرة تم تدبيرها بين أمير النوبة و « أبو فيس ـ ملك الهكسوس » لكى يقوم النوبيون بغزو البلاد من جهة الجنوب لتشتيت الجيش المصرى بين حرب فى الجنوب وحرب فى الشمال .

● ولم يتم القضاء على حكم الهكسوس نهائياً إلا على يد الملك العظيم « أحمس الأول» . . وهو الشقيق الأصغر للملك « كامس » . . وهو الذى استحق بجدارة أن يتصدر قائمة أبطال التحرير فى جميع أنحاء الأرض وعلى طول التاريخ القديم والحديث على السواء . . وهو الذى أسس الأسرة الثامنة عشرة التى يعتبرها المؤرخون بالاجماع أعظم وأشهر أسرة ملكية فى تاريخ العالم .

* * *

أول أبطال التحرير فى تاريخ العالم

كان تعداد جيش التحرير المصرى تحت قيادة « أحمس الأول » يبلغ نحو ٤٨٠ ألف محارب من الضباط والجنود الفرسان والمشاة . وكان هذا الجيش الكبير يشع حماساً ووطنية ، ويحارب بروح عالية ، وتسيطر عليه فكرة واحدة هى تحرير مصر من هؤلاء الرعاة الآسيويين وطردهم خارج البلاد .

● خرج الجيش من طيبة / الأقصر قاصداً شرق الدلتا حيث توجد العاصمة التى اتخذها الهكسوس فى مدينة « أفاريس » . . وكان أغلبه محمولاً على ظهر أسطول ضخم من السفن النهرية المتخصصة فى نقل الجنود ونقل الخيول والعتاد الحربى والعجلات الحربية . وكان تسليحه يعتمد أساسًا على أسلحة مصنوعة من البرونز ، وهو نفس المعدن المستخدم فى صنع أسلحة الهكسوس التى استطاعوا بها فرض سيطرتهم على مصر . . كما كانت هناك فرق كاملة من الفرسان والرماة راكبى العجلات الحربية التى تجرها الخيول ، وهى السلاح الحربى الذى اعتمد عليه الهكسوس وأتاح لهم الغلبة على المصريين فى المعارك القليلة التى دارت رحاها حين تسللوا إلى الديار المصرية .

● واتخذ الملك مقر قيادته على ظهر سفينة حربية تتقدم السفن الأخرى . . كما أن قادة الجيش من كبار الضباط كانوا يباشرون أعمالهم القيادية وهم على ظهر السفن المتجهة نحو الشمال . وكان أهم هؤلاء القادة اثنان من الضباط العظام هما : « أحمس بن أبانا » و « أحمس بن نخب » . ويروى الضابط الأول سيرة حياته التى سجلها على جدران مقبرته فيقول « إنه أظهر كفاءته وقدرته فى فن الحرب فعينه الملك قائدًا على سفينة ضخمة اسمها « المضيئة فى منف » خاض بها أوار الحرب حين قامت المعركة على الماء عند مدينة أفاريس التى كان يتحصن فيها الرعاة الآسيويون » .

● ومن عدة نصوص أثرية أخرى نعرف تفاصيل معارك التحرير التى دارت براً ونهرًا بين جيش التحـريـر المصرى وجيـش الهكسـوس المتحصن فى أفـاريس حتـى دخل المصريـون إلى المدينة فـدمـروها وأبـادوا من طـالتـه أيديهم من الأعـداء . . أمـا معظم الهكسـوس فقد فـروا من المدينة عنـد رؤيـة جحافل الجيش المصرى . وقـام « أحمس » بمطـاردة هؤلاء الفـارين إلى خـارج الـديـار المصرية ، وظـل يلاحقهـم حتى الأراضى السورية . ويقول معظم المؤرخين أن الهكسوس تلاشوا بعد ذلك ولم يعرف لهم تاريخ .

● وبعـد هـذا النصر المؤزر فى الشمال ، اتجه « أحمس الأول » بجيشـه وسفنـه نحـو الجنوب ، ليعيد بـلاد النوبة إلى الأرض المصرية ، وذلك بعـد أن أعلنت بعض المناطق النوبية انفصالها عن مصر أثناء انشغالها بحرب الهكسوس .

● كذلك فقد تمكن أحمس من القضاء نهائيـاً على حكام الأقاليم الانتهازيين الذين كانوا متعاونين مع الهكسوس وخاضعين لهم ، فتوحدت الديار المصرية مرة أخرى تحت حكم مـركـزى عـاصمته طيبـة . . واستحق بـذلك أن يصبـح مؤسسـاً لأسرة ملكيـة «امبراطوريـة » جديدة ، هى الأسرة الثـامنة عشرة التى تعتبر أشهـر الأسرات الملكية فى تاريخ العالم المعروف ، كما استطاع « أحمس » أن يكـون على رأس فترة تاريخية جديدة ، أصبحت معـروفة فى التاريخ المصرى القـديم بإسم « الـدولة الحديثة » التى تضـم هذه الأسرة والأسرتين التاسعة عشرة والعشرين المعروفتين « بعصر الرعامسة » .

● وتعتبر « الدولـة الحديثة » قمة فـريدة متميزة من قمم الحضـارة المصرية ، وأمجد صفحة فى التاريخ المصرى القديم .



العصر الذهبى للبحرية المصرية القديمة

من حسن حظ المؤرخين وعلماء الآثار الذين درسوا التطورات التى لحقت بصناعة السفن عبر عصور التاريخ المصرى القديم ، بل وعبر عصور ما قبل التاريخ ، انهم وجدوا معلومات ووثائق واضحة تمام الوضوح مسجلة بالرسوم والنقوش الجدارية على حوائط وجدران المعابد والمقابر ، وبالرسوم المسجلة على صحائف البرديات . . كما عثروا على أعداد كبيرة من النماذج والموديلات الصغيرة للمراكب والسفن التى يرجع تاريخها الى عصور تاريخية مختلفة . . كما عثروا ايضا على مراكب وسفن حقيقية مدفونة بجوار الاهرام وبجوار بعض المقابر الاخرى بمناطق دهشور والجيزة وغيرهما من المناطق الأثرية .

● وقد استطاع هؤلاء العلماء ـ من مصريين وأجانب ـ تفريع دراساتهم وبحوثهم عن السفن فى مصر القديمة إلى عدة أفرع ، بحثوا فيها الأغراض التى من أجلها قام قدماء المصريين بتصميم وبناء تلك السفن ، سواء لتحقيق أغراض عقائدية كأداء الطقوس الجنائزية أو المراسم الدينية أو الاحتفالات الشعبية ، أو لتحقيق أغراض تجارية كأداء خدمات نقل الركاب أو نقل البضائع أو المواشى الحية ، أو لتحقيق أغراض عسكرية كأداء خدمات نقل الجنود والخيول والعجلات الحربية وغير ذلك من المؤن والعتاد الحربى .

● كما أفرد العلماء بحوثاً مستفيضة عن التصميمات الهندسية والملاحية للسفن التى تطورت عبر العصور التاريخية حتى وصلت حد الكمال فى عصر « الدولة الحديثة » . كما درسوا تطور أشكال المجاديف والأشرعة و المنشآت العلوية على ظهر تلك السفن .

● ويعنينا هنا أن نلخص ما ورد فى المراجع عن النهضة العظيمة التى بلغتها

البحرية المصرية فى عصر « الـدولـة الحديثـة » وعلى وجـه الخصـوص فى عصر الأسرة الثامنة عشرة الذى يعتبر عصراً للقمة الذهبية للبحـرية المصرية ولصناعة بناء السفن فى مصر القديمة .

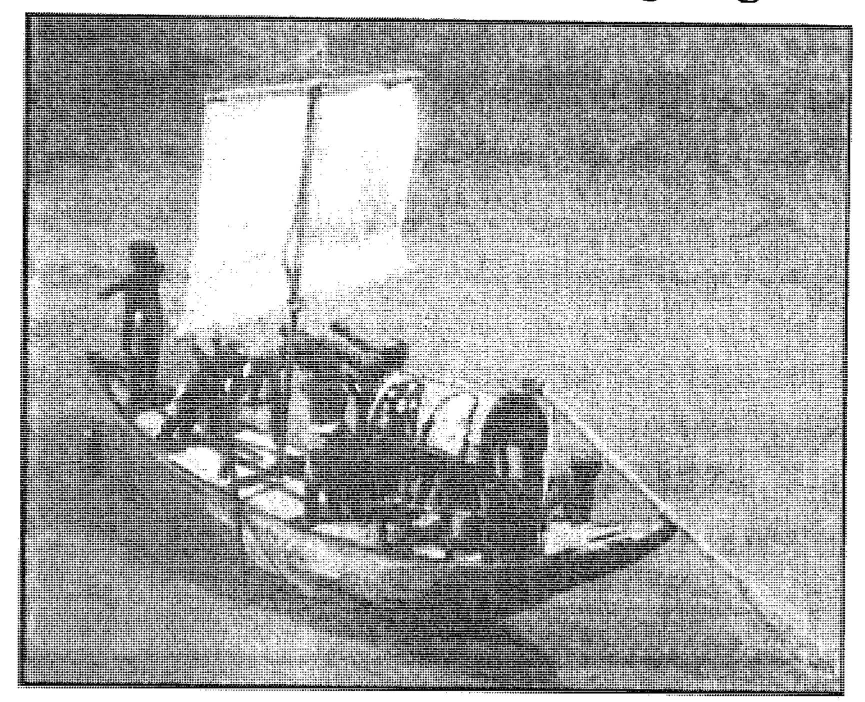
● ويتميز هذا العصر بصفة عامة بكثرة بناء واستخدام الأساطيل الضخمة لمختلف أنواع السفـن من حربيـة و تجارية ونـاقلات لـلأحجار والمثقـلات ، بل وبنيت فى ذاك العصر سفن تجاوزت حمولتها أكثر من ألفى طن .

● وفى عصر الأسرة الثامنة عشرة وضعت دعائم الامبراطورية المصرية ، وامتد النفوذ المصرى إلى الشرق والشمال فى كل الأقاليم التى تضم المناطق التى تشغلها الآن فلسطين وإسرائيل والأردن ولبنان وسوريا والعراق حتى جنـوب شرق تركيا . ونتيجة لذلك ازداد استخـدام السفن البحـرية الضخمـة بأعـداد كبيرة لنقل الجيـوش والعتـاد والمؤن وكل متطلبات المجهود الحربى الـذى كان يؤا زر الجيوش الساعيـة لتحقيق النصر . وبذلك تم تحويل معظم الموانى الـواقعة على السواحل الفلسطينية والسـورية إلى قواعد حـربية بحرية للسفن و الأساطيل المصرية .

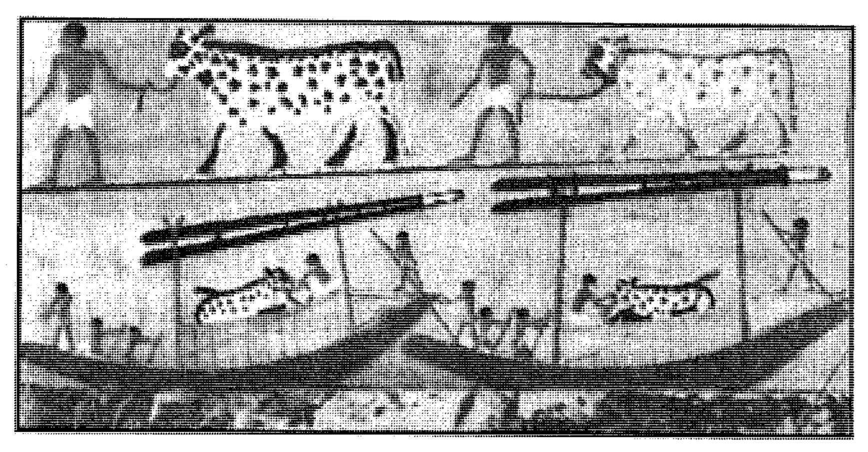
● وحتى يمكن الوفـاء بهذه الاحتياجات البحريـة الضخمة وهذه الأعداد المتـزايدة من السفن الكبيرة ، توسعت الدولة فى إنشاء وتدعيـم ترسانات بناء السفن التى كانت منتشرة فى بعض منـاطق مجرى النيل وسواحـل البحر الأحمر والبحـر المتوسط . وكـانت أهم تلك الترسانات الترسـانة الملكية « برعو ـ نـوفت » التى كانت تقع على مجرى النيل قرب مدينة منف التى كانت تعتبر العاصمة الثانية لمصر بعد العاصمة الرسمية فى مدينة طيبة / الأقصر .

● وكانت تلك الترسـانة تحت الاشراف المباشر لأولياء العهد وأكبر الأمـراء من أبناء الملوك . وكانت أهم اختصاصات هذه الطبقة من الأمراء ، الاشراف المباشر على أعمال الترسانة الملكيـة وتوفير احتياجاتها مـن العمال الفنيين والمؤن والعدد والأدوات والمعدات والأخشاب اللازمة لبناء و إصلاح السفـن ، بالاضافة إلى الاشراف المباشر على عمليات تجهيز الجيوش وتدريبها على العمليات الحربية .

● ومن ميناء منف [ميت رهينة بالجيزة حالياً] كانت تتجمع الأساطيل البحرية المصرية لتخرج من فروع النيل إلى البحر المتوسط والبحر الأحمر .



أحد النماذج الأثرية العديدة للسفن النهرية والسفن البحرية



سفن مخصصة لنقل الحيوانات .

أشهر أسرة ملكية فى تاريخ العالم

تعـددت الأسباب التى دعـت المؤرخين إلى وصف الأسرة الثـامنة عشرة بأنها أشهـر الأسرات الملكية فى التـاريخ القـديم والتاريخ الحديـث . . فقد حـاز ملوكهـا وملكاتها شهرة عالمية فى ميادين السياسة والحرب والثقافة والحضارة والدين .

● وهى الأسرة التـى أسست الامبراطـورية المصريـة ، وفـرضت النفـوذ الحضـارى المصرى فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغـرب . . واستقراءً لأسماء ملـوكها الـذين ذاع صيتهم فى التاريخ القديم وفى العالم المعاصر أيضا ، ندرك إلى أى مدى استطاعت هذه الأسرة الملكيـة أن تفرض نفسهـا على صفحات التـاريخ فرضـا . ونذكـر فيما يلى أسماء هؤلاء الملوك على التوالى، وكلهم معرفون لكل من له إلمام بتاريخ مصر والمصريين .

● أحمس بطل التحـرير . . أمنحوتب الأول « العـادل » الذى أصـدر قانونـا بمنع السخرة وبوضع المعايير العادلـة للأجور والحوافز . . وتحوتمس الأول « المحارب» الذى وسع الحدود المصريـة شمالاً وجنـوبـاً ونشر التعليم وتـوسع فى فتح المنـاجم وصنـاعـة التعدين . . وتحوتمس الثانى « المتأنق » الذى كان مهتماً بطلاء أظافر قدميه بالألوان . . وتحوتمس الثالث « الامبراطور » صـاحب العبقرية العسكرية الفـذة وأول فاتح عظيم فى تاريـخ العالم . . وامنحوتب الثـانى « الريـاضى » الذى اهتم بنشر الـرياضـة بين أبناء الشعب . . وتحوتمس الرابع « الدبلومـاسـى » الذى كان أول من اهتم بتدوين وتسجيل المعاهدات الـدولية . . وامنحوتب الثالث « أغنى ملك فى العـالم القديم » والذى فتح المدارس « بيوت الحياة » لنشر التعليم والفنون التشكيليـة والتطبيقية . . وأخناتون « أول الموحدين » وأول ملك فى تاريخ الانسان نادى بوحدانية الله خالق كل شىء . . وأخيراً

توت عنخ آمون الذى حاز شهرة فى العالم المعاصر لم يحزها ملك منذ ظهر النظام الملكى على الأرض .

● وإلى جـانب أسماء هؤلاء الملـوك العظام مـن أعضاء الأسرة الثـامنة عشرة ، ذكـر التاريخ أسماء ملكـات عظيمات ينتمين إلى هذه الأسرة الملكية ، منهـن على سبيل المثال الملكة « ايـاح حتب » زوجـة الملك الشهيد الشجـاع « سقنن رع » وكانت تتمتـع بروح وطنية عـالية وقدرة فائقـة على ادارة دفة الحكم أثناء تفـرغ زوجها لمحاربـة الهكسوس ، وهى التى بثت هـذه الروح الـوطنية فى ابنهـا الملك « كامس » الـذى تولى العـرش بعد استشهاد والده وواصـل الكفاح الوطنى ضد الهكسوس ، ثـم فى ابنها الأصغر « أحمس الأول » الذى نجح فى تحرير البلاد من المستعمرين الغزاة ووحد البلاد ووسع حدودها . ومن الألقـاب والأوصاف التى أطلقت على هـذه الملكة فى حيـاتها أنها : « ذات الاسم الرفيع الشأن فى كل بلد أجنبى . . وذات القدرة على ادارة شئون البلاد بكل حزم » .

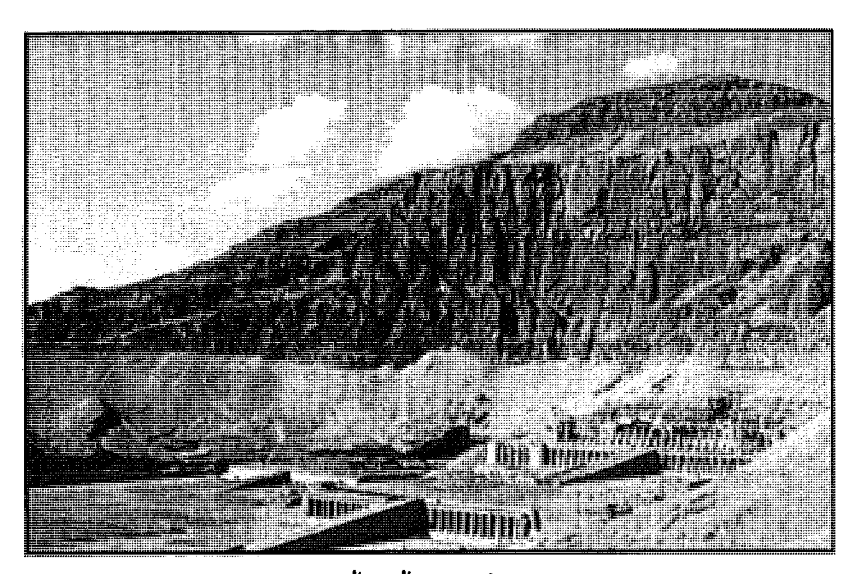
● ويـذكر التـاريخ أيضا اسـم الملكة « أحمس نفـرتارى » زوجـة أحمس الأول والتى قدسها الشعب المصري وأطلق عليها لقب « الملكة المقدسة والحاكمة العظيمة » .

● ويذكر التاريخ أيضا اسم الملكة «تى » ـ بنت الشعب ـ وزوجة امنحوتب الثالث وأم اخناتون . . وكانت سيدةعظيمة قديرة يعتبرها المؤرخون أعظم نساء التاريخ المصرى ذكـاء وقوة شخصيـة وعـزيمة . . وشـاركت زوجهـا فى حكم الامبراطـوريـة الواسعـة الأرجاء ، فكـانت تباشر شئون الحكم إداريـا وسياسياً ودينيـا ، كما كانت تقابل الـوفود الدبلـوماسيـة الأجنبية ، كما أشرفت على تطـوير هائل لنظـام التعليم فى مصر ، حيث قسمت الدراسة الى مرحلة ابتدائية ومرحلة ثانوية ومرحلة عليا يتعلم فيها النابهون مزيداً من العلوم والأسرار كما يتعلمون اللغات الأجنبية قراءة وكتابة .

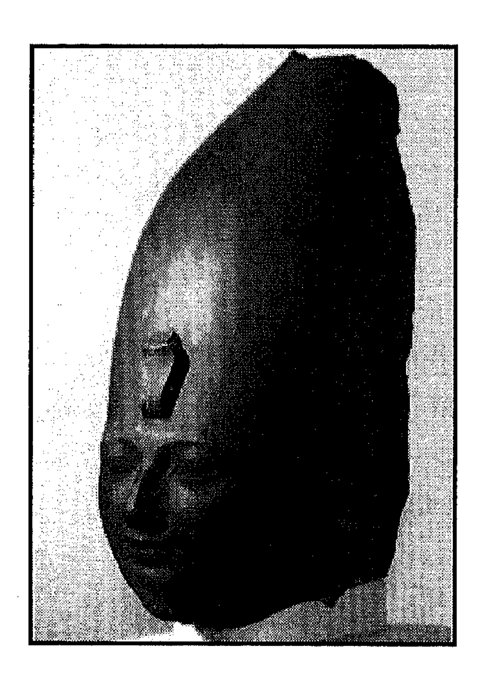
● ومن أشهر ملكات هذه الأسرة الملكة « نفرتيتى » الجميلة التى حكمت مصر ـ مع زوجها اخناتون وبعد وفاته ـ فى ظل ديانة التوحيد والدعوة إلى عبادة إله واحد خالق كل شىء .

● أما أهـم ملكات تلك الأسرة وأعلاهن قدراً فهى « سيدة النساء الشريفات» الملكة

العظيمة « حتشبسوت » التى انفردت بحكم البلاد قرابة عشرين عاماً ، غيرت فيها أساليب الحكم ، وبلغت مصر فى عهدها أعلى قمة فى الحضارة والعمارة والتجارة الدولية ، حيث أرسلت البعثة البحرية التجارية والعلمية إلى بلاد بونت .



معبد حتشبسوت بالدير البحرى .



رأس تمثال للملكة حتشبسوت

أول رحلة بحرية كشفية فى تاريخ العالم

تعتبر « حتشبسوت » خامس ملوك الأسرة الثامنة عشرة . . تولت الحكم بعد موت زوجها « تحوتمس الثانى » كوصية على عرش يشغله صبى صغير هو « تحوتمس الثالث» الذى أصبح فيما بعد أعظم عبقرية عسكرية فى تاريخ العالم القديم وزوجته الصبية الصغيرة «نفرو ـ رع » وهى فى الوقت نفسة ابنة الملكة حتشبسوت .

● وقد انتصر فى عهدها الذى استمر نحو عشرين عاماً التيار السياسى الذى يمثله حزب الكهنة والمثقفين المصريين ، فى المنافسة التى كانت بينه وبين حزب المؤسسة العسكرية المصرية . ولهذا فقد ساد السلام ربوع البلاد ، وخرجت القوافل والأساطيل البحرية التجارية المصرية تحمل المنتجات والمصنوعات المصرية إلى البلاد الأجنبية فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب لتبادلها بمنتجات تلك البلاد .

● وشيدت حتشبسوت واحداً من أعظم الآثار المعمارية وأكثرها روعة وفخامة ، وهو معبد « الدير البحرى » على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة الأقصر . وهو معبد فريد فى تصميمه . وليس له مثيل بين معابد العالم القديم كلها . وقد وضع تصميمه الهندسى وأشرف على الأعمال التنفيذية لبنائه المهندس الشاب «سننموت » الذى أصبح المستشار الأول للملكة فى كل الأمور .

● ولما كانت علاقات مصر ببلاد بونت قد انقطعت خلال فترة « الاضمحلال الثانى » السابقة على قيام الأسرة الثامنة عشرة ، فقد تاق المصريون مرة أخرى إلى ذكرياتهم القديمة مع بلاد بونت [جنوب اليمن و الصومال] وتطلعوا إلى منتجاتها من أنواع البخور التى كانت تملأ المعابد بعبير العطر الزكى وتعمق إيمان العابدين بالدين

والعقيدة . . وتطلعوا إلى إعادة أمجاد الصناع المصريين وإبداعهم فى التعامل مع أخشاب الأبنوس الفاخرة والتحف الرائعة التى كانوا ينحتونها من العاج والملابس الفخمة التى كانو يصنعونها من جلود الفهود .

● ولذلك فقد أوعز الكاهن الأعظم « حبو سنب » للملكة بأن تأمر باعداد حملة بحرية إلى بلاد بونت تحت رعاية الإلة آمون . . وتم إعداد الحملة التى تولى قيادتها مصرى محنك فى قيادة السفن البحرية كان يشغل منصب رئيس الخزانة الملكية واسمه «نحسى» [ومعنى إسمه : العبد أو عبده] . . وجهزت الحملة بمجموعة من الفنانين الرسامين الذين قاموا بدور الصحفيين، فكتبوا أدق « ريبورتاج » علمى مصور وصفوا فيه بلاد بونت سواء من الناحية الطبيعية أو البدائية أو من ناحية جغرافيتها البشرية والأجناس المختلفة التى كانت تسكنها ، وتقاليد وعادات الأهالى الذين يعيشون هناك ، هذا بالاضافة إلى دراسة علمية ممتعة لمختلف أنواع وأشكال الأسماك والأحياء المائية فى البحر الأحمر.

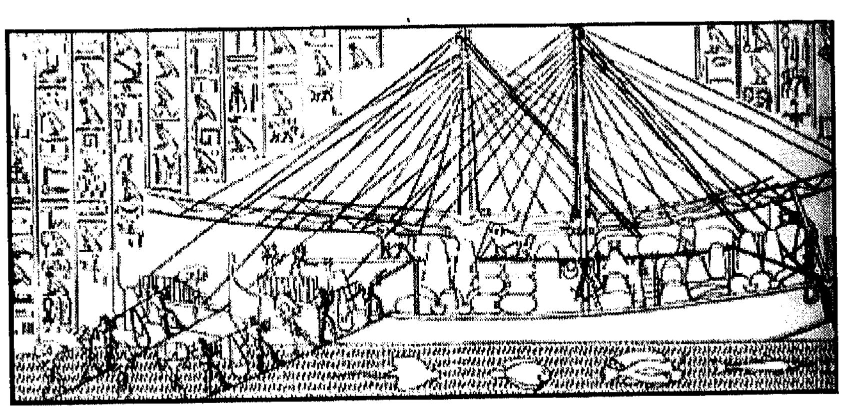
● وقد خرجت هذه الحملة من النيل إلى البحر الأحمر عن طريق القناة القديمة التى حفرت فى عصر الدولة الوسطى والتى كانت تخترق وادى طميلات إلى البحيرات المرة التى كانت متصلة بدورها بمياه خليج السويس .

● وعلى جدران معبد الدير البحرى ، سجلت حتشبسوت نصوص وصور ومناظر جميع مراحل الرحلة البحرية التى قامت بها سفن الأسطول المصرى منذ أن خرجت من النيل إلى أن عادت إليه محملة بكل ما استطاعت نقله من بلاد بونت من العاج والأبنوس وجلود الفهود وسبائك الذهب والفضة وأحمال من البخور و العطور والتوابل والقرفة والاعشاب الطبية وشتلات أشجار البخور التى نقلت بجذورها ـ وكان عددها ٣١ شجرة ـ وزرعت فى حديقة المعبد ومازالت بعض آثارها باقية ، بالاضافة إلى«التوتيا » المستعملة فى صناعة كحل العيون ومجموعة كبيرة من الحيوانات الحية تشمل الزراف والكلاب والنسانيس .

● كذلك سجلت بوضوح مناظر الكيفية العملية التى نفذت بها عمليات شحن

.وتفريغ السفن والهمة والنشاط فى أداء العمال والبحارة . كما أن من أجمل اللوحات التى نقشت على جدران المعبد منظر المقابلة التى تمت بين « نحسى » باعتبارة قائد البعثة ومندوب الملكة حتشبسوت وبين ملك وملكة بونت فى تلك الصورة الكاريكاتيرية التى تعد من أشهر الرسوم الكاريكاتيرية فى العالم القديم .

● ومن المناظر الأخرى التى سجلت تمجيداً للدور العظيم الذى لعبته السفن المصرية فى ذلك العهد ، مناظر عملية نقل مسلتين ضخمتين فى رحلة نهرية من محاجر الجرانيت بأسوان إلى الأقصر لاقامتها بمعابد الكرنك . . حيث نرى المسلتين وقد وضعتا على سفينتين ضخمتين تقطر كلاً منهما ثلاثة صفوف من السفن المتوسطة الحجم والتى تسير بالمجاديف . وكل صف من هذه الصفوف الثلاثة يتكون من تسع سفن وعلى رأسها سفينة قيادة .



سفينتان شراعيتان من السفن الضخمة
التى أرسلتها حتشبسوت إلى بلاد بونت .

تحوتمس الثالث .. واللورد النبى .. ومونتجومرى

يعتبر « تحوتمس الثالث » من أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، بل ومن أعظم ملوك التاريخ المصرى القديم بأكمله . . فهو أول فاتح عسكرى عظيم فى تاريخ العالم . . وعبقريته العسكرية الفذة فاقت حدود كل تصور سواء فى تاريخ الحروب فى العالم القديم أو فى تاريخ الحروب حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

● ويجمع المؤرخون العسكريون على أن تحوتمس الثالث هو أول قائد حربى فى التاريخ وضع خطة تقسيم الجيش إلى « قلب وجناحين » . . وهو أول من وضع فكرة تكوين « مجلس أركان حرب » من كبار الضباط للتشاور معه فى وضع الخطط الحربية الفذة للهجوم على جيش الأعداء .

● وتدل الشواهد التاريخية المسجلة على انه بعد ٧٥ يوماً فقط من توليه عرش مصر ـ بعد الملكة حتشبسوت ـ بدأ فى الزحف بسلسلة من الحملات العسكرية المجهزة أحسن تجهيز بالعتاد الحربى ، بلغت ١٦ حملة استمرت نحو عشرين سنة متواصلة ، كان من نتيجتها تكوين أول امبراطورية واسعة الأرجاء فى تاريخ العالم القديم . . تمتد جنوباً حتى مناطق الجندل « الشلال » الرابع ببلاد النوبة ، وتمتد شمالاً وشرقاً حتى مناطق أشور وشمال سوريا ولبنان وبلاد النهرين « العراق » ومملكة بابل ومملكة خيتا ، كما استولى على جميع موانى البحر المتوسط الواقعة فى مناطق سوريا ولبنان وفلسطين وجعلها قواعد حربية لجيوشه .

● ويحلو لكثير من المؤرخين أن يعقدوا بعض المقارنات التاريخية الطريفة لاثبات

مدى التماثل والتطابق الحرفى بين الخطط الحربية التى وضعها تحوتمس الثالث والخطط الحربية التى طبقها بعض دهاة العسكريين فى الامبراطورية البريطانية . وتتم هذه المقارنات فى إطار دراسات التاريخ الحربى بكثير من الكليات والأكاديميات العسكرية الحديثة .

● يقولون مثلا إن الخطة الحربية البارعة التى ابتدعها تحوتمس الثالث فى عبور ممر «عرونا» بالمناطق السورية هى نفس الخطة التى اتبعها القائد الانجليزى «لورد اللنبى» فى عبور هذا الممر الضيق وفاجأ بها جيش الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م ، أى بعد العهد الذى وضعت فيه هذه الخطة الأصلية بنحو ٣٤٠٠ سنة .

● ويقولون أيضا أن الخطة الحربية التى وضعها تحوتمس الثالث لنقل سفنه الحربية «نقلاً برياً» وهى مجزأة كقطع مفككة وأجزاء قابلة للتركيب السريع والتجهيز الفورى ، وذلك حتى يتمكن من العبور بها فى نهر الفرات والوصول بجيشه إلى بلاد النهرين / العراق لضمها ضمن مناطق نفوذ الامبراطورية المصرية . وهى خطة تعتبر بكل المقاييس خطة حربية فذة وغير مسبوقة فى التاريخ العسكرى ، وهى التى «أوحت» إلى الفيلد مارشال مونتجومرى بخطة نقل سفن العبور الحربية براً - من فرنسا إلى المانيا - حتى وصل بها إلى الأماكن المحددة لعبور قواته نهر «الراين» أثناء الحرب العالمية الثانية .

● ويقولون كذلك إن خطة تحوتمس الثالث فى أخذ أبناء أمراء وحكام وملوك البلاد التى فتحها كرهائن ، وإرسالهم معززين مكرمين إلى مصر لتنشئتهم وتعليمهم بالمدارس المصرية ، وتربيتهم طبقا للتقاليد والعادات والثقافة والأخلاق المصرية ، ليصبحوا مجهزين سياسياً لحكم بلادهم حين يؤول إليهم الأمر ، وفى أعناقهم هذا الدين الحضارى تجاه مصر . . هذه الخطة طبقتها أيضا الامبراطورية البريطانية فى الهند وفى معظم المستعمرات التى كانت خاضعة للتاج البريطانى حيث أجبرت أبناء الأمراء والحكام وعلية القوم على الالتحاق بالكليات الانجليزية التى كانت تعلمهم الثقافة البريطانية وتنشئهم على تمجيد بريطانيا العظمى .

● ويجمع المؤرخون على أن تحوتمس الثالث كان يتمتع إلى جانب عبقريته العسكرية

بشخصية قوية تتميز بالنبل الرفيع والرجولة والعدالة والتدين والصدق ، وكانت سياسته الداخلية فى حكم البلاد تقوم أساساً على إقرار النظام العام ورفاهية الشعب .

● ومن آثار هذا الامبراطور لوحات ونصب تذكارية عديدة مازالت قائمة حتى الآن فى معظم المناطق الآسيوية والأفريقية التى أدخلها تحت النفوذ المصرى بالاضافة إلى مجموعة كبيرة جداً من الآثار التى ترجع لعهده والمنتشرة فى معظم متاحف العالم الحديث .

●● وكان مولعاً بنصب وإقامة المسلات التذكارية الضخمة فى المعابد والمدن المصرية . . ولكن شاء القدر أن تنقل بعض هذه المسلات ليعاد نصبها فى عواصم ومدن أخرى بعيدة عن وادى النيل بآلاف الكيلومترات . ومن الغريب أن المسلة المصريية القائمة حاليا على شاطىء نهر التيمس بلندن هى إحدى المسلات التى أقامها تحوتمس الثالث ، ومع ذلك يسميها الانجليز « مسلة كليوباترا » . . وقد انتقل هذا الخطأ إلى الامريكيين ، فأطلقوا اسم مسلة كليوباترا أيضا على إحدى مسلات تحوتمس الثالث التى تم نقلها ونصبها فى نيويورك .



ملامح النبل والشجاعة والعبقرية العسكرية للملك تحوتمس الثالث .

حين أصبحت مصر قمة الحضارة فى العالم القديم

أدت الفتوحات العسكرية فى عصر الأسرة الثامنة عشرة إلى فرض النفوذ المصرى على معظم دول العالم القديم فى المناطق السورية حتى جنوب شرق تركيا وعلى معظم مناطق العراق وعلى كل الأراضى التى تشغلها الآن سوريا ولبنان والأردن واسرائيل وفلسطين ، وعلى مناطق شرق ليبيا وشمال السودان .

● وطبقا للعرف الذى كان متبعاً فى العالم القديم فقد فرضت الجزية على تلك البلاد وامتلأت الخزائن المصرية بالذهب والفضة إلى جانب أعداد لاحصر لها من الخيول وأنواع المواشى والثيران والقرود وأنواع الأخشاب الفاخرة والجلود المدبوغة والفراء وريش النعام والعاج والبخور إلى غير ذلك من السلع المماثلة .

● كذلك فقد نشطت التجارة الخارجية بين مصر وتلك المناطق فازداد حجم صادرات المصنوعات والمنتجات المصرية كما استوردت مصر أفضل ما كانت تتميز به تلك المناطق من مصنوعات ومشغولات مثل الحلى والمجوهرات والأحجار الكريمة والأوانى والأباريق والأسلحة والمصنوعات الزجاجية والمعدنية والآلات الموسيقية .

● كما وفد إلى مصر آلاف من أمهر العمال والصناع الأجانب الذين أثّروا فى الأساليب التقليدية التى اشتهر بها عمال وصناع مصر القديمة . ويقول بعض المؤرخين ودارسى حضارة العصور القديمة إن هؤلاء العمال والصناع الأجانب قد تأثروا أيضا بالتكنولوجيا المصرية فمزجوها بأساليبهم المحلية ، ولذلك قد تميز إنتاجهم بأسلوب جديد ولكنه لا يخرج عن الطابع المصرى التقليدى المعروف . وهو ما يظهر فى كثير من القطع الأثرية التى يرجع تاريخها إلى هذا العصر .

● وقد وصلت مصر إلى قمة الثراء والغنى فى عصر الملك « أمنحوتب الثالث» الذى

يعتبر واحداً من أهم ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهو والد « أخناتون » . وقد تزوج أمنحوتب الثالث من إحدى بنات الشعب المصرى وجعلها « الزوجة الملكية الرئيسية » وهى الملكة « تى » وكانت ذات شخصية فذة فى ميادين العلم والثقافة و السياسة . . بل و يعتبرها بعض المؤرخين أعظم نساء التاريخ المصرى القديم ذكاءً وقوة شخصية وعزيمة . وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على انها جمعت كل زمام الأمور فى يدها بعد انصراف زوجها إلى التمتع بمناعم الحياة ولذائذها ، فأصبحت الحاكمة الفعلية للبلاد وصاحبة الكلمة العليا فى تسيير وإدارة الأمور فى الامبراطورية المصرية سواء فى داخل البلاد أو خارجها .

● وكان من نتائج هذا الثراء أن ساد الرخاء بين كافة طبقات الشعب المصرى من النبلاء والكتاب والضباط وأبناء الشعب العاديين من الفلاحين والعمال والصناع ، وانفتحت أبواب مراحل التعليم أمام هؤلاء على أوسع نطاق ، وأصبح تعليم اللغات الأجنبية ضرورياً ويأتى فى المرتبة التالية لتعليم اللغة المصرية ، بالاضافة إلى التوسع فى دراسة العلوم و الآداب المصرية والأجنبية .

● وأدى هذا الازدهار أيضاً إلى ظهور اتجاهات جديدة فى فنون العمارة والفنون التشكيلية والتطبيقية ، وضحت جلية فى فن نحت التماثيل الضخمة والصغيرة وزخرفة أعمدة المعابد والنقوش الجدارية ذات الألوان المبهجة والأكثر تحرراً من القيود الصارمة التى كانت تحكم الفنون المصرية التقليدية .

● كما يظهر هذا الرقى الحضارى فى آلاف القطع الأثرية التى عثر عليها والتى يرجع تاريخها إلى هذا العصر من التماثيل الصغيرة المصنوعة من المرمر أو الخشب أو العاج ، والتحف المصنوعة من الزجاج و الخزف ، والمجوهرات المطعمة بالاحجار الكريمة وشبه الكريمة ، وطراز الأردية والملابس ذات الذوق الرفيع . . لدرجة دفعت بعض المؤرخين إلى تسمية هذا العصر « بعصر الرفاهية والثراء والبذخ » وشبهوه بعصر هارون الرشيد أيام الدولة العباسية ، وعصر لويس الرابع عشر فى فرنسا أثناء القرن الثامن عشر.

أخناتون .. وديانة التوحيد بالله

أنت واحد . . ولا إله غيرك . . ولا شريك لك فى ملكك !

● من المؤكد تاريخيًا أن هذا الاعتراف كان أول صيحة انسانية رسمية شاملة تنادى بوحدانية الله خالق كل شىء . . أطلقها واحد من أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وهو « أخناتون » الفرعون الفيلسوف الشاعرالذى كان يرى الله فى « القوى المجردة الخفية » التى خلقت كل موجود فى هذا الوجود ، والتى ترزق الفرخ بداخل البيضة ، وترزق الجنين فى بطن أمه ، وتبعث الحياة فى قلب البذرة فيخرج النبات من جوف الأرض .

● وطبقا لطريقة الكتابة الهيروجليفية كان اسمه ينطق « آخ إن أتون » ويكتب الآن فى اللغات العربية والأجنبية « أخناتون » بفتح الألف أو « إخناتون » بكسر الألف . ومعنى هذا الاسم « المفيد للإله أتون » أو « الذى يخدم الإله أتون » . وقد أطلق أخناتون هذا الاسم على نفسه بعد أن تخلى عن إسمه الملكى « أمنحوتب الرابع » وهو الاسم الذى كان يتضمن الاشارة إلى الإله « آمون » الذى كان يعتبر أكبر الآلهة المتعددين الذين كانت تشملهم الديانات والعقائد المصرية قبل وبعد عصر التوحيد الذى أعلنه أخناتون .

● كان كهنة آمون وكهنة الآلهة المصرية الأخرى قد بلغوا من الثراء والسلطة حداً لم يبلغه من قبلهم كهنة الديانات المصرية المتعددة . وكانت ممتلكات المعابد تمثل أكبر نسبة من الثروة القومية ، وبالتالى فقد تمكنوا من السيطرة على معظم اقتصاديات البلاد وسياساتها .

● وفور تولى أخناتون عرش مصر أمر بإلغاء جميع الديانات المتعددة وإزالة أسماء جميع الآلهة من جميع المعابد الدينية فى طول البلاد وعرضها ، فقضى بذلك على السلطات الواسعة التى كان يتمتع بها الكهنة ورجال الدين الذين كانوا يدعون بأنهم حلقة الوصل بين الانسان والإله . وأعلن أخناتون أن جميع المخلوقات يمكنها أن تعبد الإله الواحد دون أية وساطة من الكهنة أو رجال الدين .

● ولأن أخناتون كان فيلسوفاً وشاعراً موهوباً بالسليقة والفطرة فقد عكف على وضع وصياغة أجمل النصوص الأدبية للأناشيد والقصائد الشعرية الدينية لعبادة الإله « أتون » الواحد خالق كل شىء . وهو الإله الذى كان يرمز إليه بقرص الشمس تمتد منه أياد بشرية تمنح الحياة لكل ما فى الوجود من كائنات . وقد عقد كثير من المؤرخين مقارنات تحليلية بين بعض نصوص الأناشيد الدينية التى أبدعها أخناتون شعراً وبين نص «المزمور » رقم ١٠٤ من مزامير داوود المذكورة فى التوراة ، فوجدوا تشابهاً وتماثلا وتطابقاً بين الكلمات والجمل والمعانى وترتيب الأبيات . ونظراً لأن من الثابت تاريخياً أن عصر أخناتون يسبق التوراة بنحو سبعمائة سنة ، فقد أعلن عالم المصريات الكبير «ج . هـ. برستيد » أن أخناتون هو أول من وحد الله فى هذا العالم .

● ومن أجمل الصلوات التى صاغها أخناتون شعراً ذلك النشيد الدينى الذى يتعبد به ويقول فيه : « ياخالق المخرج فى جسم المرأة . . ياخالق النطفة فى ظهر الرجل . . يا واهب الحياة للجنين فى رحم أمه . . يامن يهدئه ويهدهده فلا يبكى . . يامن تغذيه وترعاه حتى يولد . . ياواهب أنفاس الحياة لكل مخلوقاتك منذ يوم يولدون . . يامن تفتح أفواههم لتعطيهم ما يقتاتون . . والفرخ الصغير حين يصبح فى البيضة تمنحه القدرة على التنفس ليستطيع الحياة . . ألا ما أكثر أعمالك الخافية علينا . . أيها الإله الواحد الذى لا مثيل له أبداً . . يامن خلقت الأرض والسماوات العلا . . وخلقت الانسان والحيوان والطير فى كل الأراضى المصرية والأراضى الأجنبية . . أنت الذى تضع كل رجل فى موضعه وتمد الجميع بأرزاقهم وتمنحهم أيام حياتهم المعدودة . . وتجعل أشكالهم مختلفة وتميز بين الأمم وبعضها . . وأنت الذى جعلت الفصول تختلف لينعم بها كل مخلوقاتك . . وبالرغم من بعدك فى أعلى السماوات ، إلا أنك قريب إلى كل يد تُرفع إليك عبادة وابتهالاً » .

● وقد صاحبت هذه الثورة الدينية ثـورة اجتماعية أخرى أعلن فيها أخناتون أن جميع الناس بطبقاتهم المختلفة على قدم المساواة أمام الإله الواحد ، لا فرق بينهم إلا بتقواهم وحسن سلوكيـاتهم الأخلاقية . . بالاضافـة إلى ثورة فى أساليب الفن كـانت ذات طابع متميز فى تاريخ الفنون المصرية القديمة بصفة عامة .



تمثال لأخناتون . . معروض بالمتحف المصرى .

نفرتيتى .. الجميلة التى حكمت مصر

أشرنا فيما سبق إلى بعض ملكات الأسرة الثامنة عشرة ممن كان لهن أثر كبير فى حكم مصر ونشر الحضارة المصرية . ولذلك فلا يمكن أن نغفل ذكر « نفرتيتى » الملكة الجميلة التى حكمت مصر بالاشتراك مع زوجها أخناتون فى ظل ديانة التوحيد .

● وقد ظهرت نظرية حديثة فى علم الآثار وتاريخ الحضارة المصرية القديمة تؤكد أن نفرتيتى حكمت مصر بعد وفاة زوجها كوصية على العرش الذى كان يتولاه « توت عنخ آمون » وهو إبن زوجها من زوجة أخرى اسمها « كيا » وكان لم يزل طفلا ولكنه كان صاحب الحق الشرعى فى وراثة العرش .

● وهذه النظرية الحديثة تتعارض مع ما كان يقول به المؤرخون من أن العرش قد انتقل بعد وفاة أخناتون إلى أخ له يدعى « سمنخ كا ـ رع » . وقد ثبت الآن أن هذا الاسم كان لقبا تلقبت به نفرتيتى حين انفردت بحكم البلاد كوصية على توت عنخ آمون .

● وكان المؤرخون يستبعدون فكرة زواج أخناتون من امرأة أخرى نظراً للحب العائلى الجارف الذى كان يربط بينه وبين زوجته نفرتيتى وبناته الست اللواتى أنجبهن منها . وقد ظهرت أواصر هذا الحب العائلى فى مئات النقوش الجدارية التى صورت أخناتون ونفرتيتى وبناتهما فى أجمل وأحلى صور الحب والترابط العائلى .

● وفى فترة السبعينيات توصلت عالمة الآثار المصرية « جوليا سامسون » إلى شواهد أثرية تؤكد النظرية التى قال بها من قبل عالم المصريات الكبير البروفيسور « ج . هاريس » من أن نفرتيتى هى التى خلفت زوجها فى حكم مصر بعد موته ، وليس هناك ملك اسمه « سمنخ كا ـ رع » .

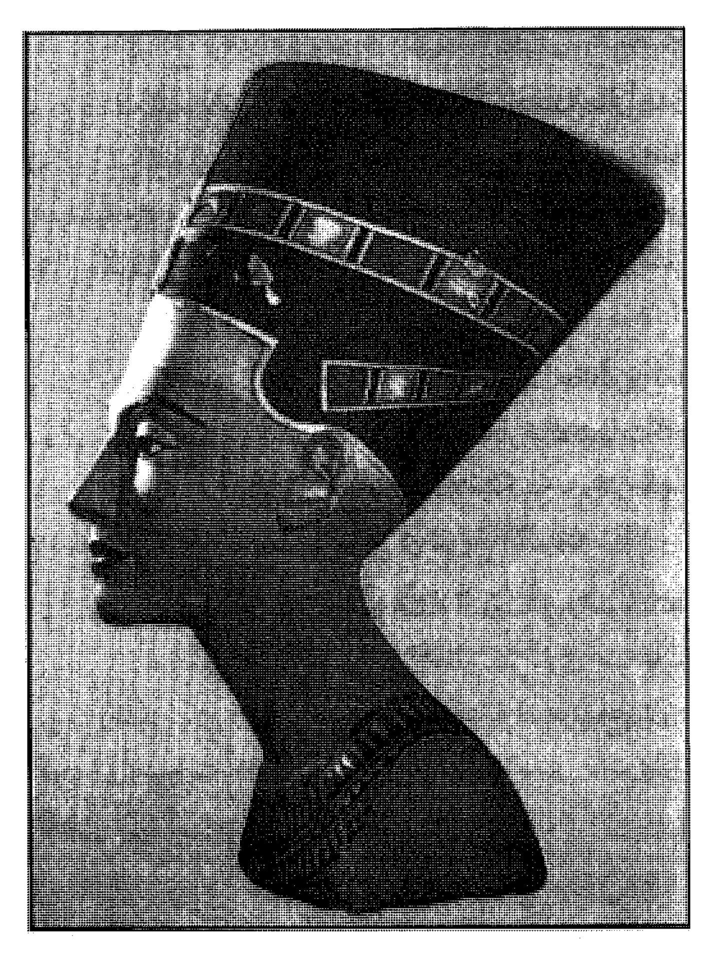
● وبالتحليل التاريخى لتلك الشواهد الأثرية قالت العالمة البريطانية جوليا سامسون أن رجاحة عقل نفرتيتى ووعيها السياسى كانا وراء السماح لزوجها عن طيب خاطر بأن يتزوج بفتاة يمكن أن تنجب له وريثاً للعرش . ومن المرجح انها اختارت «كيا» وهى إحدى وصيفاتها لتقوم بهذه المهمة . ومن المرجح أيضا أن « كيا » هذه أنجبت طفلاً لأخناتون أطلق عليه اسم « توت عنخ آتون » وهو الاسم الذى تغير فيما بعد إلى « توت عنخ آمون » تحت ضغط كهنة آمون وانتصارهم على ديانة التوحيد التى نادى بها أخناتون قبل وفاته .

● ورجحت جوليا سامسون أيضاً كفة القول بأن نفرتيتى كانت « ملكة حاكمة » شاركت زوجها فى دعواه الدينية كما شاركته فى مباشرة شئون الحكم ، وذلك بعد دراسة الكثير من النقوش التى صورت الزوجين معاً وهما يستقبلان الوفود الرسمية الأجنبية ، أو يقدمان الأنواط والنياشين لكبار رجال الدولة ، أو يفتشان على سفن الأسطول . كما تم العثور على لوحة تصور نفرتيتى فى هيئة « الفرعون المحارب » وهى منظر رمزى من المناظر التقليدية فى تاريخ الفن المصرى القديم ، وكان هذا المنظر قاصراً على الفراعنة وحدهم ، ويصور فيه الفرعون فى وضع متحفز ويمسك بيده اليسرى شعر رأس أحد الأسرى من أعداء مصر ويرفع بيده اليمنى هراوة أو سيفا يهم بتوجيهه إلى رأس العدو بضربة قاضية . . إلى غير ذلك من النقوش التى تؤكد ان نفرتيتى كانت ملكة حاكمة تمارس الوظائف والاختصاصات القاصرة على الفراعنة وحدهم ، والنقوش الأخرى التى تؤكد أن الزوجين أخناتون ونفرتيتى كانا يشتركان معاً فى حكم البلاد .

● ومن الألقاب التى أطلقها أخناتون عليها انها : « الزوجة الملكية العظمى . سيدة مصر العليا والسفلى . بهيجة بتاجها . ذات الحسن . حلوة الحب . زائدة الجمال . الجديرة بالمرح . سيدة السعادة . وسيدة جميع النساء » . أما اسمها فينطق حسب الكتابة الهيروجليفية « نفرت إيتى » ومعناه « الجميلة آتية أو مقبلة » . أما اسمها الملكى الرسمى فهو « نفر نفرو أتون » ومعناه الجميلة كجمال أتون .

● أما تمثالها الرائع الشهير المعروض حالياً بمتحف برلين ، فقد عثرت عليه بعثة

ألمانية كانت تجرى حفائرها الأثرية فى مدينة « آخت أتون » وهى تل العمارنة بمحافظة المنيا حالياً فى أوائل هذا القرن ، وقامت البعثة بتهريبه خارج البلاد بطريقة خادعة أقرب ما تكون إلى حيل لصوص الآثار .



أجمل تماثيل الملكة نفرتيتى ..
معروض حاليا بمتحف برلين .

أعظم كنز أثرى عثر عليه الانسان

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ - ١٩١٨] سادت العالم أحداث جسام ، فقد تفاقمت المشاكل المحلية والمشاكل الدولية ، ونشبت حروب صغيرة وثورات واضطرابات سياسية واقتصادية واجتماعية فى معظم قارات العالم . . ثورة ١٩١٩ فى مصر . . وثورة البولشفيك فى روسيا . . وثورات الهند والصين ، وثورات دول أمريكا اللاتينية .

● وكانت أخبار تلك الأحداث تنتقل بين أركان الأرض بسرعة البرق بعد أن انتشرت أسلاك « التلجراف » فوق سطح الأرض وتحت مياه البحار والمحيطات لتصل بين دول العالم وقاراته . . ثم ظهر الراديو والاتصالات اللاسلكية ، وكثر ظهور الصحف ووسائط الإعلام الأخرى بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ الانسان .

● وفى أوائل نوفمبر ١٩٢٢ توقفت جميع هذه الوسائل والوسائط الإعلامية والاخبارية فى حالة انتباه لتعلن خبر العثور على أعظم كنز أثرى عثر عليه الانسان فى القرن العشرين . وانتشرت فى جميع أنحاء العالم حكاية فرعون مصرى صغير اسمه «توت عنخ آمون » وأصبحت أخبار هذا الملك الصغير الذى مات منذ نحو أربعة وثلاثين قرناً تغطى على أسماء وأخبار الرؤساء والزعماء والملوك الأحياء فى جميع أمم الأرض .

● وبالنظر إلى أن الحركة الوطنية المصرية كانت على أشدها فى ذلك الحين ، فقد تفاخر المصريون جميعًا بهذا الكشف الأثرى العظيم دلالة وتأكيدًا على تاريخ مصر المجيد والحضارة الراقية التى صنعها شعبها منذ أقدم العصور . ومن الطريف أن نذكر

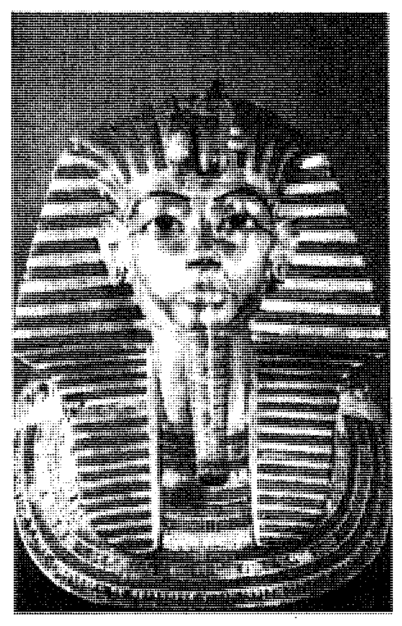
أن اسم تـوت عنخ آمون قـد أطلق على بعض الفنـادق ومحلات بيع الملابس والحلوانيـة وباعة العصير سـواء فى العاصمة أو فى كافة المدن المصرية بـالوجهين البحرى والقبلى . وكان محل توت عنخ آمـون بميدان العتبة الخضراء بالقاهرة من أشهـر محلات الحلويات والمشروبات الغـازية التى يقبـل عليها الشعب المصرى من سكـان القاهرة وزوارهـا من أهالى الأقاليـم . وبذلك أصبح اسم توت عنخ آمون متـداولاً ليس بين المتعلمين وقراء الصحف وحدهم ، بل وبين الناس العاديين ولو كانوا من الأميين .

● كانت مقبرة تـوت عنخ آمون التى اكتشفهـا هوارد كـارتر بوادى الملـوك أول وآخر مقبرة فرعونيـة يتم العثور عليها كاملة المحتـويات . . وكان الكنز الـذى دفن بداخلها يتضمن إلى جانب مـومياء الملك وتوابيته الـذهبية أكثر من خمسة آلاف قطعة أثـرية من تماثيل مرمرية أو خشبية مكسوة بصفائح الذهب أو مصبوبة كلها من الذهب الخالص . . ونماذج لمراكب وجعـارين وأوانى وأسرّة وحـوامل للرأس وكـراسى عـادية وكـراسى للعـرش ، وأضرحة ونـواميس وحلى ومصوغـات ومجوهـرات على شكل عقود وأسـاور وحلقان وخـلاخيل وصنادل وخـواتم ويـاقـات وقلادات صدريـة وكلها مصنوعـة من الذهب أو الفضة ومرصعة بالعاج والصدف والزجاج الملون والفيانس والفيروز والعقيق واللازورد وغير ذلك مـن الأحجار الكريمـة وشبه الكريمـة . . بالاضافـة إلى عجلات حربيـة مذهبـة وأقواس ورماح وسهـام وآلات موسيقيـة ومراوح من ريش النعـام ، بل وباقات من الزهور كانت آخر ما وضع فى المقبرة يوم الدفن .

● ويقـول المؤرخون وعلماء الآثـار المصرية الـذين درسوا هـذه المحتويـات الأثريـة وصنفوها وسجلوها تسجيلا علمياً : إذا كانت كل هذه الكنوز قد دفنت مع توت عنخ آمون وهـو ملك صغير ضئيل الشأن جداً إذا قـورن بغيره من الفراعنـة العظام . . فماذا كـان حجم الكنـوز والتحف الفنيـة الثمينـة التى دفنت مـع هؤلاء الفـراعنـة لتنـاسب عظمتهم وثراءهـم ومكانتهم فى تاريخ البلاد .

● وتقـول أحدث النظـريات فى علـم الآثـار المصرية أن تـوت عنخ آمون يعتبر ابنـاً لأخناتون أنجبه من زوجة أخرى اسمها « كيا » وكـانت وصيفة لزوجته المحبوبة نفرتيتى

التى زوجتها له لينجب منها وريثًا ذكراً للعرش بعد أن أنجبت هى ست بنات . وأطلق أخناتون على ابنـه اسم « توت عنخ أتون » ومعنـاه « الصورة الحية للإلـه أتون » . ولكن هذا الاسم تغير إلى « تـوت عنخ آمون » بعد هزيمة ديـانة التوحيد أمـام سلطات ونفوذ كهنة آمون بطيبة .



القناع الذى كان يغطى مومياء توت عنخ آمون
وهو مصنوع من الذهب الخالص ومزخرف
بالأحجار شبه الكريمة ويزن حوالى ١١ كجم .



هوارد كارتـر



لورد كارنارفون

نهاية الأسرة (١٨) .. وحكم ضباط الجيش

مـالت إلى المغيب شمـس عصر الأسرة الثامنـة عشرة التـى اعتبرها المؤرخـون أشهـر الأسرات الملكية فى تـاريخ العالم القديم والحديث ، وذلك بـانقطاع نسل آخر ملـوكها «توت عنخ آمون » من الذكور الذين يجوز لهم ارتقاء عرش مصر .

● ولهذا السبب فقد أصبح العرش ميراثاً لبعـض كبار ضباط الجيش المصرى الذين ذاعت شهرتهم العسكرية والادارية فى آخـر عصر هذه الأسرة . . فتولى العرش الضابط « آى » وهو من رجال الدولة المخضرمين وكان يتـولى منصب الوزير الأول فى عهد توت عنخ آمون وكان يتحكم من خلاله فى جميـع الانشطة الاقتصادية وثروات البلاد . . كما كان يتولى منصب « قائد سلاح المركبات الحربية » الذى يعتبر أكبر القوى الضاربة وأهم فروع الجيش المصرى .

● ويقول بعـض المؤرخين إن عهد الملك « آى » يعتبر بـداية « النظـام العسكرى فى حكم مصر » حيث تجمعت السلطات كلها فى أيدى ضباط الجيش . وقد استمر حكم الملك « آى » لفترة قصيرة بالنظر إلى كبر سنه . وتولى العرش بعده الضابط « حور محب» الذى كان يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية إلى جانب مجموعة أخرى من أعلى المناصب السياسية والادارية بالدولة .

● وفى بداية عهـد « حور محب » قام بحملة عسكـرية لتأديب الحيثيين الذين كـانوا يطمعون فى الاستيـلاء على الأقاليم السـورية التى كانـت تابعة للنفـوذ المصرى . وهزم جيشهم هزيمة منكرة ، بل وأنشأ لأسراهـم معسكراً أقيم فى منطقة قرب منف ، حيث نرى على جدران مقبرته بمنف تسجيلا لنتائج هذا الصراع الحربى الذى نشب بين مصر

ودولة الحيثيين . كما نرى نقوشاً تصور « حور محب » وهو يقوم باستعراض مجموعة كبيرة من أسرى الحرب الحيثيين .

● ولحسن حظ « حور محب » أن انتشر وباء الطاعون فى دولة الحيثيين فتجمد نشاطهم العسكرى وتقلصت أطماعهم إلى حين . وبذلك استطاع أن ينصرف إلى تنفيذ اصلاحاته الدينية والاقتصادية والادارية والقانونية التى اشتهر بها فى التاريخ المصرى القديم ، والتى حقق بها نوعاً من السلام الاجتماعى بداخل الديار المصرية بل وفى المناطق والأقاليم السورية التابعة للحكم المصرى .

● وبالنظر إلى أن حور محب كان على رأس الجيش المصرى ، فقد توسع فى منح مناصب الدولة إلى مجموعة من كبار الضابط وعينهم فى المناصب العليا ، بل وعين بعضهم فى وظائف كبار كهنة المعابد المصرية حيث أصبحوا يسيطرون على ممتلكات تلك المعابد التى كانت تعتبر ركنا أساسياً فى اقتصاديات الدولة .

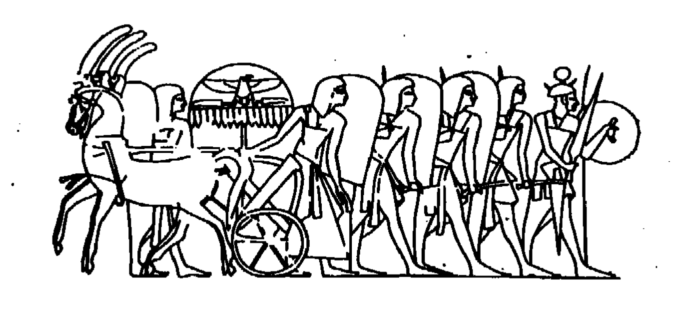
● غير أن بعض هؤلاء الضباط قد اساءوا استخدام سلطاتهم فى المناصب العليا التى تقلدوها ، لذلك فقد أصدر حور محب قانوناً جنائياً يتكون من عشر مواد يفرض فيه عقوبات شديدة ومغلظة على كل من يسىء استخدام سلطته من العسكريين أو من المدنيين . كما أصدر مجموعة أخرى من المراسيم والأوامر الملكية تتضمن وضع نظام صارم لعملية توزيع السلع والاحتياجات على جميع فئات الشعب .

● ومن أهم مواد هذا القانون المواد التى تقرر حماية الطبقة العاملة والفلاحين من أى اضطهاد أو سخرة أو سوء معاملة ، ومعنى ذلك أن هذه الطبقة تعرضت لتجاوزات ومخالفات وسوء استخدام للسلطة من جانب كبار ضباط الجيش وكبار الموظفين المدنيين الذين عينهم حور محب فى المناصب العليا بالدولة .

● ومن الطريف أن نذكر هنا أن جميع مواد هذا القانون ومقدمته كانت مكتوبة بلغة مبسطة أقرب ما تكون إلى اللغة العامية حتى يتعرف عليها كل البسطاء . وهو أمر كان نادر الحدوث فى النصوص الرسمية للقوانين والمراسيم المصرية .

● واستمر حكم حور محب حوالى عشرين عاماً . وكان حكمه هو الأرض الصلبة

التى تمت عليها كل الانجازات الحضـارية من اقتصادية وعسكريـة ودينية التى تميز بها «عصر الرعـامسة » الـذى بدأ حين اختـار حور محب خليفـة له فى حكم البـلاد اسمه «بارعمسيس » وهو ضـابط كبير كان يشغل منصب « قائد سـلاح الفرسان » ومنصب الوزير . . وهو الذى تولى عرش مصر بعد موت حور محب ، والذى سمى نفسه باسم « رمسيس الأول » وبدأ فى عهده عصر جديد هو عصر الأسرة التاسعة عشرة .



الأسرة (١٩) .. وعودة الروح العسكرية

اصطلح المؤرخون على اطلاق اسم « الدولة الحديثة » على الحقبة التاريخية التى حكمت مصر فيها الأسرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ . . أى من سنة ١٥٧٠ إلى سنة ١٠٨٧ ق م . . وهى فترة استمرت نحو خمسة قرون ، ويحلو لبعض المؤرخين أن يطلقوا عليها اسم « عصر الامبراطورية المصرية » .

● وقد عرضنا فيما سبق الطفرات الحضارية التى وصلت إليها مصر فى عصر الأسرة (١٨) التى انتهت بحكم ضباط الجيش وبداية عصر جديد يسمى « عصر الرعامسة » وهو العصر الذى بدأ ببداية الأسرة (١٩) . وهى أسرة ملكية عظيمة خرج كل ملوكها من صفوف الجيش المصرى ليعيدوا أمجاد الامبراطورية المصرية إلى ما كانت عليه أيام العز القديمة فى الأسرة (١٨) .

● اختار «حور محب » ـ آخر ملوك الأسرة (١٨) ـ ضابطا كبيراً اسمه « بارعمسيس» ليخلفه على عرش مصر . وكان هذا الضابط من أسرة عسكرية عمل معظم أفرادها فى خدمة الجيش المصرى . . وشغل عدة مناصب عسكرية وإدارية عليا فى عهد حورمحب منها : قائد سلاح الفرسان . . ونائب الملك فى إدارة البلاد . . وحامى الحدود الشمالية الشرقية . . وقائد حاميات مصبات فروع النيل . . ووزير الوجه البحرى والوجه القبلى . . والمشرف على كهنة جميع الآلهة . . ورئيس القضاة المشرف الأعلى على قاعات العدل العظيمة .

● وبطبيعة الحال فإن توليه كل هذه المناصب جعله أهلاً لاختياره خلفاً لحور محب الذى لم ينجب وريثا للعرش ، فتولى ملك مصر مؤسساً لأسرة ملكية جديدة هى الأسرة (١٩) وأطلق على نفسه إسم « رمسيس الأول » أسوة برائد العسكرية المصرية « أحمس

الأول » الذى أسس الأسرة (١٨) قبله بنحو ٢٥٠ سنة .

● وبالنظر إلى انه كان طاعناً فى السن حين تولى العرش ، فقد أشرك ابنه الضابط «سيتى » فى حكم البلاد ، وقلده منصب قائد الجيش ، فعملا معاً على « عسكرة الدولة » وأشاعا الروح العسكرية ، ووضعا الأسس الراسخة لبداية عصر جديد فى تاريخ مصر العسكرى والسياسى والدينى ، وهو عصر يتميز بالرخاء الاقتصادى والإصلاح الإدارى والنهضة الفنية والمعمارية فى طول البلاد وعرضها .

● وبالرغم من أن عهد « رمسيس الأول » لم يستمر أكثر من عامين ، إلا انه أعاد فكرة « ماعت » كدستور ونظام لحكم البلاد . . وتعتبر « ماعت » لدى قدماء المصريين بصفة عامة أساساً حضارياً للعدالة والصدق والحق ، والالتزام الاخلاقى الصارم بالمثل العليا ، والالتزام بتأدية الواجب دون تقصير وعلى أكمل وجه . وهى دستور غير مكتوب ولكنه كان فخراً للملوك والحكام الذين يضعون صالح الدولة وصالح الشعب فوق كل اعتبار .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن « رمسيس الأول » قد أرسل حملات عسكرية إلى النوبة و إلى مناطق فلسطين بقيادة ابنه « سيتى » . كما أعاد فتح مناجم الفيروز والنحاس فى سيناء . وقد تم العثور على بعض الآثار التى ترجع إلى عهده فى مناطق سرابيت الخادم بسيناء ، والقنطرة بشرق الدلتا ، وتل اليهودية وميت رهينة والمرج ، وأبيدوس [العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج حالياً] ، بالاضافة إلى تكثيف العمل فى قاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك .

● وينتمى رمسيس الأول إلى أسرة « بحراوية » من الدلتا . . ومع ذلك فقد اتخذ «طيبة / الأقصر » عاصمة رسمية ودينية باعتبارها مركز عبادة الإله آمون وكهنته الذين كانوا السند الحقيقى لحكم ملوك هذه الأسرة ، وذلك بالرغم من أن هؤلاء الملوك قد تطلعوا إلى بناء عاصمة إدارية وعسكرية جديدة بشرق الدلتا لتكون قريبة من طموحاتهم وفتوحاتهم العسكرية فى آسيا .

* * *

الضابط العظيم .. سيتى الأول

عظيم لأنـه اقتـدى بملك عظيم وجعلـه مثلـه الأعلى . . ولم يكن غـريباً على هـذا الضـابط الطمـوح أن يتطلع الى الفتـوحـات التى نفـذهـا « تحوتمس الثـالث » عبقـرى العسكريـة المصرية فى التاريخ القديم والـذى مد النفوذ المصرى فى آسيا وأفـريقيا شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً ، وأسس امبراطورية مصرية واسعة الأرجاء هادفاً إلى نشر الحضارة المصرية ومحققا الأمان والرخاء للشعب المصرى .

● هو « سيتى الأول » ابن رمسيـس الأول ووالد رمسيس الثانى الـذى يعتبر واحداً من أمجد وأعظم الملوك الذين حكموا مصر فى التاريخ القديم والتاريخ الحديث على حد سواء .

● كانت الامبراطورية التى شيدها تحوتمس قد تعرضت للتفكك والانفصال فى عهد أخناتون الذى لم يكن ميالاً بطبعه إلى الحروب والتـوسعات العسكرية . وحدثت ثورات وقلاقل فى الأقاليم السورية واستقلت بعض هذه الأقاليم عن الحكم المصرى ، وبقيت أقاليم أخرى تحت الحماية المصرية خوفاً مـن بعض الدول الوليدة التى ظهرت فى المناطق الشمالية والشرقية من الأقـاليم السورية ، وخصوصاً دولـة « الحيثيين » أو دولة « خيتا » باللغة المصرية القديمة . . فقد بدأ ملوك هذه الدولة فى التطلع إلى الاستيلاء على أقاليم سوريا وفلسطين وكـافة الأقاليم الآسيويـة الأخرى التى كانت داخلة فى منـاطق النفوذ السياسى المصرى وتحت حماية الجيوش المصرية .

● لذلك فقد كان همه الأول هو تأمين الحدود الشرقية والغربية للبلاد ، وتأديب بدو الصحـراء الذين ظنـوا أن مصر قد ضعفـت واستكانت فقـامـوا ببعض أعمال السلب



سيتى الأول فى كامل تيجانه وصولجانه

يتلقى مباركة إلهة الوجة البحرى وإلهة الوجه القبلى .

والإغارة على الحقول لسرقة المحاصيل والمواشى والأغنام . أما همه الأكبر فقد كان إيقاف أطماع الحيثيين فى المناطق السورية والقضاء على المؤامرات التى كانوا يدبرونها ضد النفوذ المصرى بتحريض أمراء وحكام هذه المناطق لإثارة القلاقل ضد مصر وملكها .

● وعلى الجدران الخارجية لقاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك ترك لنا سيتى الأول مجموعة جميلة ومتقنة من النقوش التى تصور ثلاثاً من حملاته العسكرية التى قادها ضد البدو فى شمال سيناء وجنوب فلسطين ، وضد البدو الليبيين فى الغرب ، وضد مواقع الحيثيين التى احتلوها أو أثاروا فيها القلاقل فى المناطق السورية . ويقول علماء الآثار إن هذه النقوش تعتبر من أقدم مناظر المواقع الحربية التى خلفها لنا الفنانون المصريون القدماء . وكان من الواضح أن هذه الحملات الحربية الثلاث قد وقعت خلال الشهور الأولى من حكمه .

● تفرغ سيتى الأول بعد ذلك لتجييش جيش قوى جهزه بأعداد غفيرة من الضباط و الجنود المدربين ، وبكميات هائلة من الأسلحة والخيول والعربات الحربية ، وبث فى هذا الجيش روحاً عالية وقدرة قتالية فائقة و إصراراً على النصر فى أية موقعة .

● ولأن سيتى الأول كان ضابطا محارباً و يعرف الكيفية المثلى لادارة الجيوش وتجهيزها بما تحتاجه من إمداد وتموين بالاضافة إلى وضع النظم والقواعد لشئون الأفراد وحسن معاملة الضباط والجنود وحصولهم على حقوقهم المشروعة ، فقد ترك لنا آثاراً مكتوبة تدل على انه كان مهتما غاية الاهتمام براحة جنوده وضباطه والوفاء بحاجياتهم الحيوية والمعيشية والاهتمام بأسرهم وعائلاتهم . ولذلك فقد كان يزود الجميع بمخصصات من اللحم والأسماك والمواشى الحية والخضراوات والفواكه والخبز والزيتون والزيت الحلو وأثواب الكتان التى كانت تصرف لهم شهرياً .

● ولهذا فلم يكن غريباً أن هذه النهضة العسكرية المتجددة كانت أهم خطوة لإعادة الامبراطورية المصرية لحدودها السابقة . وهذا ماتم فى عهده وعهد ابنه رمسيس الثانى .

الامبراطورية المصرية .. تستعيد شبابها

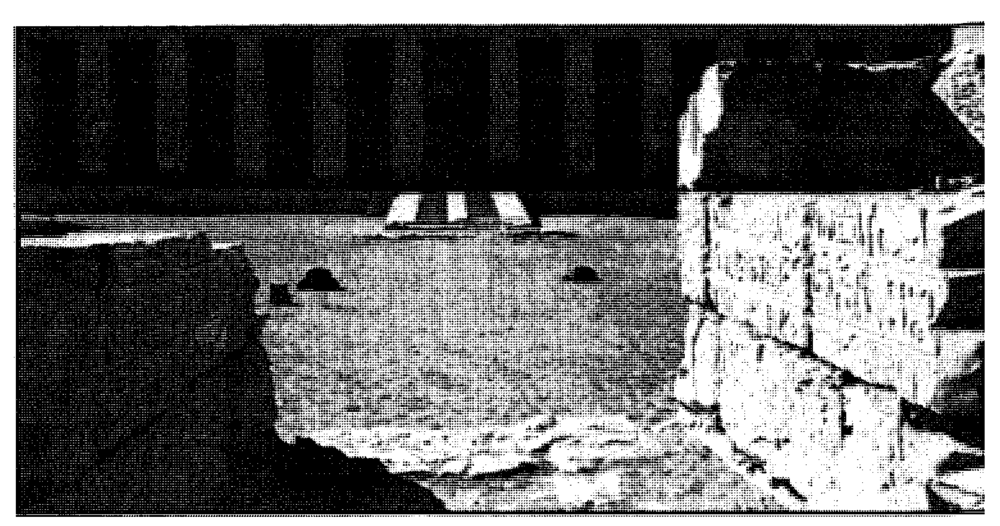
بعد أن أعاد الضابط العظيم « سيتى الأول » بناء القوات المسلحة البرية والبحرية ، قام بعمل فذ من أعمال الاستراتيجية العسكرية المصرية .

● أعاد السلطة والسيطرة على جميع الموانى الواقعة فى السواحل الشرقية للبحر المتوسط [فى فلسطين واسرائيل ـ الحالية ـ ولبنان وسوريا] . . وجعل هذه الموانى قواعد حربية بحرية لتموين وإمداد الجيش بالجنود والعتاد ، ولينطلق منها إلى داخل الأراضى والأقاليم السورية ليعيد إلى مصر امبراطوريتها الواسعة التى كانت ممتدة إلى نهر الفرات.

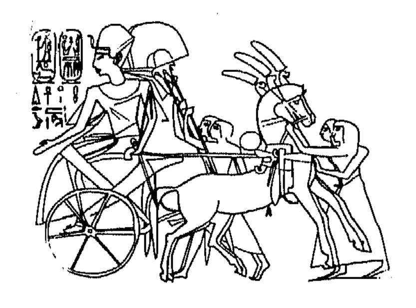
● وتكملة لهذا الطريق البحرى دعم « سيتى الأول » الطريق البرى الذى كان يربط شرق الدلتا بمدينة رفح بفلسطين خلال صحراء شمال سيناء ، وهو الطريق الحربى الذى أطلق عليه قدماء المصريين اسم « طريق حورس العظيم » . . وحتى يصبح هذا الطريق ملائما لمرور الجيش المصرى إلى الشرق وإلى الشمال ، أنشأ عدداً كبيراً من القلاع والحصون العسكرية ، كما حفر عدداً هائلا من الآبار اللازمة لتموين الجيش ذهاباً وإياباً .

● وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن « سيتى الأول » شن حرباً على الحيثيين انتهت بعقد « معاهدة صلح » مع ملكهم « مواتالو » اعترف الحيثيون فيها بالنفوذ المصرى على الأقاليم السورية .

● وتدل هذه الشواهد أيضاً على أن « سيتى الأول » قد أقام العدالة وسيادة القانون فى ربوع الأراضى المصرية ، وقام بتوفير الجو الملائم لازدهار الصناعات والفنون المصرية حتى بلغت أعلى مستوياتها فى عهده وعهد ابنه رمسيس الثانى من بعده .



معبد أبيدوس { بالعرابة المدفونة ـ محافظة سوهاج }



رمسيس الأكبر .. سيد العالم !

ليست هذه الصفة مبالغة من عندى فى تمجيد « رمسيس الثانى » بل كانت هذه الصفة هى المفضلة لدى هذا الملك العظيم الذى كان مزهواً بنفسه بعد أن تميز عهده الذى استمر (٦٧) عاماً قضاها فى حكم مصر قائماً بالأعمال المجيدة الضخمة التى رفعت مكانته ومكانة بلده إلى أنصع صفحات التاريخ .

● وحتى نتعرف على كيفية اعتزازه بذاته ، فلنقرأ تلك الكلمات المدونة بالهيروجليفية على مسلته العظيمة المنصوبة حالياً فى ميدان الكونكورد بقلب باريس والتى تقول : «رمسيس . . قاهر كل الشعوب الأجنبية . . السيد على كل من لبس تاجاً . . المحارب الذى هزم الملايين من الخصوم والأعداء . . والذى خضع العالم كله لسلطانه ، معترفاً بقوته التى لا تقهر ! » .

● ومن التعليقات الطريفة التى ذكرها « وليم ماكويتى » مؤلف كتاب « رمسيس الأكبر سيد العالم » لبيان مدى شموخ هذا الملك القائد العظيم الذى أعاد مجد الامبراطورية المصرية ، أن باريس نفسها لو كانت موجودة على أيامه لكان بالقطع قد فتحها وضمها إلى امبراطوريته فى آسيا وافريقيا ، ولكان من المؤكد انه سيقيم مسلة عظيمة تسجل هذا الفتح ، ربما فى نفس المكان الذى توجد فيه مسلته الآن فى ميدان الكونكورد .

● تمرس رمسيس الثانى فى الحياة العسكرية منذ صباه ، فقد عينه والده ـ سيتى الأول ــ ضابطا فى الجيش المصرى عندما بلغ سن العاشرة . . وقضى فترات الفتوة والشباب مشتركا بشكل فعال فى حكم البلاد ، فاكتسب خبرات سياسية وعسكرية ومعمارية رائعة أهلته لأن يتبوأ المكانة العظمى التى عرف بها كملك عظيم شجاع فى تاريخ العالم القديم بأسره ، بل وأذاعت صيته وشهرته حتى اليوم ، ومن المؤكد انه سيظل محتفظاً بتلك الشهرة العظيمة فى عالم المستقبل .

● وعلى أحد جدران معبد أبيدوس ـ العرابة المدفونـة بمحافظة سوهاج حاليا ـ نص يقول رمسيس فيه : « إن الإله عظمنى وبـاركنى منذ أن كنت طفلا إلى أن وليت الحكم . . لقد أعطـانى الحق فى إقـامة العـدل على الأرض . . واختارنى والـدى لوراثـة حكم الـوجهين القبلى والبحرى . . وأمـر بتعيينى قـائداً على قـوات المشـاة وقوات الفـرسـان . . وأمر بتتـويجى أثناء حياتـه ليشركنى معه فى الحكم وقـال عنى : توجوه كما لـو كان ملكا . . وضعوا على رأسه التاج الأكبر . . أريد أن أشاهد جماله وبهاءه وأنا حى ! » .

● وبعد موت والده انفرد رمسيس الثانى بحكم البلاد ، وكان ذلك فى عام ١٢٩٠ ق م . وخـلال فترة حكمه الطـويلة ، قـاد عدة حملات عسكـريـة ناجحـة أعاد فيهـا الامبراطوريـة المصرية إلى حدودها السـابقة التى وصلت إليها فى عهـد المحارب العظيم تحوتمس الثالـث ، بل وأضاف إليهـا مساحـات أخرى شمالاً وجنـوباً ، فشملت بـلاد النوبة بأكملها ممتدة حتى الشلال « الجندل » الرابع . . كما شملت كل أراضى فلسطين ـ واسرائيل الحالية ـ والأردن ولبنان وسوريا وشمال العراق حتى جنوب شرق تركيا .

● كان « الحيثيون » فى ذلـك الوقت هم القوة الوحيـدة التى تسبب المتاعب لمصر ، فقد كونوا دولـة وليدة كانت لم تزل فى عنفوانها وتشعر بمدى قـوتها ، ولذلك فقد جرؤوا على عقـد تحالفات مـع بعض حكام الأقـاليم السـوريـة التابعـة للنفـوذ المصرى ، بل وأوردت المخابـرات الحربية التابعـة للجيش المصرى أخباراً تفيـد أن ملك الحيثيين يعد جيشاً جراراً للهجوم على مصر .

● وسارع رمسيس الثانى بتجهيز الجيوش المصرية وإعدادها للحرب ، واتنظمت له أربعة جيـوش « فيالق » أطلق على كل منها اسم إلـه من الآلهة المصرية القديمـة « آمون . . رع . . بتـاح . . ست » . وكان تعـداد هـذه الجيوش الأربعـة (١٨) ألف محارب منهم (٨) آلاف من حملة الرماح والسهام و(٥٠٠) عربة حربية تسع كل منها اثنين من المحاربين بالإضافة إلى (٩) آلاف من المشاة .

● وعسكـرت هذه الجيـوش المصرية بـالقـرب من مدينـة « قـادش » التى تقع على ضفاف نهر العاصى جنـوب مدينة حمص الحالية انتظاراً للدخـول فى المعركة مع جيش



رمسيس الثانى وهو يسحق اعداءه

من الحيثيين فى موقعة قادش

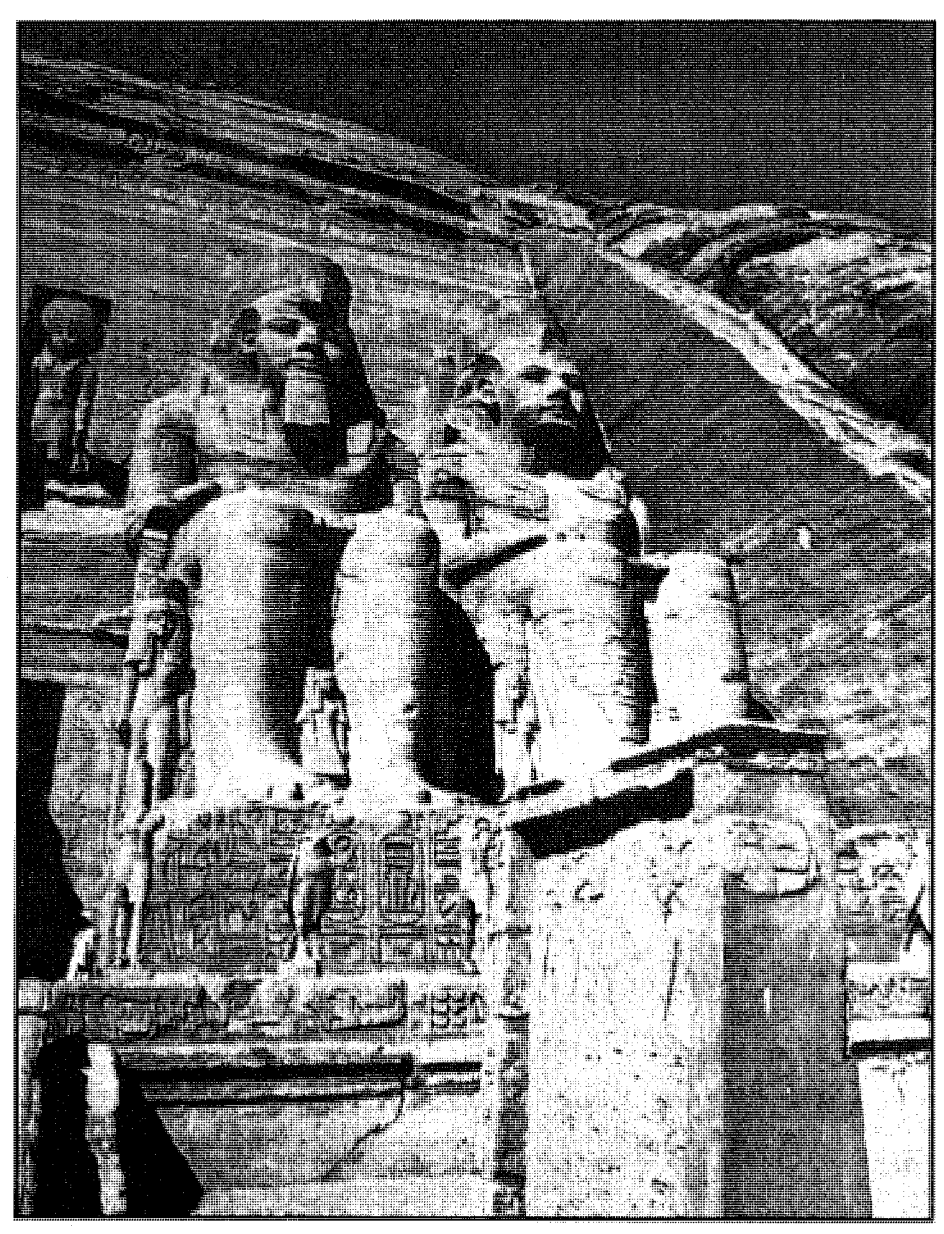
● وبعد إجراء المفاوضات العسكرية والسياسية ، دونت نصوص المعاهدة التى تم الاتفاق عليها فى برديات ولوحات فضية ، كما نقشت نصوصها على جدران معابد الرمسيوم والكرنك و إلفنتين . كما دونت نسخة منها بالخط المسمارى وباللغة البابلية التى فضلتها دولة الحيثيين لتكون لغة أجنبية .

● ولحسن الحظ فقد اكتشف عالم الآثار « هوجو فنكلر » هذه النسخة بين آثار مدينة « بوغازكوى » التى كانت موقعاً لعاصمة الحيثيين فى ذلك الزمن . . وتمت ترجمة هذه النسخة لمقارنتها بترجمة النسخ المصرية لتلك المعاهدة، وهى الترجمة التى عكف عليها كثير من علماء التاريخ والآثار المصرية ومن أشهرهم شامبليون وبرستيد وجاردنر.

● ويقول برستيد إن تاريخ إبرام هذه المعاهدة يرجع إلى عام ١٢٧١ ق م [أى منذ أكثر من ٣٢ قرناً] . ويقول أيضا : إن صياغة هذه المعاهدة لا تختلف كثيراً عن صياغة المعاهدات الدولية فى العصر الحديث شكلا ومضمونا . . وإن الانسان يقف مبهوراً أمام الدقة المتناهية التى صيغت بها نصوص المعاهدة وبنودها واللغة الدبلوماسية الرفيعة التى عبرت عن شروطها .

● وتتضمن المعاهدة : مقدمة إيضاحية تشمل التعريف بكل من الطرفين المتعاقدين وهما رمسيس الثانى والملك خاتوسيل ، وألقاب كل منهما ونسبه أباً وأجداداً، ومقر كل منهما ، وذكر طلب الصلح الذى أبداه الحيثيون ، وكيفية تجديد المعاهدة . . ثم تأتى بعد ذلك ديباجة تنص على رغبة الطرفين فى إستئناف العلاقات الودية القديمة بين الدولتين . . ثم تتوالى بعد ذلك بنود المعاهدة التى تنص على شروط إقرار السلام ، وإقرار مبدأ الدفاع المشترك بين الدولتين .

● كما تنص المعاهدة أيضا على إجراءات تسليم المذنبين السياسيين والمجرمين العاديين . . وعلى التزام أولاد ملك الحيثيين وأولاد أولاده بأن يكونوا فى حالة صلح دائم مع أولاد رمسيس الثانى وأولاد أولاده . . وأن الآلهة المصرية والآلهة الحيثية شهود على هذه المعاهدة وتبارك طرفيها وستنزل اللعنة على من ينقضها .



تمثالان لرمسيس الثانى من التماثيل الأربعة

التى تتصدر واجهة معبد « أبو سمبل »

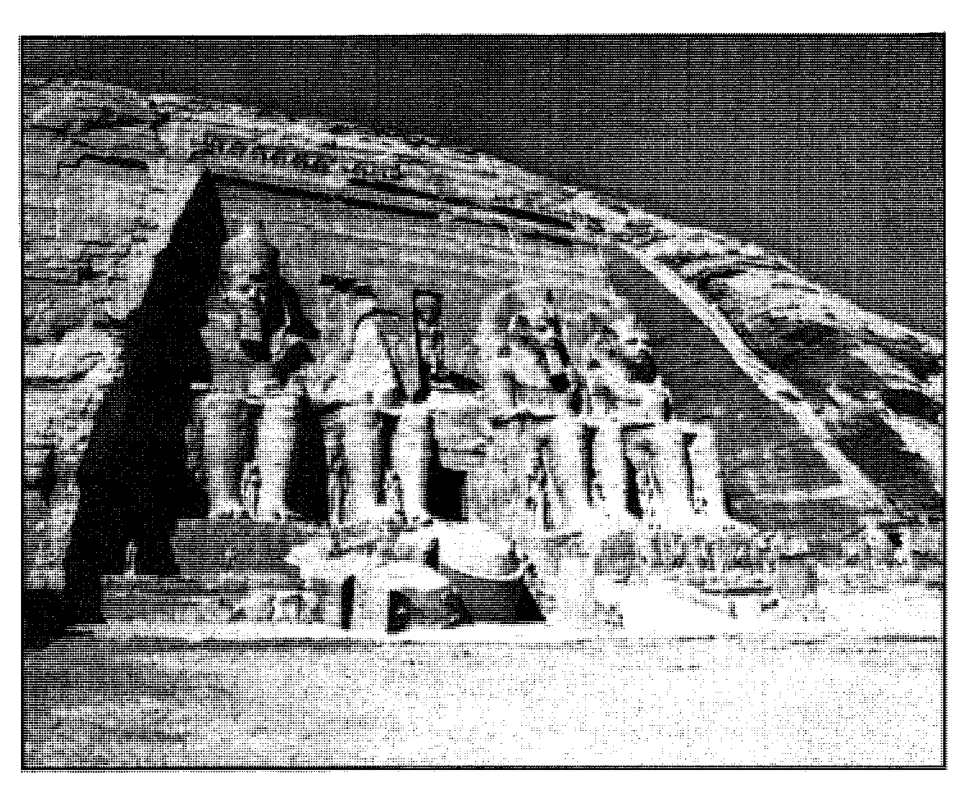
سيد البنائين .. وازدهار الفنون والآداب

يحلو لكثير من المؤرخين وعلماء الآثار المصرية أن يطلقوا على رمسيس الثانى لقب «سيد البنائين» وذلك تقديرا منهم للإنشاءات المعمارية الضخمة ومبانى المعابد العظيمة الكبرى والتماثيل والمسلات واللوحات التذكارية التى شيدها فى جميع المدن والأقاليم المصرية ، والتى تتميز كلها بطابع « الضخامة والعظمة والأبهة » ، والتى ما زالت آثارها حتى الآن تثير إعجاب ودهشة المشاهدين والسائحين .

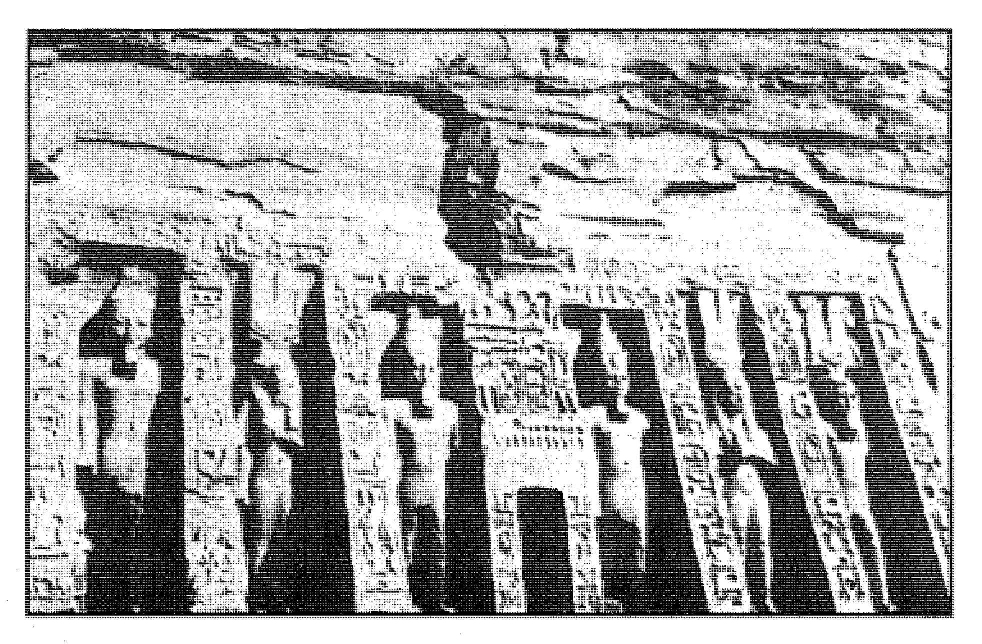
● ومن العسير أن يتم حصر جميع هذه الآثار المجيدة التى شيدها رمسيس الثانى فى طول البلاد وعرضها ، إلا أننا نستطيع أن نشير إلى أهم تلك الآثار فى مناطق سيناء وشرق وغرب الدلتا بالقرب من مناطق القنطرة والسويس والمنصورة والسنبلاوين وميت غمر وزفتى ودمنهور والدلنجات وبنها ومسطرد وبهتيم وهليوبوليس ومنشية الصدر والقاهرة والجيزة وميت رهينة . . وفى محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج والأقصر وأسوان .

● وفى منطقة غرب الأقصر شيد رمسيس الثانى مقبرته الفخمة فى وادى الملوك . . ومعبد الرمسيوم العظيم الذى اعتبره الإغريق القدماء من عجائب الدنيا . . كما قام بتوسيع معبد الأقصر وأقام فيه قاعة للأعمدة العظيمة ، وأنشأ له بوابة ضخمة ذات برجين هائلين صور عليهما جميع وقائع معركة قادش بكافة تفاصيلها الحربية الدقيقة . وأقام لنفسه ستة من التماثيل الضخمة ومسلتين ضخمتين من الجرانيت الوردى ، انتقلت إحداهما إلى ميدان الكونكورد بباريس ، وما زالت الثانية فى مكانها بالمعبد .

● وفى عهده تم بناء وتشييد وزخرفة قاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك . . وتتكون هذه القاعة من ١٣٤ عموداً ضخماً . . وتدل النقوش والكتابات المدونة بتلك القاعة



معبد أبو سمبل وتماثيل رمسيس الثانى
الشاهقة تتصدر الواجهة .



واجهة معبد نفرتارى المجاور لمعبد أبو سمبل الكبير .

على انها من إنشـاء رمسيس الثـانى . . ولكن معظم المؤرخين وعلماء الآثـار يقولـون أن ذلك مخالف للحقيقة . . فمن المعروف أن أول من بدأ بناء هذه الأعمدة هو «حورمحب» آخر ملوك الأسرة ١٨ ، ثم واصل بناءهـا من بعده رمسيس الأول ، ثم ابنه سيتى الأول . . وفى عهد رمسيس الثانى كانت قاعة الأعمدة شبه كاملة ، وما كان عليه إلا أن يزيل الأتربة والركام ، وينقش الأعمدة والجدران بالزخارف والكتابات .

● وفى بلاد النوبة جنـوب أسوان حرص رمسيس الثانى على بناء مجموعـة من المعابد الرائعـة وكلها منحـوتة فى قلب الصخـر . . وأهمها معبـد بيت الوالى . . ومعبـد جرف حسين . . ومعبد السبوعة . . ومعبد محراب فـرس . . ومعبد الدر . . ومعبد سرة . . ومعبد نباتا . . أمـا أهم وأضخم وأفخم تلك المعابد النوبية جميعـاً فهو معبد أبو سمبل العظيم وبجواره معبد حتحور الذى أهداه إلى زوجته الجميلة نفرتارى .

● أما أهم الانشاءات المعمارية التى شيدها رمسيس الثـانى فهو بناء عاصمة إدارية عسكرية جديدة لمصر ، وهى مدينة بر رعمسيس [أى بيت رمسيس] بشرق الدلتا .

●وقد أتـاحت له معاهـدة الصلح التى عقدها مع الحيثيين أن يتفـرغ للاشراف على تلك الحركـة المعماريـة العظيمة التى شملـت البلاد كلهـا . . وأن يتفـرغ أيضا لإجـراء الإصلاحـات الإدارية والسياسيـة التى جعلت عصره يتميز بـانه أوسع انفتاح شهـدته مصر القديمة على العـالم الخارجى ، فقد نشطت الحركة التجاريـة والسياحية بين مصر وكريت . . كما أصبـح المصريون مولعين بـالسياحة إلى الخارج وتعلم اللغـات الأجنبية . . وأخذ الكثيرون يحشرون بعـض الكلمات الأجنبية فى أحاديثهـم العادية كـدليل على قدراتهم الثقافية .

● وفى عهـده أيضا ازدهـرت الحركة الأدبيـة والفنية حيـث انتشرت كتابـة القصص والمسرحيات والحكم والأمثال والأشعار والأغانى الغزلية . . كما ازدهرت صناعة الآلات الموسيقية المصريـة التقليدية والآلات الأجنبيـة الوافدة مـن البلاد الأخرى . . أمـا فنون النحت والتصوير فقد بلغت فى عهده أعلى درجة من الجمال والإتقان .

رمسيس الثانى .. والخديوى توفيق

فى اليوم التاسع عشر من الشهر الأول من فصل آخيت [الفيضان] فى السنة السابعة والستين من عهده المجيد ، صعدت الروح وغادرت جسد رمسيس الأكبر سيد العالم .

● هكذا أرخ قدماء المصريين موعد وفاة هذا الملك العظيم . . وقام كبار علماء المصريات بتحديد هذا التاريخ على وجه التقريب فى يوم يوافق ويعادل ١٢ يوليو ١٢٢٤ قبل الميلاد .

● وتشير النصوص القديمة إلى أن الوفاة حدثت فى مدينة « بر رمسيس » التى أنشأها فى منطقة شرق الدلتا كعاصمه إدارية وعسكرية جديدة لمصر . . ورحلت المومياء بعد تحنيطها فى موكب رهيب من السفن النيلية التى تحمل المشيعين من الكهنة وكبار رجال الدولة حتى وصلت إلى طيبة / الأقصر ، وعبرت البر الغربى لتدفن فى مقبرته الرائعة المنحوتة فى بطن الجبل بوادى الملوك .

● وإذا وضعنا فى الاعتبار كنوز الذهب وآلاف القطع الأثرية التى يتكون منها الأثاث الجنائزى الذى عثر عليه فى المقبرة الصغيرة التى دفن فيها توت عنخ آمون ـ وهو ملك ضئيل الشأن جدا إذا قورن برمسيس الثانى ـ فيمكننا أن نتخيل عظمة الكنوز التى كان يتكون منها الأثاث الجنائزى الذى دفن فى تلك المقبرة الضخمة التى دفن فيها رمسيس .

● ولكن بعد أقل من قرن ونصف قرن من دفن رمسيس الثانى فى مقبرته الفخمة بوادى الملوك تعرضت مصر لحالة من الفوضى السياسية والاجتماعية بسبب ضعف حكامها ، وانتشر فساد رجال الحكم وأصحاب المناصب العليا فى الدولة ، وتعرضت مقابر وادى الملوك التى دفن فيها الملوك العظام من الأسرتين ١٨ ، ١٩ إلى عمليات

السلب والنهب التى كانت تتم تحت إشراف كبار المسئولين من حراس تلك الجبانة الملكية [حاميها حراميها] . . وقد تم العثور على برديات تؤكد لنا حدوث عمليات النهب التى تعرضت لها تلك المقابر ، والتحقيقات القانونية التى أجريت مع عصابات اللصوص ومحاكمتهم وعقابهم على تلك الجرائم الشنيعة التى ارتكبتها تلك العصابات .

● وبالنظر إلى استمرار عمليات السلب والنهب ، فقد قام ملوك الأسرة (٢١) [حوالى عام ١٠٩٠ ق م] بتجميع مومياوات الملوك الذين تعرضت مقابرهم للسرقة ، وأعادوا دفنها فى مقبرتى أمنحوتب الثانى وسيتى الأول بوادى الملوك .

● وبعد نحو ١٢٠ سنة أخرى أعيد دفن مومياوات الملوك العظام مرة ثالثة فى مقبرة جماعية سرية تقع خلف معبد حتشبسوت بالدير البحرى والتى سميت فيها بعد باسم «خبيئة الدير البحرى » والتى اكتشفتها وأوشكت على نهبها أسرة عبد الرسول فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى أن قامت مصلحة الآثار المصرية بانقاذ مومياوات الملوك ونقلتها إلى القاهرة .

● وفى أثناء سير هذا الموكب الملكى الرهيب فى المسافة ما بين غرب الأقصر ومدينة قفط عبر الشعب المصرى عن إجلاله وتعظيمه لهؤلاء الملوك العظام الذين ماتوا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، فقد اتشحت النساء الصعيديات بالسواد وأطلقن الصراخ والنحيب والولولة ، وأهلن التراب على رؤوسهن ، تماماً مثلها كانت تفعل النائحات النادبات من المصريات القديمات كما تبدو صورهن المنقوشة على جدرا المقابر الأثرية . أما الرجال فقد أخذهم الصمت الحزين والوجوم ، وأطلق كبارهم البنادق فى الهواء تحية وتقديراً و إجلالاً .

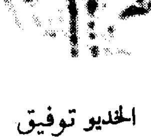
● وقد عن للخديو توفيق أن يشاهد مومياء رمسيس الثانى بعد أن شرح له المؤرخون وعلماء الآثار الأجانب تاريخ هذا الملك العظيم . . فأمر الخديو بفك أكفان المومياء ليرى رمسيس وجهاً لوجه . وفى الساعة التاسعة صباح أول يونيو ١٨٨٦ ، حضر الخديو هذه العملية . ويقول عالم الآثار « ماسبيرو » : ما أن ظهرت ملامح وجه

رمسيس ومعالمه الجسدية حتى اندفع الخديو ومن كان معه من معيته السنية من كبار رجال الدولة مثل القطيع ليروا هذه الشخصية الرفيعة عن قرب ، وتزاحموا حول المومياء فوقعت المومياء على الأرض .

● وما أعظم المفارقة فى تلك اللحظة من تاريخ مصر ، حيث يقف إثنان من حكامها وجهاً لوجه . . حاكم حديث ينتمى لأسرة ملكية أجنبية عن مصر واستعان بالانجليز لتثبيت عرشه فكان رمزاً للخيانة . . وحاكم مات منذ أكثر من ٣٢ قرنًا ، أسس امبراطورية مصرية واسعة الأرجاء ، وكان رمزاً للحضارة المصرية التى بهرت العالم القديم كله .



رمسيس الثانى



الخديو توفيق

هكذا يحترمون حضارتنا !

منذ أن رفعت شرائط ولفـائف الكتان التى كانت تلف موميـا ء رمسيس الثانى لأول مرة أمام الخديو توفيق عام ١٨٨٦ ، تعرضت المومياء للرطوبة والعوامل الجوية بكل ما فيها من ملـوثات . وبعد أن ظلت المومياء محفوظـة بأمان لأكثر من ثـلاثة آلاف سنة ، بدأت تتأثر بعدد من الأمراض أخذت تظهر تباعاً على مدى ٩٠ سنة حتى تقرر علاجها عام ١٩٧٦ .

● وكـانت صاحبـة الـدعوة إلى عـلاج موميـاء رمسيس الثـانى من تلك الأمـراض والفطريات التى كان من الممكن أن تؤدى إلى تحلل المومياء نهائياً خلال سنوات قليلة ، الاستـاذة الكبيرة « كـرستين ديروش نـوبلكـور » المفتشـة العـامة الفخـريـة للمتـاحف الفرنسية ، والتى تعتبر من أكبر علماء الإجيبتولوجى [علم المصريات] فى فرنسا .

● قامت هذه الاستـاذة الكبيرة بالاتصالات المبدئية مع الجهـات الطبية والفنية التى ستقوم بعـلاج المومياء بأحدث الأجهـزة وطبقا لأدق الأبحـاث العلمية ، لوضع قـواعد واجراءات فحص الموميـاء وتحديد العنايـة القصوى عنـد نقلها خلال رحلتى الـذهاب والعـودة . . ثم قامت بـاجـراء الاتصالات الـرسمية مع الجهـات الحكوميـة الفرنسيـة والمصرية للمـوافقة على خـروج المومياء مـن مصر ودخولها إلى فـرنسا . . وقـد تمت هذه الموافقة باتفاق بين الرئيسين المصرى والفرنسى .

● وتحرر لـرمسيس الثـانى جواز سفـر دبلـومـاسـى . . وفى صباح يـوم ٢٦ سبتمبر ١٩٧٦ خرجت المومياء من المتحف المصرى بميدان التحرير ، واخترقت شارع رمسيس [المسمى بـاسمه] والمؤدى إلى مطـار القاهـرة الجوى ، حيث كانت فى انتظـارها طـائرة «ترانزال » خاصة تابعة لسلاح الجو الفرنسى .

● وصدرت أوامـر الخبراء الفرنسيين للطائرة بأن تحلـق خلال رحلتها إلى فـرنسا على

ارتفاع منخفض وبسرعة خفيفة ، وذلك كاحتياطات لسلامة المومياء . . وقبل أن تغادر الطائرة الأجواء المصرية ، حلقت فوق الأهرام ليمر رمسيس بالقمم الشامخة التى شيدها أسلافه من ملوك مصر الذين حكموها فى عصر يسبق عصره بنحو ١٣٥٠ سنة .

● ووصلت الطائرة إلى مطار قاعدة بورجيه العسكرية بباريس ، حيث استقبلت المومياء طبقا لقواعد البروتوكول الدبلوماسى الفرنسى الخاصة باستقبال الملوك العظام على الأرض الفرنسية ، حيث أطلقت المدافع واصطف حرس الشرف على جانبى الممر الذى تمر فيه المومياء والمفروش بالسجاجيد الحمراء ، وكانوا يرتدون أبهى حللهم العسكرية لتقديم تحية الشرف طبقا لقواعد البروتوكول ، بينما كانت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف لحن المارش الجنائزى .

● وكان على رأس المستقبلين الرسميين الاستاذة « سونييه سايتييه » مندوبة عن رئيس الجمهورية الفرنسية والمشرفة على « متحف الإنسان » الذى ستتم فيه معالجة المومياء ، بالاضافة إلى سفير مصر فى فرنسا .

● وتهادت المومياء فى موكب رهيب وهى مغطاة بغطاء مخملى أزرق اللون ومطرز بتشكيلات مذهبة لزهور اللوتس المصرية . وقد صمم هذا الغطاء خصيصا فى الأتيلييه الملحق بمتحف اللوفر .

● وفى الطريق إلى متحف الانسان التابع للمتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى بفرنسا ، دارت السيارة التى تقل مومياء رمسيس الثانى حول مسلته التى تحمل اسمه والمنصوبة بميدان الكونكورد فى قلب باريس . وهى المسلة التى أهداها محمد على لفرنسا تقديراً لجهود « جان فرانسوا شامبليون » فى حل ألغاز الكتابة الهيروجليفية .

● وبعد سبعة شهور وأربعة عشر يوماً ، انتهت عمليات علاج المومياء ، وتم توديعها بمثل ما استقبلت من مراسم الحفاوة والتكريم ، ونقلتها طائرة ترانزال أخرى تابعة لسلاح الجو الفرنسى ، ووصلت إلى القاهرة مساء يوم ١٠ مايو ١٩٧٧ .

كيف عالجوا رمسيس فى باريس .. ؟ !

فى عام ١٩٨٥ ، اشتركت وزارة العلاقات الخارجية الفرنسية ووزارة الثقافة الفرنسية ومتحف الانسان التابع للمتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى بباريس فى إصدار كتاب مرجعى يقع فى ٥٦٠ صفحة من القطع الكبير بعنوان : LA MOMIE DE RAMSES - 2 [مومياء رمسيس الثانى ـ مساهمة عملية فى الإجيبتولوجى] .

● ويتضمن هذا الكتاب جميع التقارير العلمية التى كتبها نحو ٥٠ عالماً متخصصا فى مجالات الطب والذرة والهندسة والكيمياء والآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم . . وهم العلماء الذين اشتركوا بتخصصاتهم العلمية الدقيقة فى فحص مومياء رمسيس الثانى وعلاجها بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا من أجهزة وطبقا لأحدث ما وصلت إليه بحوث التشخيص الطبى وعلوم الأحياء .

● وقد ثار فى مصر جدل عقيم حين قال بعض رجال هيئة الآثار المصرية أن « مركز بحوث الآثار » التابع للهيئة قادر بحكم تخصصه على دراسة العوامل التى تؤثر على سلامة الآثار وخاصة الاصابات الحشرية والفطرية وطرق الوقاية منها وأشاع آخرون أن الصهيونية العالمية وراء فكرة فحص مومياء رمسيس وعلاجها فى فرنسا بغرض التأكد مما إذا كان رمسيس الثانى هو فرعون موسى الذى أخرج بنى اسرائيل وطردهم من مصر أم لا .

● ولكن رجالاً آخرين من الهيئة كانوا أوسع فهماً وأكثر تقديراً للأمور وضعوا فكرة انقاذ مومياء رمسيس من التحلل فوق كل اعتبار ، وكانت ثقتهم بالعلماء الفرنسيين كبيرة ، خصوصاً وأن عمليات فحص وعلاج المومياء كانت تتم فى جهات تشرف عليها

الحكومة الفرنسية وتحت رعاية بعض الوزراء الفرنسيين تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه بين الرئيسين المصرى والفرنسى .

● وطبقا لما ورد فى فصول الكتاب المرجعى الذى أشرنا إليه يمكننا أن نلخص جميع عمليات الفحص والعلاج والترميم التى أجريت للمومياء فى فرنسا على النحو التالى :

● فحص شامل لحالة التدهور التى لحقت بالمومياء ، ودراسة بكتريولوجية للفطريات والميكروبات والحشرات الدقيقة التى أوشكت على تدمير المومياء .

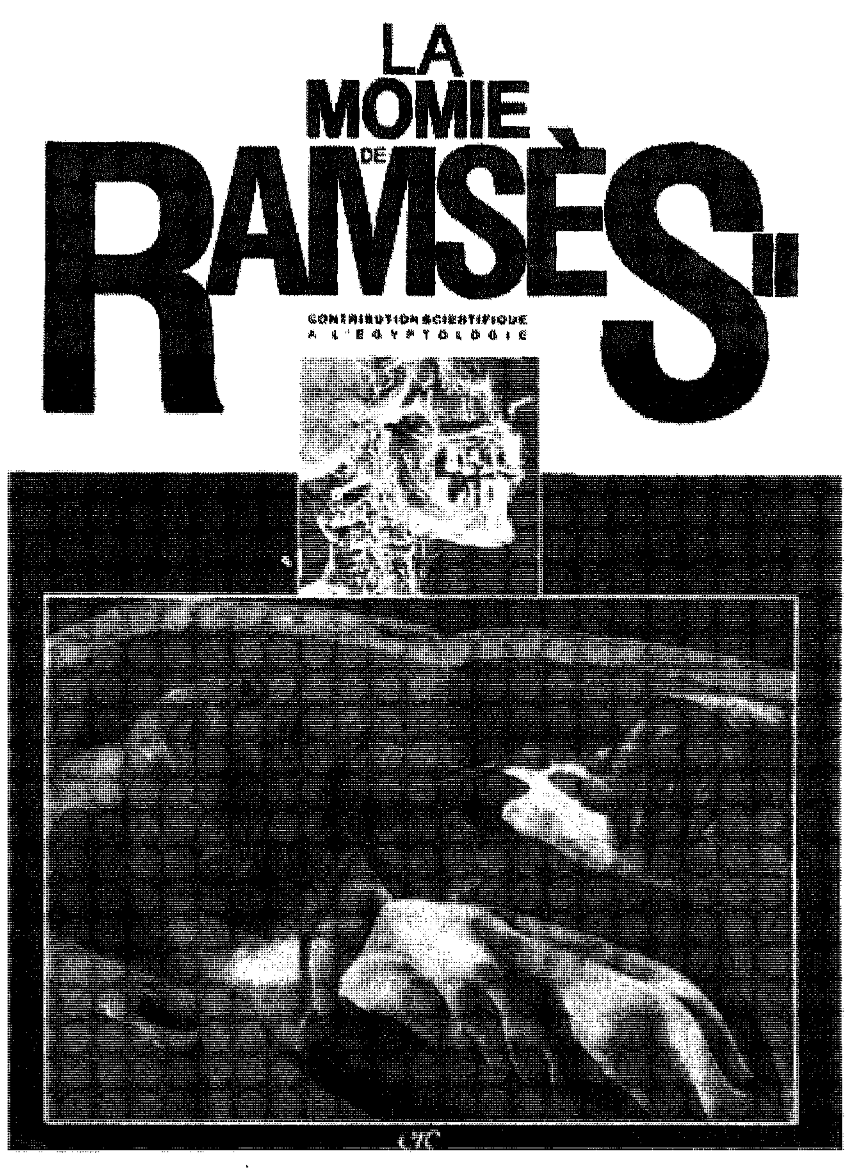
● دراسات عن المواد النباتية المستخدمة فى لفائف الأكفان والتى استخدمها قدماء المصريين عند تحنيط رمسيس بعد موته . ومن الطريف أن نذكر هنا أن عالم الآثار «ماسبيرو » وصف هذه الأكفان بأنها مصنوعة من قماش الكتان الرقيق الذى يشبه الموسلين الهندى الشفاف فى طراوته ونعومة ملمسه . . ومن الطريف أيضا أن فحص وتحليل المواد النباتية بأدق الأجهزة العلمية الحديثة أثبت وجود بقايا بنات « النيكوسيانا» المعادل للنيكوتين فى داخل التجويف البطنى للمومياء ، وهو أمر أثار دهشة العلماء .

● تمت دراسة مستفيضة بالمجهر الإلكترونى وبالأشعة السينية وبأشعة الليزر وبمطياف الكتلة وبالتنشيط النيترونى لجميع خواص شعر رأس رمسيس وحواجبه ورموشه وذقنه لتحديد الوسائل العلاجية لانقاذ هذا الشعر من التحلل . وقد وصف شعر رمسيس بأنه مموج وذو لون أبيض محمر يميل إلى الصفرة [من أثر الحناء التى استخدمت عند التحنيط] .

● وأجريت البحوث التكنيكية لتحديد عمر المومياء وأعمار جميع المكونات والعناصر النباتية والخشبية الملحقة بالمومياء وتابوتها وذلك باستخدام الكربون ١٤ المشع .

●واعتمد علاج المومياء بصفة أساسية على التعقيم الإشعاعى باستخدام أشعة «جاما » من مصدر « كوبالت ٦٠ » لتخليص المومياء من جميع أنواع البكتريا والفطريات . وقد أجريت هذه العمليات فى « معمل مؤسسة الطاقة الذرية » فى جرينوبل التى تقع بالقرب من باريس .

● ويذكر الكتاب فى النهاية أن علاج رمسيس الثانى فى فرنسا تم كما لو كان شخصية عالمية هامة جدا على قيد الحياة . . كما أمرت السلطات الفرنسية بتصميم ميدالية تخليداً لذكرى زيارة رمسيس لباريس .



غلاف الكتاب الضخم الذى صدر فى فرنسا

عن كيفية علاج مومياء رمسيس الثانى .

أول مرة يذكر فيها اسم إسرائيل فى مصر

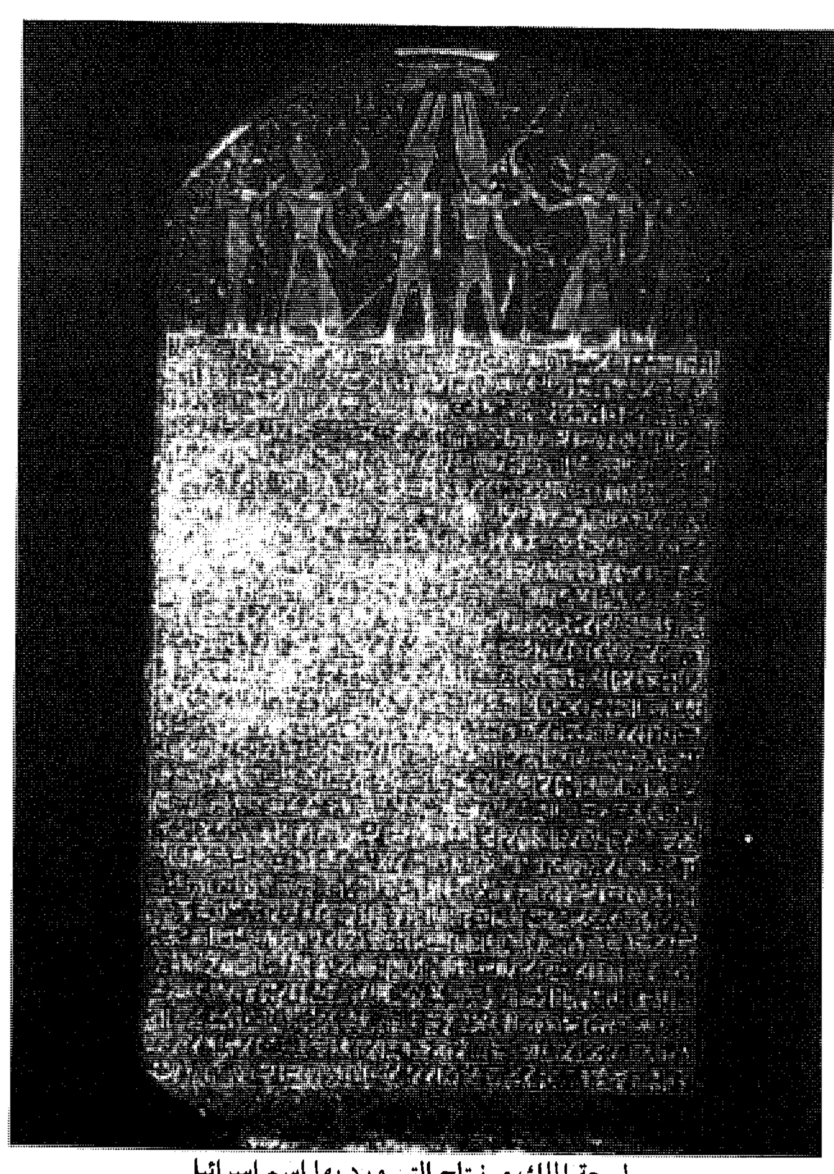
كان المصريون القدماء يطلقون اسم « شاسو » على البدو الرعاة الذين كانوا يعيشون فى المناطق الآسيوية الصحراوية بشمال شرق البلاد ، وعلى الأخص البدو الذين يعيشون فى شمال شبه الجزيرة العربية ومناطق جنوب فلسطين .

● وبالنظر إلى المستوى الحضارى الرفيع الذى كانت تتميز به مصر فى العالم القديم كله ، فقد كان المصريون القدماء ينظرون إلى هؤلاء البدو الرعاة باعتبارهم شعوبا غير متحضرة وقبائل من الهمج الذين لا يخضعون لقانون أو نظام سوى النظام القبلى البدائى الذى كان يتحكم فى سلوكيات أفراد تلك القبائل كما يتحكم فى عمليات التناحر والتفاخر الأجوف وأعمال السلب والنهب والسطو والاقتتال بين القبائل المتجاورة للسيطرة على المراعى العشبية وآبار المياه التى كانت نادرة فى تلك المناطق .

● ومن بين قبائل « الشاسو » هذه قبيلة « اسرائيل » التى وفدت من الشرق واستوطنت إقليم « إفريم » الجبلى ، وهو إقليم منعزل لم يسكنه من قبل إلا نفر قليل . ولم تتميز قبيلة اسرائيل عن غيرها من تلك القبائل البدوية البدائية الهمجية إلا بقدراتها على السلب والنهب وسرقة القبائل المجاورة لها والاختباء بغنائمها فى المنطقة الجبلية الوعرة التى كانت تسكنها .

● أما القبائل البدوية الأخرى ، فقد ورد ذكرها فى الوثائق المصرية القديمة بأنهم كانوا مجموعات من عصابات اللصوص وقطاع الطرق يعرفون المسالك الصحراوية والجبليه الوعرة التى يكمنون فيها متربصين بكل من يمر لممارسة السرقة والسطو والقتل إلى جانب عملهم الرئيسى فى رعى ما يملكونه من ماعز وأغنام .

● وقد اعتادت هذه القبائل أن تغير على المزارع والقرى المصرية الواقعة على أطراف



لوحة الملك مرنبتاح التى ورد بها اسم اسرائيل لأول مرة فى الآثار المصرية .. ويقول أحد نصوصها : « لقد خربت اسرائيل وقطعت بذرتها » .

شرق الدلتا لتسطو على المحاصيل الزراعية والحيوانات والدواجن التى يملكها الفلاحون المصريون ، ثم يفرون هاربين إلى مخابئهم فى دروب الصحراء . ولذلك فقد كانت من مفاخر الفراعنة أن يذكروا العمليات الحربية التأديبية التى قاموا بها ضد هذه القبائل من قطاع الطرق واللصوص لتأديبهم ولمنع أذاهم عن مصر . وعلى سبل المثال هناك كثير من المناظر التى تصور رمسيس الثانى وهو يطأ بقدميه رؤوس رؤساء قبائل « الشاسو» . كما يذكر تاريخ العديد من ملوك الأسرتين ١٩ ، ٢٠ الحملات التى قام بها هؤلاء الملوك ضد هذه القبائل فى المواقع التى كانوا يعيشون فيها .

● ومع ذلك فهناك الكثير من الشواهد الأثرية المصرية القديمة تدل على أن بعض تلك القبائل كانت تقوم بحركات هجرة لا تنقطع وتستوطن بعض المناطق فى تخوم الدلتا وشرق الأراضى المصرية ، وذلك بسبب فقر البيئة التى كانت تعيش فيها تلك القبائل وماكانت تعانيه من قحط وجوع . وأشهر مثال على ذلك ما قامت به قبيلة بنى اسرائيل التى استوطنت المنطقة التى يسميها التاريخ اليهودى « أرض جوشن » وتقع فى « وادى طميلات » بشرق الدلتا .

● وفى أوائل هذا القرن اكتشف عالم الآثار البريطانى « سير فلندرز بترى » لوحة تذكارية منسوبة إلى الملك « مرنبتاح » أو « منفتاح » وهو ابن رمسيس الثانى ، نقشت عليها أسماء قبائل « الشاسو » التى قام بتأديبها . وقد وردت بهذه اللوحة عبارة تقول «لقد خربت اسرائيل وقطعت بذرتها » . وتعتبر هذه اللوحة الوثيقة المصرية الوحيدة التى جاء فيها ذكر « إسرائيل »» لأول مرة فى النقوش والمدونات المصرية .

● وقام بعض المؤرخين بتفسير تلك العبارة بالقول بأن الملك « منفتاح » هو « فرعون موسى » الذى طرد بنى اسرائيل من مصر فى واقعة « الأكسودس » أو « الخروج » التى ذكرتها التوراة وكتب العهد القديم . . غير أن هذا القول لا يسنده أى سند من التاريخ المصرى القديم ، ومازال فرعون موسى غير معروف حتى الآن على وجه التحديد .

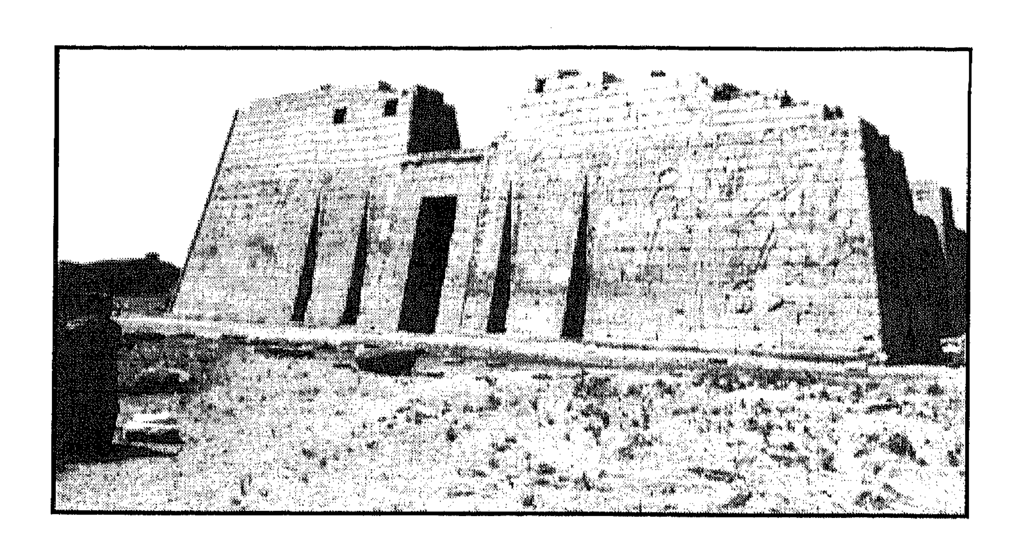
آخر الفراعنة العظام

انتهت الأسرة ١٩ بعد موت رمسيس الثانى وابنه منفتاح بمجموعة من الملوك النكرات الضعاف ، إلى أن تولى عرش مصر ملك قوى جمع بين القوة الحربية والمقدرة السياسية التى كان يتميز بها رمسيس الثانى . وأسس هذا الملك الجديد أسرة ملكية جديدة هى الأسرة ٢٠ وهى آخر الأسرات الملكية التى تكونت منها الحقبة التاريخية المعروفة باسم « الدولة الحديثة » .

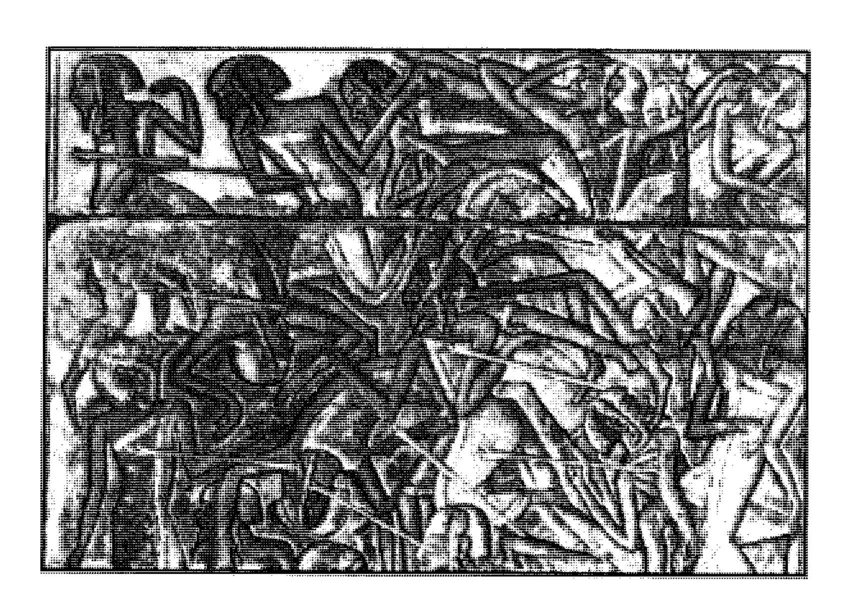
● وصلت إلينا أخبار وأعمال هذا الملك العظيم فى كتابين كبيرين : الأول منقوش على جدران معبده الجنازى الذى يعتبر أضخم بناء لملك مصرى بقى سليما وبحالة جيدة ، وهو معبد « مدينة حابو » بغرب الأقصر . والكتاب الثانى عبارة عن وثيقة سجلت أعماله الحربية والسياسية والدينية على بردية يبلغ طولها أكثر من ٤٠ متراً .

● جعل رمسيس الثالث من رمسيس الثانى مثلاً أعلى يقتدى به فى حروبه ومنشآته الدينية والمدنية . . فبمجرد اعتلائه عرش مصر ، بذل كل جهده فى إصلاح الأحوال الداخلية للبلاد والتى كانت قد وصلت إلى حالة سيئة فأصلح الأداة الحكومية ، وأعاد تنظيم الجيش وتجهيزه بالأسلحة القوية ، كما وطد أركان الأمن وزرع الطمأنينة فى صدور الشعب . وهناك نص يشير فيه الملك إلى حالة الأمن والأمان التى سادت فى عهده بقوله : « . . . أصبحت المرأة تسير فى الطرقات وحدها وهى آمنة دون أن تتعرض لأية معاكسة من شرير ! » .

● ومن شدة ولع رمسيس الثالث بسلفه العظيم رمسيس الثانى ، فقد أطلق على أبنائه نفس الأسماء التى أطلقها سلفه على أبنائه العديدين . كما أن ملوك الأسرة العشرين كلهم أطلقوا على أنفسهم اسم رمسيس بدءاً من رمسيس الثالث وانتهاء برمسيس الحادى عشر . ولذلك فقد أطلق المؤرخون اسم « عصر الرعامسة » على فترة حكم هؤلاء الملوك الذين تسموا باسم رمسيس .



مدخل معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو .



منظر من المعركة البرية التى قادها رمسيس الثالث ضد شعوب البحر .

● وتدل الشـواهد التـاريخية والأثريـة على أن رمسيس الثالث كـان « آخر الفـراعنة العظام » الـذين حكموا مصر . فقد تقلصت الامبراطـورية المصرية بعد عهـده وبدأت تفقـد سيطرتها بـالتـدريج على المنـاطق التى كـانت خـاضعـة للنفوذ المصرى فى آسيـا وأفريقيـا . بل وبدأت مصر تتعرض باستمـرار لغزوات شرسة من جـانب قبائل الليبيين وقبائل البدو القادمة مـن مناطق غرب آسيا بالاضافة إلى قبائل همجيـة أخرى قادمة من آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط خصوصاً جزيرة صقلية وجزيرة سردينيا التى تدفقت منها قبائل كاملة كان المصريون القدماء يطلقون عليهم اسم « شردانا » . ومن المحتمل أن اسم سردينيا قد اشتق من هذا الاسم المصرى القديم .

● وقد أطلق قدماء المصريين على هذه القبائل اسم « شعوب البحر » وكانت تتكون من عشرات الآلاف من المهـاجـرين المسلحين الذين جلبـوا معهم زوجـاتهم وأولادهم وحيوانـاتهم قاصـدين الوثـوب إلى مصر واقتحام أراضيهـا الحافله بالخيرات الـوفيرة من حبوب وفواكه وخضراوات وغيرها من النعم الأخرى من مختلف أنواع الطعام والشراب . ويقول المحللون أن السبب الدافع وراء تفكير جميع هذه القبائل فى غزو مصر هو معاناتهم من الجوع فى بيئاتهم الفقيرة . . ويقول بعض المؤرخين أن « شعوب البحر » ربما كانوا فى الأصل من بلاد القوقاز ثم وفدوا إلى جزر البحر المتوسط وآسيا الصغرى .

● وتجمعت هـذه القبائل كلهـا فى المنـاطق السـورية والفلسطينيـة . . ثم تـدفقت جموعهم بعد أن تسـاوت صفوفهم وبدأوا عملية تهديـد الحدود الشمالية الشرقية لمصر . وهناك فاجأهم رمسيس الثـالـث بجيشه القوى وهزمهم هزيمـة منكرة . وتصف البردية التى أشرنا إليها هذه المعركة بالقـول بأن « جلالته قد انقض عليهم كلهيب النار المنتشر فى هشيم كثيف ، وكـالطيور الـواقعة فى شبكـة الصيد . . فـدرسوا كأنهم حـزم القمح وأصبحوا هشيما كالقش ، وألقوا على الأرض مخضبين بدمائهم وكانت هزيمتهم ثقيلة لا حد لها كأن جموعهم الكثيفـة قد اجتمعت سوياً فى مكان ذبحهـا ، واقتيد كل من بقى منهم حياً أسيراً إلى مصر» .

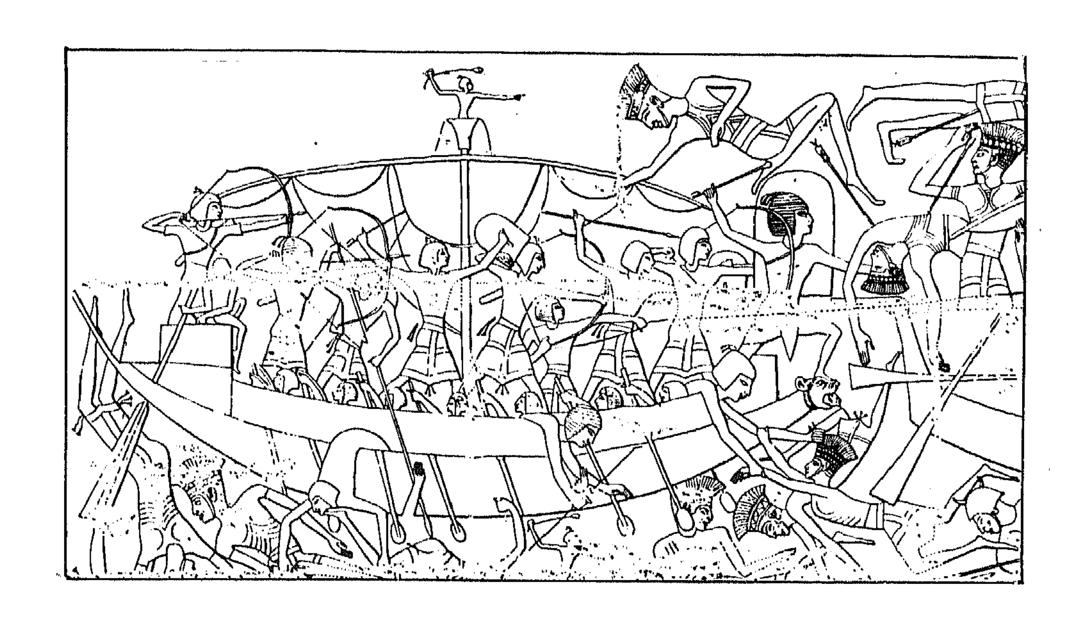
سيناريو أول معركة بحرية فى تاريخ العالم

بعد المعـركة البريـة التى انتصر فيها رمسيس الثـالث على جموع القبائل التى كـانت تسمى « شعـوب البحـر » والتى كـانت تهدد حـدود مصر الشمالية الشرقيـة ، انصرف الملك إلى معـاودة تحسين الأحـوال الـداخليـة للبـلاد . . فأنشـأ العـديد مـن المصـانع والمعامل ، وازدادت بالتالى عمليات التصدير وازدهرت تجارة مصر الخارجية .

● وفى البردية التى تضمنت الأعمال التى قام بها رمسيس الثالث وأمربتسجيلها نص بليغ يقـول : « . . . وأمر جـلالته بـاقامة العـديد مـن الحدائق والبساتين والمتنـزهات العامـة ، وبزرع الاشجار على جوانب الشـوارع » . كما واصل أعماله الانشائيـة الأخرى حيث أمـر ببناء عـدد من المعابـد الدينية فى بعـض المدن المصرية فى الـوجهين البحرى والقبلى .

● كما واصل العمل فى بنـاء معبد « مدينـة حابو » وهـو معبد فـريد فى مضماره بين المعابد المصرية القـديمة ، وكأنه كتاب مصور نقش الملك على جدرانـه صوراً وكتابات سجل فيها جميع معـاركه الحربية التى انتصر فيها ، بالاضـافة إلى مناظر عامـة للأعياد والاحتفالات الملكية التى حدثت فى عهده ، ومناظر للملك وهو يقضى ساعات فراغه فى اللهو أو الصيد ، وتقارير عما قدمه إلى الآلهة من قرابين تتضمن الأراضى التى أوقفها على المعابد وأعداد أسرى الحرب الذين قدمهم عبيداً إلى تلك المعابد .

● ويضم معبد مـدينة حابـو بين جدرانه بنـاءً للقصر الملكى الذى كـان يعيش فيه الملك مع زوجاته وأولاده ، وكـان هذا القصر موصولاً ببناء آخر يبـاشر فيه الملك أعماله الحكومية والخاصة بشئون الدولة ، بالاضـافة طبعاً إلى المعبد الجنازى الذى كان مخصصاً للممارسات الدينية .



منظر من المعركة البحرية التى خاضها
الاسطول المصرى بقيادة رمسيس الثالث
ضد شعوب البحر .

● غير أن هذه الأوضـاع المستقرة لم تستمر لفترة طـويلة ، إذ وصلت إلى المخـابرات الحربية المصرية أخبار تفيد بأن جموعاً أخرى من شعوب البحر يجهزون أنفسهم للتهديد بغـزو مصر ، وانهم ينوون استخـدام السفن للدخـول إلى البلاد عبر مصبـات النيل فى شمال شرق الدلتا . وعلى الفور أمر رمسيس الثالث باستنفار الجييش استعداداً للمعركة القادمة .

● ويقول المؤرخون أن هـذه المعركة تعتبر أول معركة بحريـة كبرى فى تاريخ العالم . وقد جاء وصف « تقـريرى » لتلك المعركة فى البردية التى يبلـغ طولها نحو ٤٠ مترا والتى أشرنا إليها سابقا . كما جاء وصفها « التصويرى » منقوشاً على جدران معبد مدينة حابو . . وهو وصف عبـارة عن « سيناريو كامل » يتضمن مجمـوعة من المناظـر تظهر فيها خمس مـن سفن شعـوب البحـر الأعـداء ، تطـاردهـا أربـع مـن السفن الحربيـة المصرية، تلقى على سفن الأعداء سهـاماً وحراباً كالمطر الغزيـر ، فيتساقط الأعداء بين قتيل وجريح ، ويسقط بعضهـم غريقاً فى ماء النيل . . كما تقـوم السفن المصرية بأسر الأعداء بعد تدمير وأسر سفنهم .

● ومن الواضح أن الفنان الـذى أشرف على تصميم مناظر تلك المعركة البحـرية قد التزم بالنـص التقريرى الذى ورد بـالبردية حيث نقرأ قول الملك : « . . . هـؤلاء الذين وصلوا إلى حدودى أفنيـت بذرتهم وقضيت على قلوبهم وأرواحهم إلى أبد الآبـدين . أما الذين جاءوا من البحر فان اللهب المشتعل [وهو الاسم الذى يصف به الملك أسطوله الحربى] كان ينتظـرهم عند مصبات النيل ، فى حين أن « سور الحراب والسهـام » قد أحاط بهم على الشاطىء وانتهى بهم الأمر بـأن أصبحوا محاصرين ومطروحين أرضاً وهم قتلى وامتعتهم سقطت فى الماء » .

● واستمر حكم رمسيس الثالث « آخر الفـراعنة العظام » نحو ٣١ سنة ، وانتهت حياته نهايه دراميـة محزنة ، نتيجة لمؤامرة نسائية دبرتها إحدى زوجـاته لكى يتولى العرش ابنه منها . وقد حوكمت تلك الزوجة هى وشركاؤها أمام هيئة قضائية من بعض الكهنة وكبار رجال الدولة .

أول إضراب عمالى فى تاريخ العالم

يبدو أن بذور التحرر الانسانى التى غرسها أخناتون بما كانت تتضمنه من القول بأن البشر وجميع المخلوقات سواء أمام الله ، قد استقرت فى وجدان الشعب المصرى بجميع طبقاته بل وبين أقل هذه الطبقات شأناً .

● ومنذ نهاية الأسرة ١٨ وتولى ملوك الأسرتين ١٩ ، ٢٠ عرش مصر [أى على مدى نحو ٣٥٠ سنة] ازدهرت طبقة الفلاحين والعمال المصريين وخففت عنها الضرائب وأعطيت الكثير من الحقوق الانسانية والضمانات الاجتماعية .

● وقد تميز عصر الدولة الحديثة كله بازدهار الصناعات المصرية كما أدى ازدهار التجارة الخارجية إلى استيراد الكثير من المصنوعات الأجنبية التى أخذت تتدفق إلى الأسواق المصرية . لذلك فقد زادت تطلعات مختلف طبقات الشعب إلى مزيد من تلك السلع والحاجيات المصرية والأجنبية ، فارتفعت الأسعار فى الأسواق ، وبدأ العمال والحرفيون يشعرون بأن الأجور التى يحصلون عليها لم تعد تناسب الجهد الذى يبذلونه ، ولم تعد تتمشى مع تكاليف المعيشة التى ارتفعت بشكل لم يسبق له مثيل فى العصور السابقة .

● لذلك كله لم يكن غريبا أن يقوم العمال بالاضراب عن العمل للمطالبة بزيادة أجورهم ورواتبهم ومخصصاتهم العينية . ويصف المؤرخون هذه الواقعة بأنها أول تسجيل تاريخى فى العالم لعملية اضراب العمال للمطالبة برفع الأجور . وقد تكرر حدوث الإضرابات العمالية فى عصر الرعامسة . ولحسن الحظ فقد تم العثور على بردية أطلق عليها المؤروخون اسم « بردية الإضراب » تصف لنا وقائع إضراب عمالى حدث فى السنة التاسعة والعشرين من حكم رمسيس الثالث .

● وقبل أن نعرف تفاصيل هذا الإضراب نشير إلى أن معظم — إن لم يكن جميع —

الملوك والفراعنة المصريين كانوا يفخرون بأنهم كانوا يعطون للعمال والفلاحين حقوقهم ، ويمنعون عنهم السخرة أو تشغيلهم دون أجر . وكانت السلطة المركزية للدولة المصرية تتبع نظام التكافل الاجتماعى العام ، وهو نظام اقتصادى يشبه كثيراً النظام الذى اصطلح علماء الاقتصاد المحدثون على تسميته باسم « النظام الاقتصادى الاشتراكى للمجتمعات الفلاحية والعمالية » . وكان هذا النظام مطبقا طوال التاريخ المصرى القديم على جميع العمال والفلاحين الذين يعملون لحساب الدولة [القطاع العام] .

● وكانت الأجور تصرف فى شكل « جراية » أو مخصصات عينية . وعلى سبيل المثال هناك نص مكتوب يتضمن أنواع الجرايات الوفيرة التى كانت تصرف بأمر رمسيس الثانى لكافة العمال الذين يعملون فى مشروعاته ، كالملابس والحبوب والخضراوات والفواكه والزيوت واللحوم والأسماك ، بل وكانت تصرف لهم أيضا حصصاً من العطور وكان من المفروض أن تكون الجراية كافية تماماً لسد حاجات العامل وأسرته التى يعولها .

● وفى أواخر عهد رمسيس الثالث أعلنت بعض فئات العمال عن سخطها الشديد بسبب ارتفاع الأسعار وقلة الجرايات لمدة شهرين متواليين ، الأمر الذى أدى إلى تجمع العمال ، وكانوا من النحاتين والحفارين وقاطعى الأحجار والبنائين وصناع الجبس والفخار والنجارين وحملة الماء [السقايين] وتظاهروا أمام معبد مدينة حابو وأعلنوا شكواهم قائلين [حسب نص بردية الاضراب] : « ليس لدينا ملابس ولا زيت ولاسمك ولاخضر . . إرسلوا للفرعون سيدنا العظيم هذه الشكوى . . وارسلوها أيضا إلى رئيسنا الوزير حتى يمدنا بما نعيش به . . إننا سنجلس هنا حتى تجاب مطالبنا » .

● ونفهم من نص البردية أن الوزير وكان اسمه « تو » قد تدخل فى الأمر وقام بتهدئة العمال وشرح لهم المتاعب الاقتصادية التى تعانيها الدولة ، ولذلك فلم يستطع الوزير أن يلبى جميع مطالبهم وأقنعهم بالرضاء وقبول نصف الحقوق التى كانوا يطالبون بها .

● وقد تكررت ظاهرة إضرابات العمال فيما بعد حتى أصبح الإضراب عن العمل سلاحاً تستعمله طبقة العمال المصريين القدماء للحصول على أجورهم المناسبة وحقوقهم المشروعة .

أول محضر تحقيق بوليسى فى تاريخ العالم

بعد موت رمسيس الثالث وحتى نهاية الأسرة العشرين بنهاية عهد رمسيس الحادى عشر ، وصلت الأحوال الداخلية للبلاد إلى حالة متدنية من السوء . . فقد أوشكت خزينة الدولة على الافلاس بعد أن أنهكتها الحروب المتواصلة طوال عصر الامبراطورية المصرية .

● وازدادت أحوال البلاد سوءاً بسبب ازدياد أعداد الجاليات الأجنبية التى استوطنت مصر ، خصوصاً من الليبيين ، سواء من القبائل المهاجرة التى قدمت عن طريق الصحراء الغربية ، أم من سلالات أسرى الحروب الذين استقروا كعبيد فى البداية ، ثم اندمجت سلالاتهم بعد ذلك فى المجتمع المصرى . وكان هؤلاء الأجانب من أكبر عوامل الفوضى التى سادت البلاد فى ذلك العصر .

● وقد أدى سوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى كثرة القلاقل والاضطرابات والإضرابات ، وإلى انتشار الجرائم بأشكالها المختلفة .

● كذلك فقد أدى ضعف الفراعنة إلى ضعف نظام الحكم فى الدولة وإلى استشراء الفساد بين الوزراء وحكام الأقاليم وكبار رجال الدولة بصفة عامة ، كما استشرى الفساد أيضا بين العمال وصغار موظفى الحكومة وانتشرت بينهم جرائم الرشوة والسرقة والاختلاس .

● بل وصل الفساد أيضاً إلى كهنة المعابد ورجال الدين ، فارتكبوا الجرائم وهم معتمدين على ما يتمتعون به من حصانة ومكانة خاصة تعفيهم من المساءلة والحساب والعقاب . وفى متحف « تورين » بردية مصرية قديمة يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ، تتضمن تقريراً عن الجرائم التى ارتكبها أحد كبار كهنة معبد جزيرة إلفنتين بأسوان من

سرقة ورشوة وانتهاك حرمة المعبد الدينى واغتصاب زوجات وبيع بعض مقتنيات المعبد التى كانت موجودة فى عهدته .

● وفى ذلك العصر أيضا انتشرت سرقة مقابر الفراعنة ومقابر النبلاء . وقام كبار اللصوص بتكوين العصابات التى تخصصت فى اقتحام هذه المقابر لنهب ما تحتويه من كنوز الذهب والفضة والتحف الثمينة . ومن الغريب أن بعض « محاضر التحقيق » التى أجريت لتلك الجرائم يمكن أن نستشف منها أن كبار موظفى الدولة كانوا يراوغون فى تأدية واجباتهم ويلفقون المحاضر المغرضة ، وذلك لأنهم كانوا ذوى مصلحة مع هذه العصابات من لصوص المقابر .

● وقد وصلت إلينا عدة برديات بعضها محفوظ حالياً فى متحف تورين وبعضها الآخر فى المتحف البريطانى . وتتضمن هذه البرديات محاضر التحقيقات التى أجريت مع بعض عصابات لصوص المقابر الملكية ، وهى محاضر تقترب كثيراً من شكل ومضمون محاضر البحث والتحقيق الجنائى التى تجريها سلطات الشرطة والنيابات العامة فى الدول الحديثة .

● وبدراسة أحد هذه المحاضر يتبين لنا أن القضية بدأت ببلاغ قدمه حاكم طيبة / الأقصر الشرقية إلى الوزير الأول يبلغه فيها بتقصير حاكم طيبة الغربية ، حيث توجد مقابر الملوك والنبلاء ، وانتشار عصابات اللصوص الذين ينهبون تلك المقابر . . فأمر الوزير على الفور بتشكيل لجنة للتحقيق فى هذا البلاغ ولمعاينة المقابر على الطبيعة .

● وقامت اللجنة باصدار أوامرها بضبط واحضار المتهمين والمشتبه فيهم والتحقيق معهم . وأجرى التحقيق مع المتهمين بعد تعذيبهم بتكتيفهم بالحبال وتقييد أرجلهم وأيديهم وضربهم بالعصى وتهديدهم بجدع أنوفهم وبتر آذانهم ووضعهم على الخازوق . . وقد اعترف بعض المتهمين باقتحام مقابر بعض الملوك والنبلاء وسرقة كل ما كانت تحتويه هذه المقابر من ذهب وفضة ومجوهرات وأحجار كريمة . . كما اعترفوا بأنهم كانوا يحرقون المقابر بعد سرقتها . وقام اللصوص بتمثيل الأدوار التى قام بـه كل منهم أثناء ارتكاب الجريمة وفى نفس موقع الجريمة .

● أليست هذه الاجراءات هى نفسها اجراءات التحقيق التى تقوم بها السلطات البوليسية وسلطات المباحث الجنائية فى معظم أنحاء العالم الحديث . . ؟! .

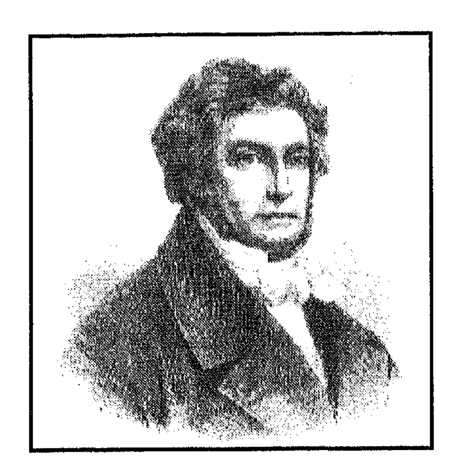
المصريون القدماء أول المشرعين فى العالم

بعد أن استطاع جـان فرانسوا شامبليـون حل رموز وألغاز الكتابـة الهيروجليفية سنة ١٨٢٢ ، أسفرت مصر القديمة عن وجههـا الحضارى العظيم ، وتكشفت مجموعة من الحقائق التاريخيةالمسجلة فى النقوش الجدارية والبرديات ، أجبرت العلماء والمؤرخين على إعادة النظـر فى الكثير من الأخطاء والأفكار والنظـريات التى كانـت سائدة فى مختلف العلوم والدراسات .

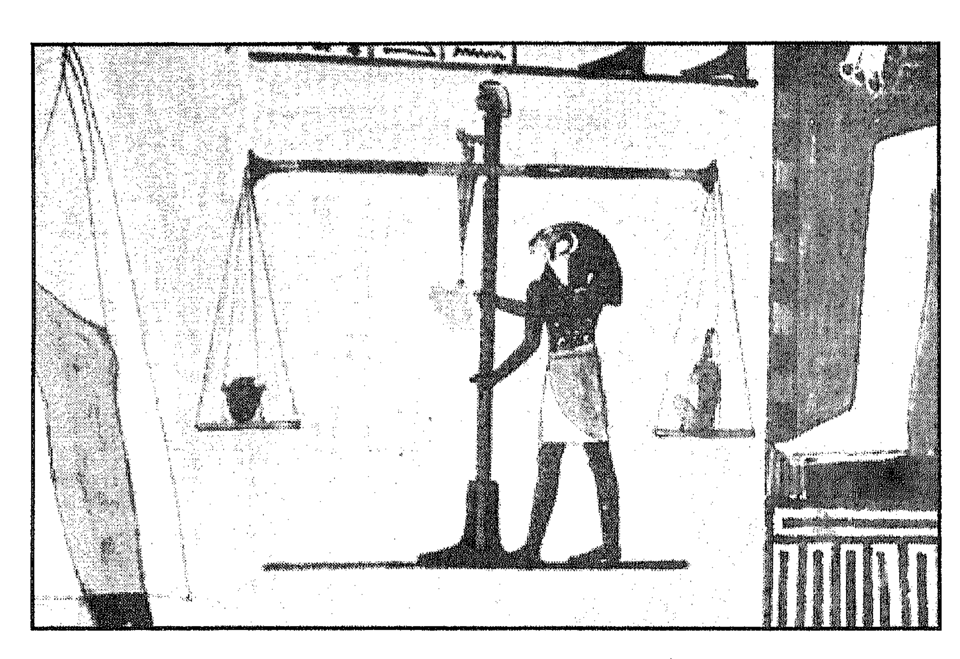
● ومن الأخطاء التى كانت سائدة فى علم « تاريخ القانون » بعض الآراء التى تقول بأن الملك البابلى حامورابى [١٧٥٠ ق م] هو أول المشرعين فى التاريخ القديم . . وآراء أخرى كـانت تقول بأن « قـوانين مانو » التى كـان ينص عليها مـذهب البراهمة فى الهند القديمة هى أقدم قوانين العـالم . . ورأى ثالث يقول إن فكرة التشريع أو وضع القوانين تـرجع إلى الخطيب المفوه والحكيـم والمشرع الإغريقى صـولون [٦٣٠ ـــ ٥٦٠ ق م] . . ورأى رابع وأخير كـان يؤكـد أن قانـون الألواح الإثنى عشر والقـانون الـرومانى بصفـة عامـةهو الأب الروحى لفكرة القـانون أو التشريع فى العالم القـديم والعالم الحديث على حد سواء .

● غير أن المؤرخين وعلماء « تاريخ القانون » المحدثين قـد أعادوا النظر فى كل هذه الأخطاء بعد أن دلت الشواهد الأثرية بصفـة قاطعة على أن المصريين القدماء كانوا أول المشرعين فى العالم القـديم كله . وذلك بعد أن ثبت من الـدراسات المقارنة أن الغـالبية العظمى من القواعـد والأحكام القانونية المقـررة التى كانت تتضمنها القوانين الـرومانية ترجع فى أصلها إلى جذور قانونية مصرية .

● وتـدل النقوش والكتـابات الأثـرية على أن الملك مينـا موحـد الوجهين البحـرى والقبلى ومنشىء الدولة المصريـة ذات الحكومة المركزية الموحـدة [عام ٣٢٠٠ ق م] هو أول من نشر القوانين المصرية المتوارثة والتى كانت عبارة عن أوامر إلهية صدرت عن الإله



جان فرانسوا شامبليون



الجميع فى الحياة الآخرة سواء . . يوزن قلب الميت لمعرفة حسناته وسيئاته .

رع والإله أوزيـريس وقـام بصياغتها الإلهه تحوت . وفى ذلـك تقول النصـوص المصرية القديمـة أن العدالـة « ماعـت » نبعت من فكر الإلـه رع الذى كـان يحكم بـالعدل ، وينصف المظلوم وصاحب الحق ، ولا يقبل هـدايا ولا رشاوى من الظالمين أو ممن يجور على حقوق الآخرين .

● ولما كان نظـام الحكم فى مصر القديمة يقـوم على أساس تطبيق فكـرة « ماعت » التى كانت ترمـز إلى الحق والخير والصدق والعدالة ، فقد كـانت القوانين المصرية التى صدرت خـلال جميع العصور التاريخيـة التى كان يتكـون منها تاريخ الحضـارة المصرية القديمـة ، تتوخى تطبيق فكرة العـدالة المطلقة والمسـاواة المطلقة أمام القـانون دون أى تمييز للأغنيـاء على الفقراء أو تميز النبلاء على أفراد الشعـب العاديين من عمال وحرفيين وفلاحين .

● وفى هذا الشأن يقـول المؤرخ القديم ديـودور الصقلى الذى كان معـاصرا لعهدى يـوليوس قيصر وأغسطـس فى أواخر القـرن الأول قبل الميـلاد مـا معنـاه أن العقوبـات والأحكام المقررة بالقوانين المصرية كانت تطبق على جميع الناس دون فرق بين من يملك الثروة أو من لا يملك شيئا على الإطلاق ، ودون تفرقة بين الأحرار والعبيد .

● وقد تـأكدت فكـرة المساواة بين المصريين فى أعقاب الثـورة الشعبية التـى قام بها المصريون ضد نظـام الحكم بعد سقوط الـدولة القديمة فى نهايـة عصر الأسرة السادسة [٢١٤٠ ق م] . . فقـد كان نظـام الحكم آنذاك يقـرر حق « الخلـود » فى العالم الآخـر للملوك وطبقة النبلاء وحدهم ، ولم يكن هذا الحق مقرراً لأفراد الشعب العاديين .

● وقد استمـرت تلك الثورة التى يعتبرها المؤرخـون أول ثورة شعبية عامـة فى تاريخ العالم أكثر من قرن كامل شهدت خلاله البلاد فوضى سياسية إلى أن بدأ عصر « الدولة الوسطى » عام ٢٠٢٢ ق م . . وخلال تلك الثورة طـالب الأفراد العاديون من الشعب المصرى بحقهم فى خلود أرواحهم فى العـالم الآخر ، وقد حصلـوا على هذا الحق وأصبح الجميع على قدم المساواة . . فى العالم الآخر أو خلال الحياة الدنيا .

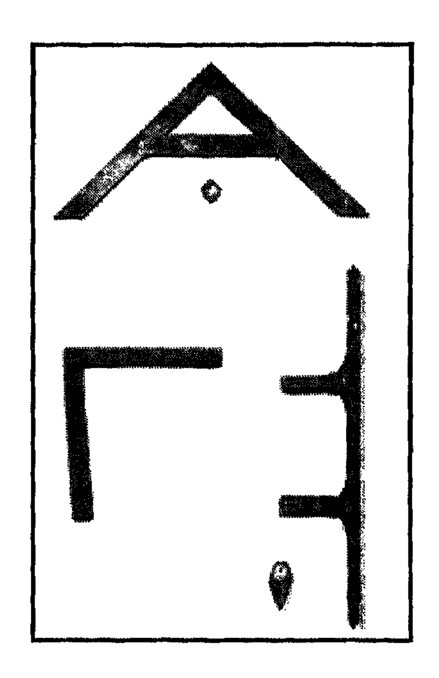
أول من عرفوا الهندسة والحساب والعلوم الرياضية

يعترف الكثيرون من العلماء والمؤرخين بأن الآثار المصرية القديمة تدل بصفة قاطعة على أن المصريين القدماء كانوا يعرفون مبادىء وقواعد الهندسة وعلم الحساب . ولكن بعض هؤلاء العلماء ــ خصوصاً فى القرن التاسع عشر ـ كانوا يعتقدون أن معارف ومعلومات قدماء المصريين كانت قائمة على التجارب والخبرات العملية والتطبيقية ، ولم تكن لديهم علوم نظرية قائمة على المنهج العلمى المعروف فى حضارتنا الحديثة .

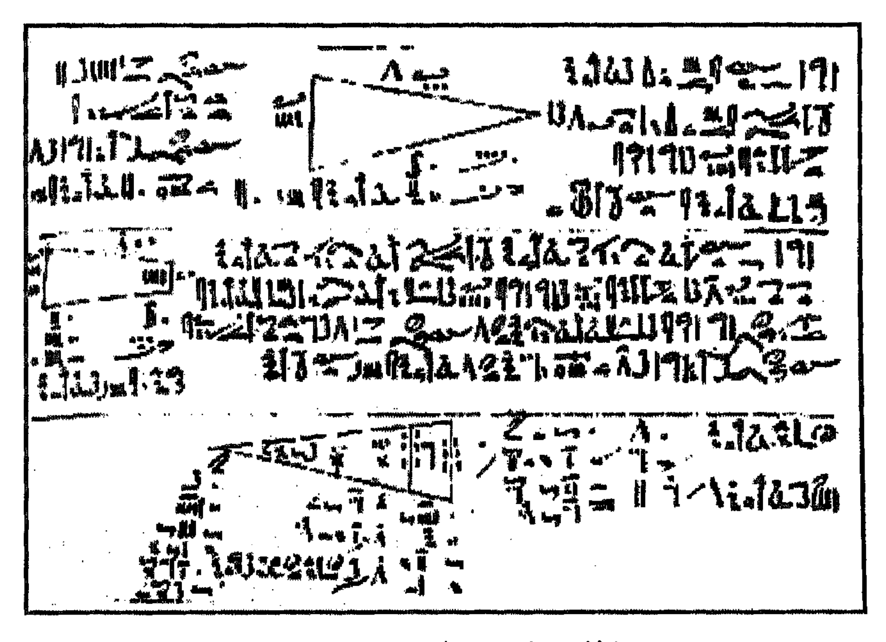
● وقد انبرى علماء ومؤرخون آخرون لدحض هذا الرأى ، أثبتوا بالأدلة والشواهد الأثرية أن المصريين القدماء كانت لديهم علوم نظرية وبحوث علمية قائمة على المنهج التجريبى ، وإن كانت تختلف عن قواعد البحث العلمى التى توصل إليها الانسان تباعاً ويطبقها الآن فى عصرنا الحديث .

● ويقول هيرودوت فى هذا الشأن : « إن المصريين يتفوقون فى العلوم على كل الشعوب الأخرى . . وانهم كانوا يلاحظون حدوث الظواهر الطبيعية ويسجلون النتائج التى تسفر عنها ، فإذا تكرر حدوث هذه الظواهر مرة أخرى كانوا يعرفون أن نتائجها ستكون مشابهة للنتائج السابقة » . . ويعتبر هذا القول فى حد ذاته تأكيداً لوجود نوع من المناهج العلمية التجريبية التى كان يطبقها المصريون فى عصورهم القديمة .

●وتعتبر براعة المصريين القدماء فى معرفة وتطبيق العلوم الرياضية نوعاً من المعجزات الحضارية التى حققها الانسان فى العالم القديم . وقد وصلت معرفة المصريين بتلك العلوم إلى ذروتها خلال عصر بناه الأهرام فى الدولة القديمة [من عام ٢٦٣٥ إلى عام ٢١٤٠ ق م] . وذلك تأسيساً على أنهم إذا لم يكونوا على معرفة مؤكدة بالقواعد والمبادىء النظرية لعلوم الحساب والهندسة لما استطاعوا إطلاقا إقامة هذه المنشآت الهندسية التى بقيت خالدة حتى الآن .



أدوات هندسية كانت تستخدم فى أعمال العمارة والبناء .



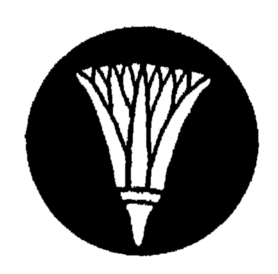
معادلات رياضية حسابية وهندسية

● وكان نهر النيـل وفيضانه السنـوى المنتظم هو المعلم الأول الـذى جعل المصريين القدماء يتفقهون فى علم الحساب . . فقد كـان لابد لهم من قياس ارتفاع المياه فى مجرى النيل ليعرفوا مستوى كل فيضان . . وعن طريق علم الحساب استطاعوا معرفة الأعداد من آحـاد وعشرات ومئات وآلاف ومـلايين . . وعرفوا قـواعد الجمـع والطرح والضرب والقسمة والكسور البسيطة والمركبة . . واستطاعوا استخدام بعض المعادلات الجبرية .

● وقد استعانوا بقواعد الحساب فى ممارسـة شئونهم الحياتية ، سواء فى الزراعة أو فى الأعمال الحكومية كعمليات فرض الضرائب وحساب جبايتها . . . الخ .

● ولولا معرفـة المصريين القدماء بالقواعـد والنظريات الهندسية لما استطـاعوا تنفيذ المشروعات العامة الكبرى التى اتسم بها عصر الدولة القديمة ، كإقامة الأهرام الشاهقة وبناء المعابـد الضخمة ونحت المقابر بـداخل بطن الجبل وإقامة الصـوامع وحفر الترع وتخطيط وإنشاء المدن .

● ولحسن الحظ فقـد تم العثور على العـديد من البرديـات والنقوش الجداريـة التى تؤكد معـرفة المصريين القدماء بكيفية تحديـد المساحات والزوايـا والمحيطات ، وتحديد مساحـة المثلثات والمربعـات والمستطيلات والـدوائر . . ويعرفـون كيفية قيـاس محيط الدائرة وعـلاقته بقطـرها . . ويعرفـون تحديد وقياس الأحجـام والتكعيبات لـلأشكال الاسطوانية والأشكال الهرمية . . كل ذلك باستخدام قـواعد ومبادىء العلوم الرياضية التى عرفوها وطبقوها قبل أن يعرفها أى شعب آخر من شعوب العالم القديم كله .



إزدراء الملوك والسخرية بالحكام فى مصر القديمة

من المعروف أن الفراعنة وملوك مصر القدماء ألَّهوا أنفسهم ليستمدوا من نظرية ادعاء الألوهية حقهم فى الملك وتوارثه فى ذرياتهم . ومن المعروف كذلك أن ملوك أوربا حتى عهد قريب كانوا يسندون حقهم فى حكم الشعوب على أساس الادعاء بأنهم ظل الله فى الأرض .

● وفى مصر القديمة كان الملوك والفراعنة منزهين عن المساءلة ، .وكانت ذواتهم مصونة لا تمس ، وكانوا محل احترام وتقديس من كافة طبقات الشعب من نبلاء وكتاب وفنانين وموظفين وعمال وحرفيين وفلاحين . وذلك الاحترام والتقديس كانا نابعين من الاعتراف بأعمالهم العظيمة الظاهرة ، وإقامتهم العدل بين الناس ، وقيادتهم للحملات العسكرية التى يؤدبون بها أعداء البلاد ، ودفاعهم عن أمن الشعب وسلامته ، ورفعهم لاسم مصر خفاقاً بين دول وشعوب العالم القديم كله .

● ومع ذلك تدل الحقائق التاريخة والأثرية على أن بعض الملوك والفراعنة الذين حكموا مصر خلال بعض فترات ضعفها كانوا لا يستحقون الاحترام ولا التقديس . . فكيف يحترم الشعب ملوكا ضعافاً إذا قارنوهم بغيرهم من الملوك والفراعنة والأقوياء العظام . . ؟ !

● وفى أواخر عصر الرعامسة [الأسرة العشرون ١١٩٦ ـ ١٠٨٠ ق م] بدءاً من عهد رمسيس الخامس حتى رمسيس الحادى عشر ، تقلصت حدود الامبراطورية المصرية ، وضاعت الأقاليم السورية التى كانت تحت النفوذ المصرى ، وظهرت دولة الأشوريين الفتية واستقلت جميع الأقاليم الآسيوية التى ظلت تحت الحكم المصرى لمئات من السنين منذ فتوحات ملوك الأسرتين ١٨ ، ١٩ .

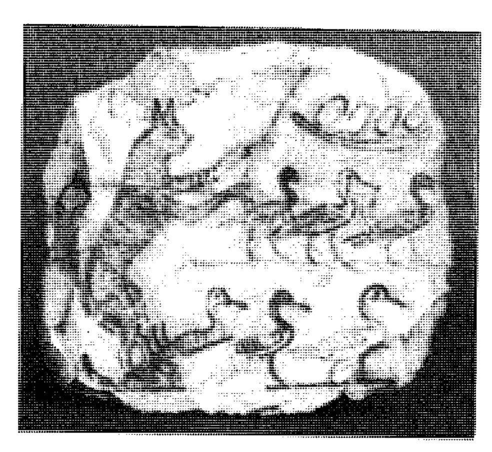
● وبالتالى فقد ضعفت سلطات الملوك والحكام ، وقلت هيبتهم فى أعين الشعب ، وساءت الأحوال الداخلية فى البلاد ، وساد عدم الاستقرار السياسى ، ونشبت صراعات وحروب أهلية ، وانتشرت عصابات اللصوص تنهب مقابر الفراعنة السابقين وما كان فيها من كنوز ، وكثرت إضرابات العمال للمطالبة بأجورهم وتحسين أحوالهم المعيشية ، ولم تعد الشرطة المصرية قادرة على السيطرة على العصابات أو قادرة على استتباب الأمن ، بل وكشفت بعض التحقيقات المدونة بالبرديات عن تواطؤ الوزراء وكبار موظفى الدولة مع بعض العصابات .

● ولما كانت الحضارة العظيمة التى حققها الشعب المصرى فى التاريخ القديم قد جعلت منه شعباً واعياً بتاريخه وذكياً لماحاً ، كما أن الخير العميم واتساع الأرزاق قد أثرا فى الحس الشعبى العام بالرفاهية والحياة السلسة الحافلة بكل مظاهر ومسببات الرضا والطمأنينة ، لذلك فقد كان الشعب المصرى بكل طبقاته حساساً ضد كل من يمس حياته الراضية المطمئنة . وكانت له « هبّات » جماعية فى شكل ثورات عنيفة فى أحيان قليلة ، كما كانت له نكاته وتعليقاته الساخرة التى يتداولها سراً فى أغلب الأحيان .

● وللأسف الشديد فلسنا نعلم شيئا عن هذه النكات أو التعليقات الساخرة لأنها اندرست وضاعت بموت قائليها وناقليها وسامعيها ، واختفت باختفاء الأسباب والمناسبات التاريخية التى كانت محل التنكيت والسخرية . ومع ذلك فقد حفظ لنا الزمن أدلة أثرية قاطعة على وجود هذا المنهج الفلسفى فى السخرية ، فقد تم العثور على بعض الأعمال الأدبية والفنية التى اتخذت من ازدراء الملوك والسخرية بالحكام موضوعات لها .

● ويتضمن الأدب المصرى القديم قصصاً وحكايات عن حيوانات تتكلم وتتصرف مثل البشر ، وترمز إلى ملوك ـ أو حكام ضعاف ، لا يقيمون العدل ويظلمون الناس ، وينافقون أعداء البلاد ويخطبون ودهم . وعلى هذا يمكن القول بأن الأدب المصرى القديم قد سبق منهج كليلة ودمنة بأكثر من ألف سنة . كما سبق «الحكايات المنظومة » التى ألفها الشاعر الفرنسى لافونتين [١٦٢١ ـ ١٦٩٥ م] ـ وهى حكايات قصيرة على لسان الحيوانات .

●أما الـرسوم الكاريكـاتيرية التى عبر بها الفنانـون المصريون القدمـاء عن ازدرائهم بالملوك الضعاف وسخريتهم بالحكام ، فهى كثيرة ولها موضوع آخر .



قط يحرس طيور البط !



البردية الكاريكاتيرية عن القطط التى تخدم فأراً .

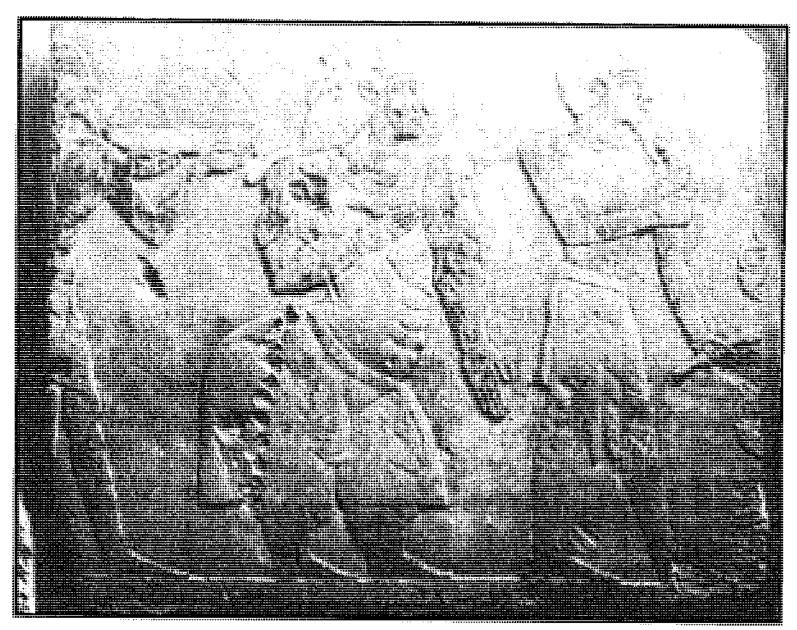
فن الكاريكاتير .. اختراع مصرى قديم

على أحد جدران معبد الدير البحرى الذى شيدته الملكة حتشبسوت حين تولت حكم مصر فى الفترة بين عامى ١٤٩٠ ـ ١٤٦٨ ق م ، نقش لمنظر طريف لفت كل الأنظار ، وهو يصور ملك وملكة بلاد بونت ، وهى البلاد التى وصلت إليها سفن الأسطول التجارى المصرى فى أول رحلة تجارية بحرية تم تسجيلها بالتفصيل فى تاريخ العالم .

● وفى تلك الصورة نرى رئيس بلاد بونت أو ملكها المدعو « برحو » ووراءه زوجته الملكة المدعوة « إيتى » وهى امرأة بدينة جدا بالغ الفنان المصرى فى تصوير ساقيها القصيرتين وفخذيها الضخمتين ورد فيها الثقيلتين وجلد بطنها المرتخى فى شكل طيات فوق طيات . ونرى فى هذا المنظر أيضا ولدين وبنتاً من أبناء ملك وملكة بونت وجميعهم ضخام الأجسام مثل أمهم . . أما التعليق الطريف الذى سجله الفنان المصرى على هذا المنظر فقد كتبه فوق حمار ونصه : « الحمار الذى كان يحمل زوجته [أى زوجة ملك بونت] » .

● ويقول الكثيرون من مؤرخى الآداب والفنون أن هذا المنظر يعتبر أول رسم كاريكاتيرى فى تاريخ العالم . وربما دفعتهم إلى هذا القول شهرة هذا المنظر المنقطع النظير ومكان وجوده فى هذا المعبد الفريد فى طرازه بين المعابد المصرية . غير أن بعض المؤرخين الآخرين يقولون ان الفنانين المصريين القدماء ابتدعوا التعبير الكاريكاتيرى فى رسوم ونقوش وتماثيل يرجع تاريخها إلى ما قبل عهد حتشبسوت بمئات السنين .

● ويستند هؤلاء المؤرخون ــ فى القول بذلك ـ إلى بعض أعمال النحت والتصوير التى ابتعد فيها الفنانون المصريون القدماء عن صرامة القواعد الفنية التى كانوا يتقيدون بها عند إبداع وتنفيذ الأعمال الفنية الخاصة بالملوك وكبار رجال الدولة والمعابد والمقابر . . ففى بعض الأحيان كان الفنان يلاحظ أن بعض النماذج التى يقوم بتصويرها ـ رسماً



كاريكاتير ملك وملكة بلاد بونت



حمار يقود سفينة .

أو نحتاً ـ خالية من الكمال الذى يجبر على رسمه أو تصويره أو نحته فى هيئته الرسمية التقليدية . . عندئذ قد تتولد بداخل الفنان روح السخرية والدعابة والتهكم ، فيستخدم الفنان هذا النقص أو موطن الضعف فى هذه النماذج فى التعبير عن تلك الروح بقدر كبير من الحرية .

● وقد تم العثور على عشرات الرسوم الكاريكاتيرية التهكمية الساخرة التى تعبر فى مضمونها الفنى عن عالم مقلوب رأساً على عقب . . ويرجع تاريخ معظم هذه الرسوم إلى أواخر عصر الرعامسة حين ضعفت سلطات ملوك مصر وحكامها واهتزت هيبتهم أمام الشعب وفنانيه . ومن المؤسف أن الغالبية العظمى من هذه الرسوم الكاريكاتيرية معروضةفى المتاحف العالمية الأجنبية ، وعلى وجه الخصوص فى المتحف البريطانى ومتحف المعهد الشرقى بجامعة شيكاجو ومتحفى بروكلين ومتروبوليتان بنيويورك .

● وفى إحدى البرديات مثلا نرى رسماً يصور أسداً يلعب الضامة [وهى لعبة مصرية قديمة شبيهة بالشطرنج] مع ظبى . . ويرى المحللون أن الفنان المصرى القديم أراد بهذا الرسم أن يصور الأوضاع المقلوبة وسخريته من الأسباب التى جعلت الأسد الذى قد يرمز إلى حاكم مصر يلعب الضامة مع ظبى من المفروض أنه فريسة سهلة لهذا الأسد . . فهل كان الأسد ضعيفاً إلى هذا الحد . . أم أن الفنان الكاريكاتيرى كان يريد أن يبلغنا بفنه أن الأمور قد تجاوزت حد المعقول إلى اللامعقول . . ؟!

● وفى رسم كاريكاتيرى آخر صور لنا الفنان قطاً واقفاً على قدميه الخلفيتين وهو يقوم بخدمة فأر [وهو حيوان معروف بالجبن] ونرى هذا الفأر جالساً على كرسى وهو يرتدى ملابس العظماء . ويقول المحللون الفنيون ان الفنان لمصرى كان يرمز بهذا الرسم إلى السخرية بالأسباب التى دفعت القط وهو الطرف الأقوى فى العلاقة بينه وبين الفأر لكى يصبح خادماً ذليلاً يعمل تحت إمرة عدوه اللدود .

● وفى رسم آخر صور لنا الفنان الكاريكاتيرى منظراً لأحد المراكب النيلية يقوم بقيادته حمار كسول . وهو رسم كاريكاتيرى واضح الدلالة على الفكرة القائلة بأن السفينة التى يقودها حمار [وهو حيوان معروف بالغباء] سيكون مصيرها الضلال والتيه والغرق فى نهاية الأمر !

الأدب المصرى .. أقدم آداب العالم

كان هناك اعتقاد راسخ لدى العلماء بأن الحضارة الإغريقية القديمة هى أم الحضارات الراقية ، إلى أن تمكن العالم الفرنسى « شامبليون » من فك رموز وأسرار الكتابة الهيروجليفية ، وأصبح من السهل معرفة كل ما كتبه لنا المصريون القدماء على جدران المعابد والمقابر والأهرام والمصاطب والمسلات واللوحات والنصب التذكارية . . وما دونوه أيضا على مئات الآلاف من أوراق البردى من علوم وفنون وآداب . . وعندئذ أعاد العلماء النظر فى مكانة الحضارة الإغريقية بين كل الحضارات القديمة والحديثة ، وأعلنوا الحقيقة التى أصبحت واضحة كالشمس ، وهى أن مصر القديمة هى أم الحضارات جميعاً .

● لقد تبين بصفة قاطعة أن المصريين القدماء هم أول من ابتدع التعبير الأدبى ، وأن مصر هى منبع الأدب والأعمال الأدبية الرفيعة المستوى ، وأن الأدب المصرى القديم أقدم من الأدب الإغريقى بما يزيد على خمسة وعشرين قرناً .

● وبالرغم من أن الأدب المصرى القديم قد نشأ وترعرع فى أحضان الدين والعقائد الدينية القديمة ، إلا انه تطور بسرعة وأصبح يتناول شئون الحياة اليومية العادية للانسان . . وتبوأت الأعمال الأدبية مكانة رفيعة فى الفكر والحضارة المصرية القديمة . . وأدرك المصريون القدماء أن الأدب غذاء للأرواح ، وإشباع للنفوس الصافية ، وطريقة مثلى للتسامى بالتعبير وعلو المعانى . . وأصبح جمال الأسلوب وطلاوته فخراً للكاتب المصرى القديم ومحلاً لتقدير ومتعة القراء .

● وتبين للعلماء أيضا أن الأدب المصرى القديم لم يترك موضوعاً للحياة الانسانية إلا وكان له فيه انتاج متميز . . وقسموا الأعمال الأدبية المصرية القديمة حسب موضوعاتها إلى أقسام وتصنيفات عدة هى باختصار شديد :

● القصص والـروايـات القصيرة والحكـايــات والحواديت الشعبيــة . . والحكم والتعاليم الأخـلاقية والتأمـلات الفلسفية . . والرسـائل الأدبية [حيث ابتـدع الكتاب المصريون القـدماء فكرة تقسيـم الرسالـة إلى : عنوان ، وصيغة افتتـاحية ، وديبـاجة ، وختام] . . والمساجلات الأدبية التى تقـوم على فكرة الحوار والنقاش بالحجج والأفكار والمواقف المتعارضة . . والمسرحيـات والأشعار الدرامية . . والأغانى والأناشيـد الدينية وأشعـار الحب والغـزل . . والتغـزل فى الطبيعـة ووصف سحـرهـا . . وأشعـار المديح لتمجيد الملوك وانتصاراتهم الحربية . . وأغانى العمال . . وأغانى الفلاحين . . وأغانى الولائم والحفلات والأفراح الشعبية .

● أمـا بالنسبـة لـلأعمال الأدبية التى تـركهـا لنا قـدمـاء المصريين فى مجال القصص والـروايات ، فقـد قسمهـا وصنفها المؤرخـون وعلماء المصريـات إلى مجمـوعات تتنـاول قصص الآلهة . . وقصص السحر والمعجزات . . وقصص المغامرات .

● وقـام العلماء والأدبـاء المحدثـون بترجمة هـذة القصص والـروايـات إلى الكثير من لغات العـالم ، وعرف الناس فى جميع أنحـاء الأرض أن الأدب المصرى القديم هـو أقدم وأجمل الآداب التى تركتها لنا الحضارات القديمة .



صورة لغلاف أحد الكتب الأجنبية التى تحتوى على مجموعة من القصص المصرية القديمة

الأدب السياسى فى مصر القديمة

لم تكن كل العصور التاريخية فى مصر القديمة عصور عظمة وقوة وعدل ، بل سجل التـاريخ المصرى القديـم بعض الفترات التى كـانت مصر تحكم فيهـا بملوك ضعـاف يسلمون زمـام الحكم للموظفين وحكام الأقـاليم ، فيطلق هؤلاء وأولئـك أيديهم لظلم العباد ، وتنتشر جرائم الرشوة وسلب الأموال ويعم الفساد .

● وفى مثل هذه العصور الرديئة ، كان الشعب المصرى يئن تحت وطأة الظلم ويشعر بالاضطهـاد الذى كـان يمارسه الحكام ضـده ، فيحدث الانفجار فى شكـل « هبّات » عنيفة يضيع فيها الأمن والأمان وتعم الفوضى فى أرجاء البلاد ، إلى أن يظهر ملك قوى جديد يقيم العدل والانصاف فيستقيم النظام .

● حينذاك لم يغفل أدباء مصر ومفكروها وحكماؤها عن تلك المظالم ، فسجلوها فى برديات عثر على الكثير منها . . وعكف علماء المصريات على ترجمة ما دّون فى تلك البرديات ، فإذا بنـا أمام مقالات أدبية رفيعة المستـوى تتضمن أوصافاً دقيقـة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى آلـت إليها الديار المصرية فى فترات حكم الملوك الضعاف الذين لم يستطيعوا إقامـة العدل بين الناس ، وفى الفترات التى كانت تتعرض فيها البلاد للسيطرة أو التوجيهات الأجنبية .

● ومن بردية محفوظة فى المتحف البريطانـى [ترجمهـا سير ألان جـاردنر] دوّن عليها مقال يمكن تصنيفه كنوع مـن الأدب السياسى ، منسوب إلى أديب مصرى قديم اسمه « خع خبر رع سنب » نقتطف بعض فقرات كتبها هذا الأديب لنرى أحوال البلاد فى الفترة التاريخيـة التى انهار فيها نظام الحكم بسقـوط عصر « الدولة الـوسطى » وبدء

تسلل الهكسوس وسيطرتهم على مصر خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد . . يقول الأديب :

● « إن العدالة قد نبذت . . والظلم أخذ مكانه فى البلاد . . وصارت البلاد فى هم ثقيل . . وعم الحزن فى كل مكان . . وصارت المدن والأقاليم فى عويل ، وكل الناس يرزحون تحت عبء الظلم . . أما الاحترام فقد انتهى أجله ولم يعد موجوداً . . وتقع المصائب كل يوم ومصائب الغد لم تأت بعد . . فكل الناس لاهون عن الغد ويعيشون فى عذاب مستديم ، والبلاد كلها فى اضطراب عظيم . . والناس تستيقظ فى صباح كل يوم لتتألم . . ومن المؤلم أن يستمر الانسان صامتاً أمام كل تلك المصائب والبلايا التى يسمعها ويراها ويعيشها » .

● ويقول الأديب الحكيم « إيب ور » فى وصف أحوال البلاد خلال عصر ردىء آخر : « إن البلاد ملأى بالعصابات . . والمجرمون أصبحوا فى كل مكان . . واللصوص أصبحوا أصحاب ثروات ضخمة . . وأصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار . . ونظام البلاد انقلب رأساً على عقب . . لقد دخلت إلى البلاد كل مملكة أجنبية . . ونزلت أقوام أغراب إلى أرض مصر . . وأصبح المصريون كالأجانب فى بلادهم . . فما العمل وكل شىء ينحدر إلى دمار ؟ ! » .

● ويواصل « إيب ور » عرض تلك الأحوال السياسية السيئة التى كان يعانى منها الشعب المصرى فى عصره فيقول بأسلوب أدبى رفيع : « لقد مات السرور ولم يعد فى الأرض سوى الأنين والعويل . . وأصبح الحزن يمشى فى طول البلاد ممزوجاً بالأسى . . لقد عمت الوقاحة بين الناس . . ولم تعد أحكام المحاكم محترمة . . بل لقد وضعت قوانين قاعة المحكمة على الأرض وصار الناس يدوسونها بالأقدام فى الطرقات ويمزقونها فى الأزقة . . فما العمل ؟! . . ليت البلاد تتخلص من كل هؤلاء الغوغائيين . . ويعود النظام والاحترام ! » .

حرية الفكر والقول فى مصر القديمة

بالرغم من صرامة نظام الحكم فى جميع العصور التاريخية التى مرت على مصر القديمة ، حيث كان الملوك يحكمون استناداً إلى الادعاء بأنهم أبناء الآلهة ، وحيث كان حكام الأقاليم وكبار رجال الدولة والموظفون يتحكمون فى مصائر الشعب والحكومة استناداً إلى التفويض الذى يمنحه الملك لهم ، فقد كان من الضرورى على هؤلاء جميعاً أن يلتزموا بأصول الحكم من عدالة وأمانة ونظام وأمن مستتب .

● ومن بين أبناء الشعب المصرى القديم كانت تنبثق طائفة الكتاب والأدباء والفلاسفة والحكماء الذين كانوا ينتمون إلى طبقة النبلاء ، أو إلى طبقة الكهان من رجال الدين ، أو إلى طبقة أبناء الشعب العاديين ، وكانوا يشكلون فى مجموعهم فئة المثقفين القادرين على التعبير عن حقوق وآمال ومشاعر الشعب المصرى القديم بكافة فئاته وطبقاته .

● وحين كان نظام الحكم يحقق العدل بين كل أبناء الشعب ، ويوفر الخيرات فى كل أرجاء البلاد فيأخذ كل فرد حقه دون ظلم أو إجحاف ، ويشعر الناس بأنهم آمنون على يومهم وغدهم . . وحين يرى الناس بأعينهم تلك المنشآت والمشروعات العظمى التى يشيدها ويديرها الملوك وكبار رجال الدولة . . عندئذ يصبح نظام الحكم محل تقدير واحترام من الجميع ، كبيرهم قبل صغيرهم ، وينبرى هؤلاء المثقفون للإشادة بالحكم وتأييده باعتباره جزءاً من تاريخ الأمة المصرية التى يفخرون بأمجادها بين كل الأمم المعاصرة .

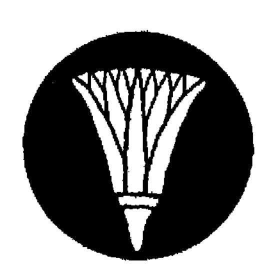
● أما عندما يسىء نظام الحكم أداء دوره المفترض ، وينحرف إلى الظلم والافتراء

مبتعداً عن العـدل والصراط المستقيم ، عندئذ ينبرى أدباء الأمـة وحكماؤها للتعبير عن إدانـة هذا النظـام ، بظلمه واستبـداده ، بكل حـرية واقتـدار . . بل وتصبح أقـوالهم كالـدستور يتـداوله الشعـب المصرى القديم جيـلاً بعد جيل . . حيـث تدل الشـواهد الأثريـة على أن أقوال هؤلاء الحكماء يتم تداولها عبر مئـات وآلاف السنين . . وينسخها تـلاميـذ المدارس كدروس لتعليمهـم أصول الحكمـة وأصـول الحكم ، وحقـوق أبنـاء الشعب التى يجب أن يحققها لهم الملوك وكل رجال الدولة من حكام وموظفين .

● ولنتصور مـدى حرية الفكـر والقول فيما كتبه أحد الحكماء مـن أبناء شعب مصر وهو يخاطب ملك البلاد الجالس على العـرش مخاطبة الند للند ويحمله كافـة المسئوليات المترتبة على المظـالم التى ضربت أطنابها فى أرجـاء البلاد بفعل ظلـم الحكام والموظفين ، وتقاعس الملك عن تحقيق العدل بين الناس .

● يقول الحكيم المصرى القـديم للملك : « إن الأمر الملكـى والمعرفة فى قبضـة يدك . . ولكن ما تصنعـه فى البلاد هـو النزاع وصوت القـلاقل . . لقد نطقت زوراً وبهتـاناً . . فهل فعلت هذا لكى تشتد علينا الأمور ؟ ! . . إن القيادة والفطنة والصدق معك ، ولكنك لا تنتفع بها . . فـالفوضى ضـاربة أطنـابها فى طول البـلاد وعرضهـا ، ولكنك جالـس فى قصرك تتغذى أذناك بـالأكاذيب التى تتلى عليـك فتصدقها . . البـلاد قش ملتهب والانسانية منحلة . . ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك ! » .

● ووصلت إلينـا تلك البرديـة التـى كـانت تتضمن تلك الـرسـالـة المكتـوبـة بهذا الأسلوب الأدبى الرفيع ، والتى تعبر عن حرية الفكـر والقول التى كانت متاحة لحكماء المصريين عبر آلاف السنين . . ولم يصل إلينـا ما يـدل على أن هذا الحكيم قـد وضع فى السجن الحربى ، ولا حتى فى سجن مدنى ! .



أثر الأدب المصرى القديم فى الآداب العالمية

كنت قد ترجمت قصة قصيرة من الأدب المصرى القديم بعنوان « الملاح وجزيرة العجائب» وتدور هذه القصة حول ملاح مصرى قديم غرقت سفينته ومات كل من عليها ونجا وحده ، وعاش فى جزيرة منعزلة ، وحصل على كنز ثمين ، ثم عاد إلى وطنه ، بعد أن اختفت تلك الجزيرة الغامضة فى أعماق البحر بمجرد مغادرته لها .

● ويرجع تاريخ هذه القصة إلى عصر « الدولة الوسطى» [٢٠٢٢ق م - ١٦٥٠ ق م] وهو عصر تميز بظهور عدد كبير من الأدباء والحكماء والمثقفين المصريين الذين تركوا لنا - لحسن الحظ - أعمالاً تدل على مدى رقى الفكر والثقافة فى مصر القديمة ، سواء فى مجالات الحكمة والتعاليم الفلسفية والأخلاقية أو مجالات الأدب القصصى والحوارات الدرامية ، أو فى الشعر والأغانى .

● ويمكن تصنيف قصة « الملاح وجزيرة العجائب » باعتبارها واحدة من أقدم نماذج قصص الخيال العلمى SCIENCE FICTION ، حيث تدور عناصرها وأحداثها وشخصياتها حول محاور موضوعية هى على وجه التحديد : الملاح ، والسفينة الغارقة ، والجزيرة المنعزلة ، وإله الجزيرة ، والكنز الثمين ، والمغامرات الخيالية التى انتهت بالعودة السالمة إلى الوطن ، والاختفاء الغامض للجزيرة تحت سطح البحر .

● ويرى مؤرخون وعلماء الأدب المقارن أن التركيب والبناء الأدبى والفكرة العامة لهذه القصة كانت إلهاماً لعديد من أكبر وأشهر الأدباء العالميين الذين نسجوا على المنوال نفسه الذى استخدم فى النسيج الأدبى للقصة المصرية القديمة التى ظهر تأثيرها المباشر على محاور مجموعة من أشهر القصص والروايات العالمية الكلاسيكية والرومانسية الذائعة الصيت فى مختلف أنحاء العالم ، والتى تدور حول مغامرات العثور على كنوز ثمينة وحول أبطال عاشوا فى جزر منعزلة .

● ومنها على سبيل المثال رواية « جزيرة الكنز » من تأليف الأديب الانجليزى

الشهير « روبرت لويس ستيفنسون » والتى تـدور حول مغامرات بطلها « جيم هوكينز » الذى عثـر على خريطة لكنز مـدفون فى جزيرة منعـزلة . . وكذلك روايـة « الكونت دى مونت كريستو » للأديب الفرنسى الشهير « ألكسندر دوماس » والتى تدور حول البطل «إدمونـد دانتى » الذى ذاق الأهـوال وقام بمغامـرات مثيرة بعد أن عرف سر وجـود كنز مدفون فى جزيرة « مونت كريستـو» المنعزلة ، حتى حصل على الكنز فى النهاية وعاد إلى وطنه سالماً . . ومن الغريب أن السفينة التى كان يعمل عليها كان اسمها «فرعون» .

● ومن الأعمال الأدبية العـالمية الشهيرة التى تأثـرت محاورها بعنـاصر ومحاور القصة المصرية القـديمة روايـة « روبنسون كـروزو» للأديـب الانجليزى « دانييل ديفـو » والتى تدور حـول المغامرات والشدائد التى عـاناها بطلهـا « روبنسون كروزو » خصوصـاً بعد غرق السفينـة التى كان يركبهـا وموت كل من عليها ونجـاته وحده ، وعاش فى جـزيرة منعزلة سنوات طويلة إلى أن عاد إلى وطنه فى نهاية الأمر .

● وكذلك الحال بـالنسبة لرواية « الفضيلـة ـ أو بول وفرجينى » التى تـرجمها الأديب المصرى القدير مصطفى لطفى المنفلوطى ، وهى من تأليف الأديب الفرنسى الرومانسى « برناردين دى سان بيير » والتى تدور حـول أسرتين صغيرتين عاشتا فى منطقة منعزلة فى جزيرة نائيـة حياة قائمة على الفضيلة والحب والأخاء إلى أن حدثـت مأساة غرق السفينة التى كانت تركبها العذراء « فرجينى » بطلة الرواية .

● ويقـول بعض نقـاد وعلماء الأدب المقـارن أن مـن القصص التـى تأثـرت بفكـرة ومضمون القصة المصرية القديمة قصة « حى بن يقظان » التى ألفها الأديب الفيلسوف العربى الأندلسى « أبو بكـربن طفيل » فى القرن ١٢ الميـلادى وهى من أشهر القصص الفلسفية التى تدور حول الانسان الذى عاش منذ صغـره فى جزيرة نائية منعزلة وتوصل بعقله إلى أفكار فلسفية تثبت وجود الله . وقـد ذاع صيت هذه القصة وتأثرت بها الآداب والفلسفـات العالميـة بعد أن تـرجمت إلى العديـد من اللغات منهـا اللاتينيـة والفرنسيـة والانجليزية والألمانية والهولندية .

● وأخيراً يقول بعض العلماء أن فكرة أسطورة « قـارة اطلانتس » التى غرقت فى قاع المحيط متأثرة على نحو ما بفكرة اختفاء جزيرةالعجائب فى القصة المصرية القديمة .

الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران أصلهما مصرى قديم

اختلف مؤرخو وعلماء الأدب المقارن حول مدى تأثر الشاعر الإيطالى الشهير «دانتى الليجيرى : ١٢٦٥ـ ١٣٢١ م » فى كتابه « الكوميديا الإلهية » بالشاعر السورى العظيم «أبو العلاء المعرى : ٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م » فى كتابه « رسالة الغفران » والموضوع المحورى فى كل من هذين الكتابين يدور حول وصف النعيم والجحيم فى العالم الآخر .

● ويقول بعض المنصفين من هؤلاء العلماء أن هذا الموضوع المحورى له جذور ظاهرة فيما وصل إلينا من الأدب المصرى القديم الذى تناول هذا الموضوع فى أكثر من عمل . . فقد ورد فى « كتاب الموتى » و « كتاب البوابات » وفى قصة « سى أوزيريس وعالم الموتى » .

● وفى هذه الأعمال الأدبية الشهيرة والمعروفة ، نجد أن الأدباء المصريين المجهولين قد وصفوا لنا ما كانوا يتخيلونه فى رحلة الروح بعد خروجها من الجسد وانتقالها فى سماء الكون حتى تصل إلى قاعة المحكمة حيث يوزن قلب المتوفى بريشة « ماعت » التى ترمز إلى العدالة والصدق والحق والخير ، ثم يحكم على المتوفى بمصير أبدى فى النعيم أو فى الجحيم .

● وفى النعيم وكان يسمى « حقول إيارو » يتمتع المتوفى بشباب دائم دون مرض ولا شيخوخة ولا موت ، ويلبس ثيابا فاخرة لا تبلى ولا تتسخ ، ويتمتع بأطايب الطعام والشراب والفواكه والماء العذب الصافى ، وهدوء وأمان وسلام دائم حيث لا توجد أرواح شريرة ولا ثعابين ولا وحوش ولاحشرات .

● أما الجحيم فيُلقى فيه الأشرار حيث العذاب الأبدى ، فى بحيرات ماؤها من

لهيب النيران ، وبها تماسيح مفترسة وحيات وثعابين ، وزبانيتها وحوش ضارية تتفنن فى ألوان ووسائل تعذيب الأشرار من أهل الجحيم فتحرق أجسادهم وتقطع رقابهم ومع ذلك فلا يموتون ، بل تتجدد حياتهم حتى يستمر تعذيبهم إلى مالا نهاية .

● وتحكى لنا قصة « سى أوزيريس فى عالم الموتى » حكاية فلسفية مثيرة ، تبدأ حين كان الأمير « ستنا » وهو أحد أبناء رمسيس الثانى واقفاً فى شرفة منزله المطل على النيل ، وكان معه إبنه « سى أوزيريس » ومعناه « هدية أو عطية أوزيريس » وهو صبى صغير لا يزيد عمرة على ١٢ عاماً ولكنه كان معروفاً بذكائه الخارق وعلمه العزيز وقدرته الفائقة على السحر .

● وكان بجوار البيت مرفأ صغير ترسو به بعض المراكب والقوارب المستخدمة فى عبور النيل إلى الضفة الغربية حيث توجد جبانات دفن الموتى . . وبينما كان الأمير واقفاً مع ابنه يتجاذبان أطراف الحديث ، شاهدا جنازة حارة لرجل ثرى وضعت مومياؤه داخل تابوت من الخشب الفاخر المطعم بالذهب ويتقدم الجنازة مجموعة من الكهنة ينشدون التعاويذ والأدعية والتراتيل . ويسير فى الخلف مجموعه كبيرة من المشيعين من علية القوم ومجموعة من النادبات الصائحات وحاملات القرابين وهن يصحن ويندبن ويبكين . . وبعد قليل مرت جنازة أخرى لرجل فقير يحمل تابوته إبناه ولا يسير خلفه سوى أرملته وزوجتى الابنين . . وكن مستغرقات فى البكاء والعويل .

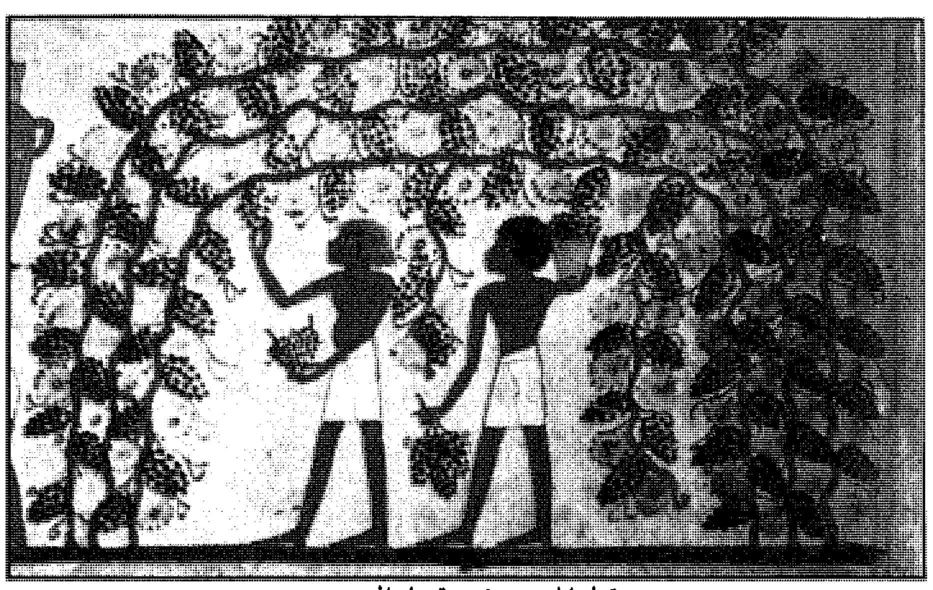
● عندئذ قال الأمير « ستنا » لابنه الصبى « سى أوزيريس » انه يتمنى أن يكون مصيره كمصير المتوفى الثرى الذى سيذهب حتما إلى الجنة . . ولكن ابنه الصغير قال أنه بالعكس يتمنى لأبيه أن يكون مصيره كمصير الرجل الفقير .

● استاء الأب من كلام ابنه . . ولكن الابن الصغير قال انه يعرف الوسائل السحرية التى تمكن روحيهما من التحليق فى السماوات وتمكنهما من الدخول عبر بوابات العالم الآخر ليريا ما يجرى فيه .

● وبعد غروب الشمس وبفعل السحر قامت روح الابن بصحبة روح الأب لمشاهدة محاكمة كل من الثرى والفقير المتوفيين . . وقامت الروحان بزيارة النعيم حيث

شاهدتا الرجل الفقير وهو يتمتع بنعيم الجنة لأنه كان صالحاً طيب القلب وكان يصنع الخير أثناء حياته . . ثم قامتا بعد ذلك بزيارة الجحيم حيث شاهدتا العذاب الأليم وألسنة النار وهى تلتهم الأشرار وكان من بينهم المتوفى الشرى جزاءً على ماصنعه من شرور أثناء حياته .

● وبعد هذه الجولة السريعة لروح الأمير « ستنا » ابن رمسيس الثانى وروح ابنه الساحر الصغير « سى أوزيريس » فى العالم الآخر لمشاهدة النعيم والجحيم ، عادت الروحان إلى طيبة سريعا ، وحلت كل روح فى جسدها ، قبل أن تشرق الشمس معلنة بزوغ يوم جديد فى الحياة الدنيا .



حقول إيارو . . نعيم قدماء المصريين .

سندريللا .. فى الأدب المصرى القديم

تتلخص عناصر حكاية الفتاة الجميلة سندريللا فى الأدب العالمى فى أن تلك البنت الفقيرة ، أنقذهـا ملاك طيب من قسوة زوجـة أبيها ، عندمـا فقدت فردة حـذاء كانت تملكه . وقـد وقعت هذه الفردة فى يـد أحد الأمراء الـذى أخذ يبحث عن صاحبـة هذا الحذاء حتى عثر عليها فى النهاية وتزوجها . .

● وقـد شاعـت حكايـة سنـدريللا بهذه العنـاصر المحـوريـة فى المأثورات الأدبيـة والفولكلورية لعديد من شعوب العـالم . ولعل أشهر من حكاها هما « الأخوان جريم » الألمانيان اللذان أذاعا شهرتها العالمية بعد أن كتباها كقصة من أدب الأطفال .

● وقد وردت حكـاية سنـدريللا بنفس عنـاصرها ولكن بطـرق وأسماء مختلفة ، فى بعض الأعمال الأدبية المدونة فى البرديـات المصرية القديمة . ويرجع تـاريخ أقدم إشارة إلى تلك الحكاية إلى عصر الأسرة الرابعـة فى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد . . ثم عثر على نسخة منهـا ولكنها للأسف غير كاملـة يرجع تاريخها إلى عصر الـدولة الحديثة فيما بين القرنين السادس عشر والثانى عشر قبل الميلاد . . وقد جاء بهذه النسخة وصف تفصيلى لبعض أساليب العذاب والإهـانة التى عوملت بها الفتاة من جـانب زوجة أبيها وبناتها .

● ثم عثر على برديـة تحكى القصة نفسها ولكن بطريقة مختلفة ، يـرجع تاريخ هذه البردية إلى القرن السادس قبل الميلاد . . وهى الحكاية التى سنقدم ملخصها حتى يتبين لنـا الأصل المصرى القديـم لتلك الحكايـة الجميلـة الذائعـة الصيت فى مختلف أنحـاء العالم :

● فى مدينـة « نقراطيس » بشمال الدلتا ، كـانت تعيش مجموعة كبيرة من اليـونانيين الـذين وفدوا إلى مصر للتجـارة أو لـلإقامـة الدائمـة فيهـا ، كما التحق الكثيرون منهم

بالجيش المصرى للدفاع عن مصر ضد خطر الفرس الذين كانوا يهددون بلاد العالم القديم بغزواتهم الهمجية الوحشية .

● وفى تلك المدينة كان يقيم « شاراكسوس » وهو أحد التجار اليونانيين الأثرياء . . وفى يوم ما شاهد فتاة يونانية جميلة جدا تباع فى سوق الجوارى بالمدينة فاشتراها بأغلى ثمن . . وعندما عاد بها إلى بيته علم منها أن اسمها « رادوبيس » وأنها كانت من أسرة طيبة تعيش فى شمال اليونان واختطفها القراصنة الذين باعوها فى سوق الرقيق .

● تأثر « شاراكسوس » بقصة « رادوبيس » التى كانت تتمتع بجمال لا يدانية جمال أية فتاة أخرى فى عصرها . . فبنى لها بيتا خاصاً بها تتوسطه حديقة رائعة ، وعين لها بعض الجوارى ليقمن بخدمتها ، وأغدق عليها هدايا قيمة من المجوهرات الثمينة والملابس الفاخرة ، وعاملها بكل حب وعطف ورعاية كما لو كانت ابنته من لحمه وصلبه .

● وفى أحد أيام الصيف الحارة ، كانت « رادوبيس » تستحم فى حوض السباحة الملحق بحديقة بيتها ، بينما كانت الجوارى واقفات بالحديقة لحراسة ملابسها الفاخرة وحليها المصنوعة من الذهب والفضة والجواهر الكريمة ، وكان من بينها حذاؤها الأحمر المطعم بمجوهرات رصعت فى زخارف رائعة . . وفجأة ظهر فى السماء الزرقاء الصافية نسر ضخم كان يحلق بجناحيه فوق الحديقة ، فأصيبت الجوارى بالذعر والهلع ، وهربن ليختبئن وراء الأشجار بعد أن تركن الملابس والمجوهرات دون حراسة .

● وفجأة انقض النسر واختطف بين مخالبه القوية « فردة » واحدة من الحذاء الثمين، ثم ارتفع إلى السماء وانطلق محلقاً نحو الجنوب ، وواصل طيرانه حتى وصل إلى سماء مدينة « منف» حيث يوجد قصر الفرعون « أمازيس » . وهبط النسر من عليائه وألقى بفردة الحذاء الأحمر فى حجر فرعون الذى كان جالساً وقتذاك فى قاعة العدل الكبرى .

● انبهر الفرعون بجمال الحذاء ورقته . . وأصدر أمره الملكى بارسال الرسل لزيارة جميع المدن المصرية فى الدلتا والصعيد للبحث عن الفتاة صاحبة هذا الحذاء الجميل . .

وعندما وصل الرسل إلى مدينة « نقراطيس » علموا بوجود الفتاة « رادوبيس » أجمل فتيات البلاد ، فعرضوا عليها فردة الحذاء لتقيسها ، وما أن شاهدتها « رادوبيس » حتى صاحت فرحة مهللة ، وأحضرت الفردة الثانية التى كانت تحتفظ بها . . ولبست الحذاء بفردتيه وكان بطبيعة الحال على مقاسها تماماً .

● عندئذ خر الرسل راكعين أمامها وأخبروها بأن الفرعون قد أمرهم باحضارها إلى قصره لتعيش معززة مكرمة بين حريم الملك . . ولكن الفرعون رأى أن الآلهة هى التى دبرت له العثور على تلك الفتاة الرائعة الجمال فتزوجها وجعلها ملكة على مصر . . وعاش معها سعيداً إلى أن مات الاثنان قبل عام واحد من قيام « قمبيز » بقيادة جيشه الفارسى الهمجى لغزو مصر والاستيلاء عليها .



عصر البلطجة والبلطجية فى مصر القديمة

حرصنـا منذ البداية على ذكـر مآثر وعظمـة الحضارة المصرية القـديمة التى اعتبرت بكافة المعـايير أمًّا للحضارات الانسانية ، إلا أننـا نود أن نشير إلى بعض فترات عصور الظلام والفـوضى التى كـانت تطرأ على استمـرارية التـاريخ المصرى القـديم فى بعض الأحيان ، وخصوصاً فى الفترة التى تلت سقوط « الدولة القديمة » فى نهاية عصر الأسرة السادسة .

● فى كتاب المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينى [دراسة فى التاريخ] وهو يتألف من عـدة مجلدات ، شرح لنظـرية « التحدى والاستجـابة » التـى يقول فيهـا أن القوى النفسية للبشر هى التى تحدد مجرى التـاريخ الانسانى وتضبطه وتسيره أكثـر من القوى المادية . . وجـاء فى هذا الكتـاب أن الحضارة المصرية القـديمة بلغت أقصـى ذراها فى عصر « الدولـة القديمة » التـى بدأت ببدايـة الأسرة الثالثة عـام ٢٦٣٥ق م ، وانتهت بنهاية الأسرة السادسة عام ٢١٤٠ ق م .

● وكـان آخر الملـوك فى هذه الأسرة « الملـك بيبى الثانـى » الذى جلس على عـرش مصر ٩٤ عامـاً ، وهى أطول فترة استمر فيهـا حكم حاكم واحد فى تـاريخ الدول . . وقد أدى طـول هذه الفترة إلى تجميد التطور وشيخـوخة نظام الدولـة ، فضعفت سلطة الحكومة المركزيـة ، وقويت شوكة حكام الأقاليم ، وساد الفساد بين كبـار رجال الدولة وموظفيها ، فتمزقت البلاد وساءت أحوالها .

● لقد عمت الفوضى أرجاء البلاد من أقصـاها إلى أقصاها ، وسقطت هيبة الملوك وانبرى حكـام الأقاليـم والمقاطعـات المصريـة فى اغتنـام الفرص واستغـلال النفـوذ ، فسيطروا على ممتلكات الـدولة ونهبوها واستخـدموا أعوانهم فى قهر الفـلاحين والصناع

والاستيلاء على ما فى أيديهم . . بل وحاول بعض حكام الأقاليم فى الوجهين البحرى والقبلى الادعاء بأحقيتهم فى الجلوس على عرش البلاد دون وجه حق ودون الاستناد إلى الشرعية أو أى سند من القانون .

● واستمر عصر الفوضى والاضمحلال نحو ١٢٠ سنة تولت خلالها بعض الأسر الملكية الضعيفة حكم البلاد [من الأسرة السابعة حتى الأسرة الحادية عشرة] . وكانت هذه الأسرات لا تسيطر على كل أقاليم البلاد ، إلى أن استطاع « الملك منتحوتب الثانى » ـ من الأسرة الحادية عشرة ـ إعادة توحيد البلاد وأعاد القانون والنظام إلى الدولة ، وحدث ذلك حوالى عام ٢٠٢٢ ق م .

● ولحسن الحظ فقد تم العثور على إحدى الوثائق الأثرية الهامة التى تصف لنا الأحوال السيئة خلال عصر الفوضى ، وهى البردية المعروفة علمياً باسم بردية ليدن ، والمنسوبة إلى الحكيم المصرى القديم « إيب ور » الذى استطاع بأسلوب أدبى رفيع وصف حالة الحزن العظيم التى عمت البلاد بطولها وعرضها بسبب الفوضى والارتباك فى جميع الشئون السياسية والاجتماعية بعد تمزق الدولة ، ووصف أوجة الخراب والدمار والانحطاط عندما سيطر الأجانب الآسيويون على بعض الأقاليم المصرية فى شمال وشرق البلاد وأشاعوا فيها عمليات السلب والنهب .

● وبالنظر إلى طول هذه البردية وكثرة ماورد بها من موضوعات وأوصاف ، فسوف نقتطف منها بايجاز نصوص بعض الجمل التى تدل على سقوط القانون والنظام وسيطرة أعمال البلطجة فى كل مكان . . يقول الحكم « إيب ور » على سبيل المثال :

ـ أصبح كل شخص يغير ويستولى على ما يستطيع وما تصل إليه يداه .

ـ انتشر الخوف وعم الانحلال الخلقى وعدم المبالاة بالقيم الدينية .

ـ أصبح الرجل يذبح أخاه من أمه ليستولى على مايملكه . . وأصبح الرجل ينظر لابنه نظره لعدوه . . ويذهب الفلاح إلى الحرث والزرع وهو يحمل أسلحته .

ـ أنظر . . لا صانع يعمل والعدو يحرم البلاد من خيراتها وحرفها وصناعاتها وانعدمت التجارة مع البلاد الأجنبية .

ـ والسائح الأجنبى الذى قدم للزيارة أصبح يتعرض للسرقة والضرب بالعصا ويذبح ذبحاً شنيعا . . وأصبح اللصوص أصحاب ثروات . . والحراس يقولون لأنفسهم فلننذهب لننهب . . وامتلأت البلاد بالمجرمين ولا يوجد رجل من رجال الأمس الطيبين . . وانتشرت القاذورات فى كل مكان ، ولا يوجد رجل بملابس بيضاء نظيفة .

ـ وأصبح الأطفال يصرخون : لماذا جئتم بنا إلى هذه الحياة اللعينة . . يالتعاستى بسبب البؤس الذى أعيشه فى مثل هذا الزمن !



نقش جدارى من الطريق الصاعد لهرم أوناس بسقارة يصور منظراً للمجاعة التى أصابت الرجال والنساء والأطفال .

أول انقلاب طبقى فى تاريخ العالم

حين أعلن المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » أن الحضارة المصرية القديمة بلغت أقصى ذراها فى عصر الدولة القديمة كان يؤكد حقيقة أن الشعب المصرى الذى صنع هذة الحضارة كان على استعداد لبذل كل جهد ممكن مادام يشعر بأن ملوكه وحكامه يقيمون العدل ويحققون له الحماية والخير .

● وعندما يشعر الشعب بأن ملوكه ضعاف متخاذلون وليسوا آلهة ولا أبناء آلهة كما كانوا يقولون ، وأن هؤلاء الملوك قد وقعوا تحت سيطرة حكام الأقاليم وكبار رجال الدولة وكبار الموظفين الذين أشاعوا الظلم ونهبوا الشعب عن طريق الضرائب الباهظة ، ومارسوا الكبر والغطرسة والطغيان ، عندئذ هب الشعب لينتقم من الجميع ، وحدثت الانتفاضة المدمرة التى اكتسحت فى طريقها كل شىء ، على النحو الذى عرفناه بعد سقوط الدولة القديمة فى نهاية عصر الأسرة السادسة عام ٢١٤٠ ق م .

● ويقول بعض المؤرخين إن الثورة التى قام بها الشعب المصرى فى ذلك الزمن تعتبر بكل المعايير السياسية والاقتصادية والاجتماعية أول انقلاب طبقى فى تاريخ العالم ، حيث فرضت طبقة « البروليتاريا » دكتاتوريتها وتسيدت على طبقات الشعب الأخرى .

● والمقصود بطبقة البروليتاريا هنا معناها فى النظام السياسى الذى كان سائداً فى روما القديمة والذى كان يقصد به الطبقة التى لم تكن تملك شيئا ، وهذا معنى يختلف كثيراً عن معناها فى النظرية الشيوعية التى قال بها كارل ماركس . . فمن الناحية السياسية لم يتوصل المجتمع المصرى أثناء تلك الثورة إلى إلغاء الطبقات ، وكل الذى حدث يمكن أن يندرج تحت مفهوم أن « الهيكل الطبقى » فى المجتمع المصرى القديم ظل على حاله ، ولكن حدث استبدال فى التسكين الطبقى ، حيث حل الفقراء محل الأغنياء ، وحل الأغنياء محل الفقراء والمعدمين ، على النحو الذى تشهد به بردية ليدن

المنسوبة إلى الحكيم المصرى « إيب ور » التى تقول فى تلك الفقرات التى انتقيناها من نص البردية :

ـ أصبح الفقراء يمتلكون أشياء جميلة ، وأصبح العظماء فى حالة يرثى لها . . لقدحل الحزن فى قلوب أصحاب الأصل الرفيع ، أما الفقراء فقد امتلأوا سروراً .

ـ لقد دمرت قصور الملوك ونهبت قبورهم ، وأصبح الحكام جياعاً يعيشون فى بؤس . . وقضاة البلاد طردوا من بيوت العدل . . والذين كانوا يرتدون الكتان الجميل أصبحوا يضربون . . وأصبحت كل بلدة تقول : هيا نقضى على كل الأقوياء والأغنياء . . ونهبت المخازن وأصبحت الصوامع خالية وانعدمت الغلال فلا زرع ولا حرث ولا حصاد وساد الجوع . . وجرد القوم من ملابسهم وعطورهم وأصبح كل انسان يقول لم يبق لى شىء .

ـ وهكذا صار العبيد أصحاب عبيد . . ومن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح يملك فناء مسوراً . . ومن كان يبيت فى العراء أصبح يجد كثيرات من السيدات النبيلات الشريفات اللاتى كن ينمن على أسرة أزواجهن فأصبحن ينمن على مضاجع مقضة بعد أن طردن من بيوتهن وأجبرن على العمل الشاق فى حرارة الشمس وهن يرتدين خرقاً بالية وأعضاؤهن ظاهرة وقلوبهن تنفطر من شدة الحزن .

ـ وأصبحت الجوارى والنساء الفقيرات يتحلين بالذهب واللازورد والياقوت والفضة . . أما السيدات النبيلات فقد أصبحن يمشين فى طول البلاد ويقلن : ليتنا نجد شيئا نأكله .

ـ ومن كانت لا تملك صندوقا أصبحت تملك صوانا . . ومن كانت ترى وجههافى الماء أصبحت صاحبة مرآة .

● هكذا وصف الحكيم المصرى القديم « إيب ور » الانقلاب الطبقى الذى حدث نتيجة للظلم الذى عاناه الشعب المصرى بسبب فساد حكامه وطغيانهم وعدم التزامهم بتطبيق العدالة ، فهب الشعب فجأة وقلب المائدة فوق رؤوس الجميع .

فكرة : العدل أساس الملك

تدل الشـواهد الأثرية والتـاريخية على أن المصريين القدماء كـانوا يربطون بين حـالة الرخـاء وعدالـة الحاكم الصالح . . كما كـانوا يعتبرون أزمنـة الشدة والشقاء والفـوضى والمجاعة والفقر دليلاً على ظلم الحاكم وعدم التزامه بالعدل .

● ومنذ ظهور البوادر الأولى لأسس الديانـات والعقائد المصرية القديمـة التى وضعها كهنة المعابد ، ظهرت فكرة « العدالة » كأساس لنظام الحكم باعتبارها « حقاً » للرعية و « واجباً » يلتزم به الحكام .

● ويجمع أئمـة علماء التـاريخ المصرى القديـم على أن مظاهـر التبجيل والتقـديس المبـالغ فيها التـى كان يكنهـا المصريون القـدمـاء لملوكهـم وحكامهم ، كـانت تـرجع بالضرورة إلى شعـور الشعب بأن هـؤلاء الملوك كـانوا يقيمـون العدل والنظـام ويكفلون الأمن والطمأنينـة ، ويوفـرون الرخـاء لكل الناس ، بفضـل مايقـومون بـه من تشجيع المبدعين فى الصناعة والقائمين بالزراعة والتجارة ، بالإضافة إلى رعاية العلم وكل من له نشاط فى الكتابة والأدب والهندسة والحساب والفلك والطب والعمارة .

● ولذلك فلـم يكن غريباًأن تظهـر فى الأسس الدينيـة والعقائدية فكـرة وجود إلهة أطلقوا عليها اسم « ماعت » وجعلوها رمزاً للحق والعدل والصدق والخير ، وصوروها فى هيئة امـرأة جالسة أو واقفـة ويزدان رأسها بـريشة طاووس ، وهـو رمز يعادل الـرمز الحديث لفكرة العدالة فى شكل امرأة معصوبة العينين وتحمل فى يدها الميزان .

● وطوال حقب التاريخ المصرى القديم ، ظلت « ماعت » مثلاً أعلى يحتذيه الحكام ويتطلع إليـه الناس . . وظلت بـالنسبة للجميع ـــ حكامـاً ومحكومين ـــ رمزاً معنـوياً مقدساً يدل على مبلـغ ما ينبغى أن يكون للعدل من أثر فى استمرار النظـام والطاعة ،

ومعياراً للتفرقة بين الحق ويقظة الضمير الانسانى ، وبين الباطل وغيبة هذا الضمير.

● وقد قام العديد من المؤرخين وعلماء الحضارة ببحوث ودراسات مستفيضة تناولت الدلالات الفلسفية التى أوعزها المصريون القدماء إلى فكرة « ماعت » وما ترمز إليه من معان ووظائف يمكن تلخيصها فيما يلى :

● هى رمز لحسن الخلق ومراعاة الضمير والتمسك بأهداب السلوكيات الطيبة ودليل على الورع الدينى واحترام السنن الإلهية والتراحم بين الناس عائليا وشعبيا ، كما انها المعيار الذى يفرق بين العدل والظلم وبين الحق والباطل .

● وهى رمز لدقة قوانين نظام الكون وثبات عناصره الأساسية ممثلة فى أفلاك النجوم ومساراتها فى السماء ، واختلاف الفصول وتعاقب شروق الشمس أثناء النهار وغروبها أثناء الليل .

● وهى أيضا ترمز إلى « الثقل » المستخدم فى الميزان الذى توزن به حسنات وسيئات المتوفى فى العالم الآخر ، حيث يلقى المتوفى مصيره الأبدى إما بالذهاب إلى الجنة « حقول إيارو » أو بالالقاء فى النار « سقر » .

● وتقديراً لتلك المعانى المقدسة السامية كان ملوك مصر يفخرون بأنهم التزموا بتعاليم « ماعت » وطبقوها ، وأقاموا أركان ملكهم على العدل بين الرعية ونشر الخير فى البرية .

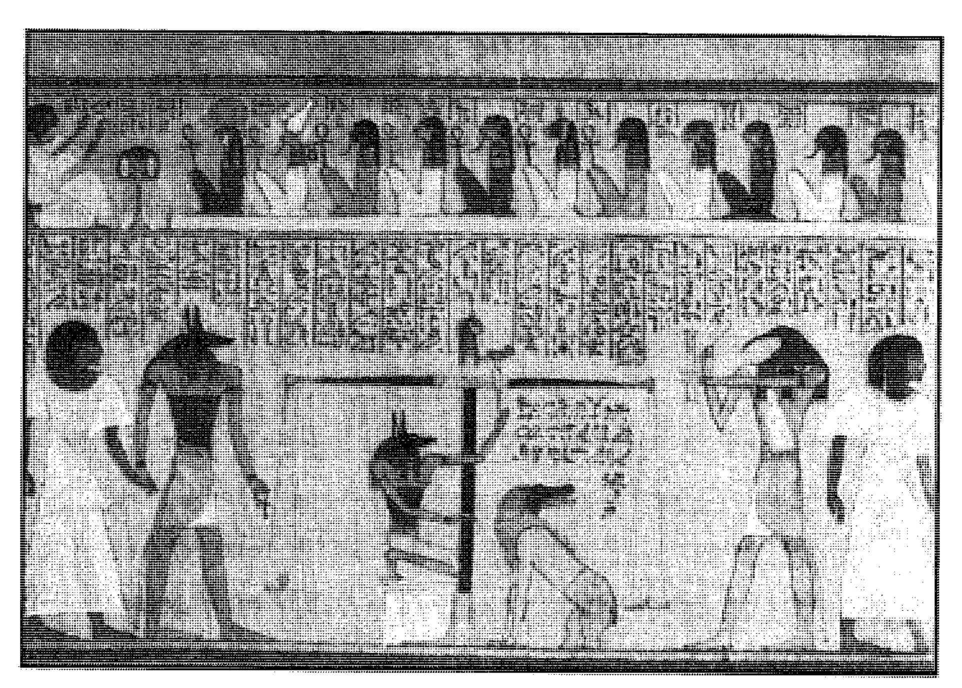
● ولم يكن غريباً أن يكتب الحكماء والأدباء المصريون خلال عصور الاضمحلال التى ساد فيها الظلم والفوضى والفساد ، متنبئين بأن إصلاح أحوال البلاد يتوقف على ظهور الحاكم العادل الذى يعيد الأمور إلى نصابها السليم .

● ويقول الحكيم « إيب ور » مبشراً بظهور الحاكم الذى سينقذ البلاد : « أين هو ليسوى بين البشر . . ويقيم العدل . . انه راعى الانسانية الذى لا يحمل فى قلبه شراً» .

● ويقول الحكيم « نفر ـ روهو » فى المعنى نفسه : « إن الحاكم العادل قادم لامحالة

. . والـذين سيعيشون فى زمنـه سـوف يبتهجون . . وهـؤلاء الـذين يتآمـرون على الشر ويحيكـون المؤامرات سيغلقـون أفواههم خـوفـاً منه . . وسيعيـد ماعت إلى مكـانها . . والظلم سوف ينبذ ويختفى »

● ويقول المؤرخ الأمريكى برستيد أن هذه التنبؤات المذكورة فى الأدب المصرى القديم قد استخدمت مثيلاتها فى التبشير بظهور المسيحية بعد أكثر من ألفين من السنين .



ماعت هى رمز العدالة فى الدنيا والآخرة .

قبل أن تحكم .. تعلم كيف تحكم

كان مـن المحتم على جميع الأمراء مـن أبناء الملك أن يتلقـوا العلم على أيدى كبـار المعلمين والحكماء ، كما يتحتم عليهم أيضـا أن يمارسوا الريـاضة والفروسيـة والتدريب العسكرى .

● وإلى جانب تعلمهـم مبادىء وقواعد علـوم الحساب والهندسـة والفلك والطب والكيمياء وغير ذلك من العلـوم الأخرى التى برع فيها قدمـاء المصريين ، كان لابد من تلقينهم أسس التراث المصرى فى الحكمة والفلسفة وقواعد الأخلاق والسلوكيات الطيبة الرفيعة .

● ومن العادات السياسية التى كانت شائعة فى نظام الحكم حرص الملوك والفراعنة على إشراك « ولى العهد » فى حكم البلاد بطريقة مباشرة ، حيث كان ولى العهد فى كثير من الأحيان يكلف بقيادة الجيش بفرقه العسكرية المختلفة ، أو قيادة الحملات الحربية ضـد المتمـردين أو المعتـدين الأجـانب ، أو يكلف بأداء بعـض السلطات التنفيـذية الخاصة بالملك ويعطى سلطة مطلقة فى اتخاذ القرارات المناسبة ، أو يقوم بالاشراف على المحاكم « بيـوت العدل » أو أداء بعض المراسم والطقـوس الدينية فى المعـابد نيـابة عن والـده ، وغير ذلك من أسـاليب مباشرة السلطـات التنفيـذية والتشريعيـة والقضائيـة والدينية .

● وبطبيعة الحال فقـدكان الملوك يحرصون على تلقين أبنـائهم ـ من أولياء العهـد ـ

المثل العليا التى يجب أن يتحلى بها الملوك فى حكم الرعية ومباشرة شئون الدولة . . ولحسن الحظ فقد وصلت إلينا عدة برديات تتضمن النصائح والتعاليم التى لقنها بعض الملوك لأبنائهم الذين تولوا حكم البلاد من بعدهم .

● ومن أشهر هذه الوثائق السياسية بردية محفوظة بمتحف لنينجراد تتضمن مجموعة من النصائح والتعاليم التى وجهها أحد ملوك الأسرة العاشرة لولى عهده المسمى « مرى كا رع » الذى تولى الملك من بعده . . ويقول فيها :

● « عليك أن تتحلى بالفضائل حتى يثبت عرشك على الأرض . . كن عادلاً مثل أجدادك من الملوك السابقين . . ولا تجرد أحداً من أملاكه . . ولا تطرد موظفا من عمله ولاتغدر بزميل تلقى معك العلم . . وهدىء من روع الباكى . . وحقق فيما يقوله الشاكى . . ولا تظلم يتيما ولا أرملة . . ولا تكن فظاً بل كن رحيم القلب . . واجعل هدفك حب الناس لك ، فمسئولية الحكم ثقيلة . . وارفع من شأن الجيل الجديد ، فالبلاد ملأى بالشبان المدربين . . واجعل من هؤلاء الشبان اتباعك ، فامنحهم الممتلكات وهبهم الحقول والقطعان . . ولا ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع بل اتخذ لنفسك الرجل بحسب كفاءته . . واعطى للموظفين حقوقهم واجعلهم لا يحتاجون لشىء ، لأن الرجل المحتاج قد ينحاز إلى الشخص الذى يحمل فى يده رشوة . وكن محايداً فى حكمك بين الناس فالكل متساوون . . والملك ذو العقل المحايد يفلح حاله ويصبح محترماً داخل القصر وخارجه . . واعلم أن اللـه يرى كل شىء . . وان فضيلة الرجل المستقيم أحب عنده من ثور يقدمه الرجل الظالم قربانا . . وعليك أن تقيم آثاراً باقية لأنها تجعل اسم صانعها باقياً فى الزمن » .

● وكانت مثل هذه التعاليم والتوجيهات التى يلقنها الملوك لأبنائهم بمثابة الدستور الذى يلتزم به هؤلاء الأبناء عندما تحين لحظة انفرادهم بحكم البلاد . . وكان من المتوقع دائما أن يقوم هؤلاء الملوك الجدد بتلقين أبنائهم مزيداً من التعاليم الأخرى التى تحثهم على إقامة العدل بين الناس .

نصائح .. للمواطن الصالح

فى حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، قام الملك مينا بتوحيد الوجهين البحرى والقبلى ، وأنشأ أول دولة فى تاريخ العـالم . . وجعل لهذه الدولة حكومة مركزيـة هى أول حكومة أخرجت للناس .

● وبطبيعة الحال فقد كانـت الحكومة تسيطر على جميع الأفراد الذين كـانوا يعيشون فى جميع الأقاليم المصرية . وعلى مدى السنين تكون عرف أقرب مايكون إلى دستور غير مكتوب ولكنه ينص على علاقة الفرد بالحكومـة وعلاقة الحكومة بالفرد ومايتم بينهما من تبادل للحقـوق والواجبات ، ورسخت على المدى مجمـوعة من القواعـد والمبادىء التى تربط بين فكرة الوطن وفكرة المواطن .

● وطبقاً للنظام الاجتماعى المفروض ، فلم يكن من الجائز بأى حال من الأحوال أن يصبح المواطن عاطلاً بـلا عمل فى الدولة المصرية ، بل كان لابد من التـزامه بأن يؤدى عملاً ما طبقا لما هو سائد فى الطبقة التى ينتمى إليها هذا الفرد . . وكان من الشائع أن يقوم الانسان بنفس نوع العمل الذى كان يقوم به أبوه إلا فى استثناءات نادرة .

● وكان أداء العمل - أياً كان - بدقة وأمانة وإجادة يعتبر من الصفات الحميدة التى يجب أن يتحلىَ بها المرء . ولا تخلو الحكم والتعاليم التى قـال بها حكماء مصر الأقدمون من النصـائح التى تحث على العمل والانتاج . وفى ذلـك يقول الحكيم « بتـاح حتب » [حـوالى ٢٤٥٠ ق م] : « إعمل . . وكن مجتهـداً على الدوام . . وافعل أكثـر مما هـو مطلـوب منك . . ولا تضيع وقتـا لا تعمل فيـه . . ممقوت ومكـروه ذلك الـذى يسىء استخدام وقته . . إن العمل يأتى بالثروة ، والثروة لا تدوم إذا هجر العمل » .

● وقد كان من اللازم أن يتنـاول الحكماء تحديد « المايجب » و « المالا يجب » بالنسبة لكل مـواطن مـن المواطنين الـذين يعيشـون داخل المجتمع المصرى ، وكـذا تحديـد السلوكيات التى لابـد أن يلتزم بها كل فرد حسب عمله وتخصصـه وحسب الطبقة التى ينتمى إليها .

● يقول أحد الحكماء : « إذا أصبحت عظيما بعـد أن كنت صغير القدر . . وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجاً ، فـلا تنسى كيف كانت حالك فى الزمن الماضى . . ولا تفخـر مختـالاً بثروتـك التى أتت إليك منحـة مـن الله ، فـأنت لست بأحسـن من أقرانك الذين حل بهم الفقر . . واحترس من الأيام التى يمكن أن يأتى بها المستقبل » .

● وينصح أحد الحكماء كلاً مـن القضاة والمتقاضين فى المحاكم بقولـه : « لا تزيف كلامك فى بيت العدل [المحكمة] . . بل قـل الصدق ولو على نفسك . . وكن عادلاً ولاتهتم بكلمات رجل لأنـه يرتـدى ملابس بيضاء نظيفـة . . بل اقبل الكـلام الصادق الحق ولو قاله من يلبس خرقاً بـالية . . ولاتقبل هدية رجل قوى ولا تظلم الضعيف من أجله » .

● وينصح حكيم آخـر كل فـرد من طبقـة الموظفين والحكـام بقـوله : « لا تفـرض ضريبـة على شخص لا يمتلك شيئـاً . . وإذا وجدت فقيراً عليـه دين كبير ، فقسمـه ثلاثة أقسام « وسامحه فى اثنين وابق واحداً » .

● ويضع حكيم آخر قاعدة الالتزام بـاحترام كبار السن والضعفاء فيقول : « إحذر أن تسلب فقيراً بائساً . . أو تكون شجاعاً أمام رجل ضعيف مهيض الجناح . . ولا تمد يدك لتمـس رجلاً مسناً بسـوء . . ولا تسخر من كـلام رجل هرم . . وإيـاك أن تجعل نفسك رسول سوء » .

● هذه عينة قليلة من مئات القواعد والحكـم والتعاليم والنصائح التى كانت تدعو إلى خلق المواطن الصالح فى الدولة المصرية القديمة .

وعلموا الناس مبادىء الأخلاق والسلوكيات الطيبة

كانت التعاليم الأخلاقية التى تركها لنا حكماء مصر الأقدمون بمثابة ضمير الأمة المصرية ، كما كانت دستور العلاقات الانسانية والاجتماعية والسلوكيات العامة الطيبة داخل المجتمع المصرى القديم .

● هى تعاليم تحض على الفضيلة ونبذ الرزيلة ، وتدعو إلى التحلى بالصفات الحميدة والأخلاق الرفيعة النبيلة ، والسيطرة على نزعات النفس الأمارة بالسوء ، هادفة إلى صياغة الانسان المصرى القويم الملتزم بالصراط المستقيم .

● وهى تعاليم لكل انسان مدرك لانسانيته المجردة دون أى اعتبار لطبقته أو لمكانته الاجتماعية أو لدرجة ثرائه أو فقره ، أو لجنسه ذكراً أم أنثى . . فالكل سواء أمام قوانين الأخلاق وقواعد السلوكيات الطيبة .

● وليس من المستغرب أن الغالبية العظمى من تلك التعاليم وصلت آثارها إلينا فى صورة تمرينات كان يقوم بها التلاميذ القدماء فى مدارسهم بقصد التدريب على تعلم أصول البلاغة والأساليب الجميلة وقواعد اللغة وتحسين الخطوط . . أليس معنى ذلك حرص التعليم فى مصر القديمة على تهذيب النشء منذ الصغر ليصبح جيلاً متمرساً بالعلم والأخلاق ، صادقاً مع نفسه ومع الآخرين ؟ !

● ولم يكن مستغرباً أيضاً أن جميع هذه التعاليم الاخلاقية والسلوكية كانت منتشرة شفاهة فى شكل أمثال شعبية بين جميع المصريين مهما اختلفت طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية ، وكونت ضميراً مكتوباً على جبين الأمة المصرية ، ورأياً عاماً لماهية الطبيعة الانسانية الطيبة التى كان من الواجب أن يتحلى بها كل فرد يعيش فى المجتمع .

● قال حكماء مصر القديمة : « إذا أردت أن يكون سلوكك حسناً وأن تحرر نفسك

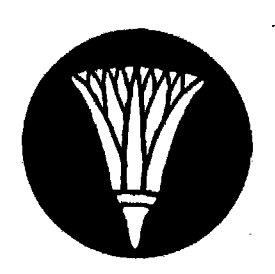
من كل الشرور ، فاحذر أن تشتهى مايملكه غيرك . . وإياك والطمع فهو داء لا شفاء منه ، يجعل الود مستحيلا ، ويحيل الصديق عدواً ، ويقضى على الثقة بين الأصدقاء ، ويفسد مابين المرء وأمه وأبيه واخوته الأشقاء ، ويفرق بين الرجل وزوجته . . إنه حزمة تضم كل أنواع الشرور ، وحقيبة ملآنة بكل مايستحق الخزى والعار » .

● وقالوا : « ليس هناك من يخدع الناس ولا يكون مخدوعاً هو نفسه ، وليس هناك من يسير معوجاً ومع ذلك يستمر ويزدهر » .

● وقالوا : « لا تكن متكبراً بسبب علمك . . ولا تكن منتفخ الأوداج لشعورك بأنك رجل عالم . . إن نهاية العلم والمعرفة لا يمكن الوصول إليها ، وليس هناك عالم يعرف كل شىء فهناك من قد يكون أفضل منه وأكثر منه علماً » .

● ولا يسع المقام هنا أن نذكر آلاف القواعد والتعاليم الأخلاقية التى كانت دستوراً لسلوكيات المصريين القدماء ، ويكفى أن نشير إلى تلك المضامين الانسانية التى دعا إليها حكماء مصر القديمة ، الذين حثوا الناس على التمسك بأدب الحوار مع الآخرين ، والتمسك بالصدق وكراهية الكذب والشهادة الزور ، وفرقوا بين حلاوة المال الحلال وشرور المال الحرام ، ودعوا إلى عدم التطفيف فى الكيل أو الميزان ، ونادوا بعدم تجريح أصحاب العاهات الجسمانية والعقلية ومعاملتهم بالرحمة والرفق ، وضرورة احترام الصغير للكبير ، واحترام الانسان لمعلمه ، والإحسان الواجب للآباء والأمهات .

● وإلى جانب مثل هذه القواعد الأخلاقية وضع حكماء مصر القديمة عشرات من قواعد « الإتيكيت » التى يجب الالتزام بها عند زيارة البيوت والتلاقى فى المناسبات العامة والخاصة وآداب الموائد والولائم .



آداب الحديث .. وآداب المائدة وزيارة البيوت

كان المجتمع المصرى القديم منذ بدء تكوينه واستقراره مجتمعاً مهذباً تحكمه قواعد سلوكية وقوانين أخلاقية ملزمة تحدد علاقة الأفراد ببعضهم وعلاقاتهم بالدولة .

● وكانت النصائح والتعاليم التى قال بها حكماء مصر الأقدمون تعبيراً عن ضرورة الالتزام بسلوكيات اجتماعية كانت متبعة فعلاً فى حياة أبناء الشعب العاديين بمختلف طبقاتهم ومراتبهم الاجتماعية ، وما ذكرها هؤلاء العلماء ونصوا عليها كتابة إلا لتكون نصوصا مقننة يجب أن يحفظها كل فرد عن ظهر قلب ، ويجب أن يلتزم بها فى كل تصرفاته وسلوكياته مع الآخرين ،وحتى تصبح تلك النصوص ميراثا تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل .

● وكان من حسن حظنا أن عثرنا على تلك النصوص مكتوبة ، ليعرف العالم كله أن مصر القديمة العظيمة كانت سباقة إلى الصعود إلى تلك الدرجة العالية من التحضر ، وعرفت قواعد تهذيب الأخلاق وقواعد الاتيكيت التى لاتختلف عن مثيلاتها فى أرقى المجتمعات المتحضرة المعاصرة .

● وتدل الشواهد الأثرية العديدة على أن أفراد المجتمع المصرى القديم كانوا يستخدمون صيغاً موحدة لتحيات الصباح والنهار والمساء ، وصيغا شائعة تم التعارف عليها لاستخدامها فى التهانى بالأعياد وتهانى الأفراح فى مناسبات الزواج والولادة ، وصيغا أخرى للتعازى فى حالات الموت والمواساة فى حالات المرض والمناسبات الحزينة الأخرى .

● عند دخول بيوت الآخرين سواء للزيارة أو لحضور حفل أو وليمة ، كان لابد من الالتزام بأصول مرعية واتيكيت خاص يجب مراعاته بأقصى قدر من الأدب . . وفى هذا الخصوص قال حكماء مصر القديمة :

● « لاتدخل إلى بيت الآخرين بحرية ، بل ادخل فقط بعد أن يؤذن لك . . وإذا

دخلت داراً وكان رب البيت مشغولاً بغيرك ، فعليك أن تنتظر صامتاً ويدك على فمك . . وإياك أن تمعن النظر إلى شىء مستهجن أو منتقد ، والزم الصمت ولا تتحدث عن هذا الشىء إلى آخر فى الخارج » .

● وبالنسبة لآداب الضيافة والدعوات لحضور الحفلات أو الولائم ، فقد كان لابد أن يلتزم الضيوف بسلوك مهذب يتمثل فى قواعد الاتيكيت التالية التى تحدد آداب الحديث وآداب المائدة :

● كن ماهراً فى الحديث . . ولاتتكلم إلا إذا كنت مقتنعاً بما تقول . . إن قوة الانسان تكمن فى لسانه ، والحديث أقوى من أى قتال . . تكلم فقط بعد أن يرحب بك . . واضحك حينما يضحك صاحب الدار ، فإن ذلك سيكون ساراً لقلبه ، وماتفعله سيكون مقبولاً لأن الانسان لا يعلم ما فى القلب » .

● وبالنسبة للمشاركة فى الحديث مع المضيف [صاحب البيت] ومع ضيوفه الآخرين قال الحكماء : « إذا سئلت عن شيء فاختر الردود الطيبة الحسنة وتحدث بها على لسانك واحتفظ بالردود السيئة فى داخلك . . ولاتنطق بأية كلمة شريرة أمام أى زائر . . ولا تتكلم بكلمات غامضة ولاتنطق بلفظ وقح ، فإن كلمة تقال يوماً وأنت تثرثر قد تدمر بيتك . . ولا تعيد كلمات حمقاء قيلت على لسان ضيف آخر ، فى هذه الحالة إلزم الصمت فإنه أحسن . . وإذا اتبعت كلماتى ستصبح على خلق عظيم وسيبتعد عنك كل شر » .

● وقال الحكماء فى آداب المائدة وتناول الطعام مع الآخرين : « إذا كنت من بين الجالسين إلى مائدة الطعام ، فلا تنظر إلى ما يقدم لغيرك ، وخذ فقط ما يقدم إليك حين يوضع أمامك ، ولا تصوبن نظرات كثيرة إليه ، لأن ذلك تشمئز منه النفوس . . فانظر إلى الطعام بعدم مبالاة حتى وإن كنت تشتهيه . . إن ضبط النفس لا يكلف الانسان أكثر من لحظة . . إن من العار أن يكون الانسان شرها » .

أليست كل هذه القواعد على بساطتها ــ وغيرها عشرات بل مئات ـ دليلاً كافياً على مدى رقى الحضارة التى صنعها الشعب المصرى القديم فى عصور كانت تعيش فيها شعوب أخرى حياة بدائية لا تعرف شيئا عن تلك السلوكيات الرفيعة الطيبة . . ؟!

الدراما المصرية .. أسبق من الدراما الاغريقية .

كان هناك اعتقاد شائع وراسخ لدى الكثيرين من مؤرخى الآداب والفنون العالمية بأن «الدراما » بمعناها التقليدى وبفرعيها [التراجيديا والكوميديا] هى وليدة الحضارة الاغريقية ، وذلك على أساس نشأتها فى اليونان القديمة معبرة عن أهم خصائص الحضارة القديمة التى عرفتها بلاد الاغريق القدماء .

● وظل هذا الاعتقاد قائما وراسخا بفضل مئات الكتب التى ألفها مئات من المؤلفين والمؤرخين والنقاد المسرحيين على مدى قرون طويلة ، والتى تناولت شروحاً وتاريخاً ونقداً ودراسات تحليلية للدراما الاغريقية القديمة وكتابها المشهورين أمثال : إيسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس وغيرهم من أشهر مؤلفى المسرحيات اليونانية القديمة التراجيدية والكوميدية .

●ولكن هذا الاعتقاد تزلزل بشدة وأعيد فيه النظر بعد أن تم اكتشاف إحدى الوثائق المصرية القديمة التى يرجع تاريخها إلى عهد الملك مينا ـ موحد الوجهين البحرى والقبلى بمعنى أن تاريخ هذ ه الوثيقة يرجع إلى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد .

● وبالفحص الدقيق لتلك الوثيقة وترجمتها تبين انها تتضمن نص أول عمل «درامى تمثيلى » فى تاريخ الانسان على الأرض ، مما جعل الكثيرين من مؤرخى الآداب والفنون وعلماء الآثار يعيدون النظر فى أقدمية الدراما الاغريقية ، ويعلنون أن « الدراما التمثيلية» ظهرت فى مصر القديمة قبل أن تعرفها اليونان بما يقرب من ثلاثة الآف سنة !

● وإنصافا للحق ، فقد قال بعض هؤلاء المؤرخين إن الدراما المصرية قد نشأت فى أحضان الدين والعقائد المصرية القديمة ، معبرة عن أهم ملامح وخصائص البيئة والحضارة المصرية فى عصورها القديمة ، تماماً مثلما كانت الأعمال الدرامية الأولى التى

ظهرت فى بلاد اليونان تعبر عن أهم ملامح وخصائص البيئة والعقائد والحضارة الاغريقية القديمة .

● أما تلك الوثيقة المصرية القديمة ، فقد دون عليها أول نص درامى تمثيلى عرفه الانسان . . وكان هذا النص مكتوباً على سطح حجر أسود [محفوظ حالياً بالمتحف البريطانى بلندن] . . ومن الواضح أن هذا الحجر كان قد تعرض للمحو والتشويه بطريقة مؤسفة ، إلا أن بقاياه الظاهرة تدل بشكل واضح على أن النص المكتوب عليه عبارة عن « حوار تمثيلى فلسفى » يتبادله آلهة مصر القدماء حول عملية « خلق العالم » والنظام الكونى للأشياء والمخلوقات . ولهذا السبب فقد أطلق المؤرخون على هذا النص الدرامى اسم « تمثيلية بدء الخليقة » . كما أطلق عليه مؤرخون آخرون اسم « الدراما المنفية » نسبة إلى مدينة « منف » عاصمة مصر التى شيدها الملك مينا .

● ومن الغريب أن الجمل الحوارية التى كان يتبادلها الآلهة مكتوبة بطريقة تشبه إلى حد كبير الطريقة التقليدية لكتابة الحوار فى المسرحيات القديمة والمسرحيات المعاصرة . . كما أن نص هذه « الدراما » يتضمن « مونولوجا » فردياً كان يلقيه الكاهن المرتل الذى كان يقوم بدور يشبه دور « الراوى » المفسر لأحداث ووقائع التمثيلية ويعلق عليها .

● والأغرب من ذلك أن هذا النص كان يتضمن أيضاً عدداً من « التعليمات الارشادية » الخاصة بالاخراج والأداء التمثيلى تتشابة على نحو ما بالتعليمات والارشادات التى اعتاد أن يكتبها مؤلفو المسرحيات قديماً وحديثاً على حد سواء .

● ولم تكن « تمثيلية بدء الخليقة » هى الوحيدة التى تم العثور عليها من الأعمال الدرامية التى تثبت سبق مصر فى هذا المجال ، بل كانت هناك أعمال درامية أخرى ترجع إلى عصور مختلفة من عصور التاريخ المصرى القديم . . العظيم .



بردية الرمسيوم المسرحية

كانت غالبية النصوص الدرامية التى تم العثور عليها ضمن آثار مصر القديمة تدور حول موضوعات دينية أو موضوعات سياسية لتثبيت وتأصيل نظام الحكم وعلاقته الوثيقة بالعقائد الدينية .

● ومع ذلك فقد كانت هناك أيضا بعض النصوص الدرامية التى تمس موضوعات إنسانية ، وإن كانت هى الأخرى تتعلق بموضوعات فلسفية رمزية ، كنص الحوار بين الصدق والكذب ، وبين عقل الانسان ومعدته ، وبين إنسان وروحه البائسة [وهذا النص الأخير يمكن تصنيفه كشكل من أشكال المونودراما] .

● وفى أواخر القرن التاسع عشر ، حين كان أحد علماء الآثار الأجانب يجرى حفائره فى منطقة معبد الرمسيوم بغرب الاقصر ، عثر على صندوق أثرى وجد بداخله مجموعة من أوراق البردى دونت عليها نصوص درامية تمثيلية ذات طابع طقسى احتفالى يتعلق بتتويج الملك « سنوسرت الأول » على عرش مصر بعد وفاة والده « امنمحعت الأول » .

● وبالنظر إلى أن عهدى هذين الملكين يرجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة « الدولة الوسطى ــ فى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد » إلا أن بعض المؤرخين والمحللين الذين درسوا هذا النص الدرامى ، أشاروا إلى انه مأخوذ عن أصول نص قديم يتعلق بطقوس عملية تتويج الملوك منذ نشأة النظام الملكى فى مصر فى عصر الأسرة الأولى .

● وقد اصطلح المؤرخون وعلماء الآثار المصرية على تسمية هذا النص الدرامى باسم « بردية الرمسيوم المسرحية » . وهو يتكون من ستة وأربعين « منظراً أو مشهداً » يؤديها تمثيلا مجموعة من الكهنة وكبار موظفى الدولة وبعض أفراد الأسرة المالكة .

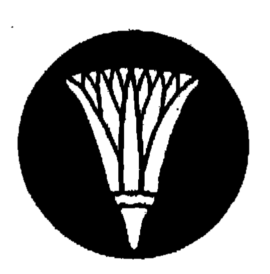
● ويتضمن النص تفصيلات عن تحديد المناظر والديكورات والاكسسوارات مثل الأعمدة المقدسة والأشجار والنباتات والخبز والحلى والجعة ، كما تظهر أثناء الأداء التمثيلى مجموعة من الحيوانات التى تستلزمها أحداث التمثيلية مثل الثيران والماعز .

● وهناك نص درامى آخر منقوش على جانب من جدران معبد « إدفو » . وقد أطلق عليه المؤرخون اسم « دراما انتصار حورس على أعدائه » . ويعتبر هذا النص من أحسن وأكمل نصوص الأدب التمثيلى فى مصر القديمة حيث وصل إلينا بحالة سليمة وجيدة .

● ويقول المؤرخون أن هذا النص عبارة عن رؤية درامية مختصرة لنص درامى آخر أكبر حجماً وأكثر تفصيلا ، وأن السبب فى هذا الاختصار هو ضيق المساحة الجدارية التى نقش عليها النص المختصر بما يتضمنه من جمل حوارية ومناظر تصور المشتركين فى الأداء التمثيلى من آلهة وبشر وحيوانات .

● وهذا النص مقسم إلى خمسة أجزاء عبارة عن مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة . . وتدور أحداثه حول الصراع الذى نشب بين « حورس » وأعوانه ، وبين « ست » وأعوانه ، إلى أن انتصر حورس الذى يمثل الخير والحق والعدل ، على ست الذى يمثل الشر والظلم والاغتصاب .

● وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا ما ذكره « هيرودوت » فى حديثه عن مصر بعد أن شاهد تمثيلية مماثلة تدور حول هذا الصراع التاريخى بين حورس وأعوانه وست وأعوانه ، فقد قال انه اعتقد أن هذا الصراع كان حقيقياً يسقط فيه الكثيرون بين قتلى وجرحى ، بالرغم من أن المصريين أكدوا له أن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلاً متقنا !



أول شعراء العالم

حين بدأ أول انسان التعبير عن كلامه شعراً ، كـان لابد له أن يفتح آفاق الخيال أمام قريحتـه ، لكى يصيغ التشبيهات المعبرة عن أهدافـه وأفكاره ، وأن يجعل أسلوبـه جميلا تتقبله قلوب السامعين ، وأن يجعـل كلامه موزوناً مقفى طبقاً لقـواعد اللغة التى يصيغ بها شعره .

● ويجمع علماء اللغـات فى دراساتهم الفقهيـة على أن أول أشعار نطق بها الانســان كانت معبرة عن أفكار وعقائد دينية . . وكانت تلقى ترتيلاً بقصد التعبد ، وكانت مثل الأناشيد ذات ألحان وإيقـاعات تتناسب مع الـوزن الشعرى وتشيع جواً من الـروحانية والمشاعر القدسية .

● ويجمع هؤلاء العلماء أيضا ومعهم المؤرخون وعلماء الحضارة ، على أن مصر القديمة هى الرائدة الأولى للشعر الدينى ، وصاحبة أقدم نص شعرى ظهر فى تاريخ الانسان على الأرض . والشاهد الأثرى على ذلك يتمثل فيما اصطلح على تسميته باسم« متون الأهرام » . . فما هى حكاية هذه المتون . . ؟ !

● من المعـروف أن أهرام الجيـزة التى بنـاها ملـوك الأسرة الـرابعة : خـوفو وخفـرع ومنكاورع ، هى أهرام خالية من النصوص ولم يعثر بداخلها على كتابات شعرية أو غير شعرية .

● ولكن فى سنـة ١٨٨٠م حين كان عـالم الآثار « مـرييت بـاشا » يجرى حفـائره فى منطقة سقارة ، عثر على نصوص مكتوبـة بالهيروجيلفية على الجدران الداخلية بكل من هرم الملك « بيبى الأول » وهرم الملك « مرن رع » . . كما تم العثور فيما بعد على آلاف من أسطـر النصوص الأخـرى مكتوبـة على الجدران الداخليـة بـالأهرام التى بنـاها ملـوك



ماريت



متون الأهرام منقوشة على الجدران
الداخلية لهرم أوناس بسقارة .

الأسرتين الخامسة والسادسة [فى الفترة ما بين عامى ٢٦٢٥ ـ ٢٤٧٥ ق م] .

● وبدراسة هـذه النصوص تبين انها مكتوبة شعـراً ، وتتناول موضوعـات عقائدية متعلقة فى أغلبها بعبادة الإله « رع » إله الشمس فى المعتقدات الدينية المصرية القديمة . ولذلك فقـد اعتبرها المؤرخون معبرة عن أقدم صـورة للانتاج الأدبى الشعـرى فى تاريخ الحضارة الانسـانية ، وليس لها مثيل فى أى مكان آخـر من العالم ولا فى أيـة حضارة من الحضارات القديمة .

● وقـام بعض العلماء بتجميع معظم هـذه المتون المكتـوبـة على جدران الأهـرام فى مجلـدين ضخمين يشتملان على أكثـر من ألف صفحـة ، وذلك حتى تسهل دراستهـا ووضعها تحت البحث العلمى والتفسير التاريخى ومحاولة فهم دلالاتها الدينية .

● وقد تمت ترجمة أغلبية هذه المتون ، وعرفت معانيها ومقاصدها ، وتبين أن بعض عباراتها تتكون من أدعية خاصة لضمان حياة أبدية سعيدة للملك المتوفى فى الدار الآخرة يتضمن رؤية شعرية معبرة عن خيال واسع وثاب ، وقدرة فائقة على صياغة التشبيهات الجميلة البارعة ، والتعبير العاطفى الودى لكل ما فى العالم من كائنات تتمثل فى الأنهار والبحار والحقـول والحيوانـات والطيور والبشر ، ولـذائذ الحياة وأطـايبها ، وكـل ما فى الكون من شمس تسطع أثناء النهار وقمر ونجوم تتلألأ فى ظلام الليل .

● غير أن كثيراً من متـون الأهرام مـازالت محل بحث العلماء ، خصـوصـاً بالنسبـة لبعض العبارات الغـامضة التى لم يتم التوصل إلى معانيهـا ، ويبدو أنها كتبت بكلمات مهجورة قديمة جدا ولم تعد مستعملـة فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى اللاحقة على العصر الذى كتبت فيه هذه المتون على جدران الأهرام .

● ومع ذلك يقرر بعض العلماء والمؤرخين انه بالـرغم من أن بعض معانى النصوص الشعرية لمتون الأهرام تبدو غـريبة وغير مفهومة ، إلا أن من السهل أن يفهم منها إجمالاً انها تتضمن مجمـوعة مـن الأوصاف والأحـوال عن الطـابع الـذى كان يتخيلـه قدمـاء المصريين عن طبيعة الحياة الأبدية فى الدار الآخرة .

● وبهذا يسلم جميع العلماء والمؤرخين بأن أول شعراء العالم كانوا مصريين .

حين طالب الشعب بحقه فى الخلود

كان الحق فى الحياة الأبدية السعيدة بعد الموت ، حقاً قاصراً على الملوك وحدهم ، وكأن العالم الآخر عالم خاص لا يدخله إلا الملوك .

● وبعد سقوط الدولة القديمة بانهيار عصر الأسرة السادسة فى القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد ، اشتعلت البلاد بثورة شعبية عارمة ، انقلبت فيها الأوضاع الاجتماعية ، وهجم الفقراء على كل ممتلكات ورموز وأفراد طبقة النبلاء والأثرياء ، وضاعت هيبة الحكومة المركزية ، واضطربت الأحوال السياسية ، وتمزقت أوصال البلاد واستقلت الأقاليم تحت حكم أسرات ضعيفة . . وهو العصر الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بعصر الاضمحلال الأول الذى استمر أكثر من مائة سنة .

● ولم تكن نتائج هذا العصر سيئة على طول الخط ، بل تدل الشواهد الأثرية على ازدهار الأدب ، وعلى ظهور قوة بشرية تتمثل فى جموع الشعب بمختلف طبقاته بعد أن أيقظتهم صحوة جعلتهم يتمسكون بحقوقهم وبضرورة الاعتراف بفاعليتهم فى بناء المجتمع المصرى . . وكان أهم الحقوق التى نادى بها الشعب ، هو حقه فى حياة أبدية ـ مثل الملوك ـ بعد الموت والانتقال إلى العالم الآخر .

● ويبدو أن الملوك قد اضطروا اضطراراً إلى منح حق الخلود فى العالم الآخر إلى أفراد حاشيتهم وبلاطهم الملكى وإلى النبلاء وكبار موظفى الدولة . . ثم سلموابعد ذلك بحق كل فرد من أبناء الشعب البسطاء فى هذا الامتياز . . ووضعت شروط يتساوى أمامها الجميع للحصول على حق الاستمتاع بمباهج الحياة فى العالم الآخر .

● وقد انتشرت ديانة « أوزيريس » ـ إله العالم الآخر ـ انتشاراً واسعاً منذ بداية القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد فى عصر الدولة الوسطى [الأسرات ١١ ، ١٢ ، ١٣] .

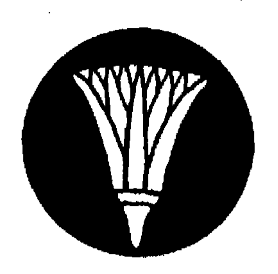
وكـانت هذه الـديانـة قـريبة إلى وجـدان الشعب المصرى القديـم بمختلف طبقاتـه ، باعتبارها تمثـل « الحياة والموت والقيامة » وهى مفاهيم واضحة تمامـاً فى البيئةالمصرية ، حيث تخضر الأرض بعد موات ، وحيث يفيض النيل بعد التحـاريق ، وتتجدد مظاهر الحياة فى دورة أبدية خالدة .

● غير أن ديانة أوزيريس لم تظهر هكذا فجأة ، بل كانت ديـانة ثابتة يرجع ظهورها إلى عصور غارقة فى القدم ، وكانت متمركزة فى بلدة أبيدوس [العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج حـاليا] . . وقد وجد فيهـا الشعب المصرى القديم سنداً لـه فى حقه فى الخلود بناءً على مـا يقررة الإلـه أوزيريس فى محاكمـة عادلـة توزن فيهـا خيرات المتوفى وسيئـاته لتقرير مآله ومصيره فى العالم الآخر .

● وهكذا أصبح لزامـاً على المتوفى أن يقر فى تلك المحاكمة بأنـه نقى السريرة صنّاع للخير غير معتد ولا أثيم ، وانـه لم يكذب ولم يسرق ولم ينظر إلى زوجة جـاره بسوء ، ولم يعتـد على حق أرملـة ولا مـال يتيـم ، ولم يلـوث مـاء النيل ، ولم يطفـف فى الكيل ولا الميزان ، ولم يتلاعب بعلامات حدود الحقول الزراعية ليجور على أرض الآخرين .

● هذه الاعترافـات كانـت تنظم شعراً ، وكـان لها تأثير عميق ممـاثل لتأثير التراتيل الدينيـة الأخرى المنظومـة شعراً ، لتضفى على المتعبد سحـراً روحانياً يسمـو بالنفس إلى أسمى الغايات والمثل العليا . . لذلك فقـد انتشرت أناشيد الشعر الدينى ، وأصبحت نصوصها محفوظة عن ظهر قلب ، وتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل .

● ولذلك فلم يكن من الغريب ظهور الآلاف من قصائد الشعر الدينى التى يرجع تاريخهـا إلى حقب التاريخ المصرى القديم ، مسجلـة على جدران المعابد والمقـابر وعلى جوانب التوابيت ، أو مكتوبة على صفحات البرديات المزينة برسوم ملونة تصور مشاهد من العالم الآخر كما كان يتخيلها المصريون القدماء .



غزل المصريين القدماء فى نهر النيل

تساءل أمير الشعراء أحمد شوقى مخاطباً النيل فى مجراه : « من أى عهد فى القرى تتدفق . . وبأى كف فى المدائن تغدق . . ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقرق » . ويمكننا أن نقول أن هذه التساؤلات الجميلة التى صاغها أمير الشعراء تمجيداً للنيل كانت صدى لمثيلاتها من التساؤلات والتمجيدات التى أطلقها الشعراء المصريون القدماء تمجيداً للنيل واعترافا بفضله على كل من عاش على أرض مصر .

● وقد أدرك قدماء المصريين منذ البداية فضل النيل عليهم وعلى كافة شئون حياتهم ، حيث امتدت حقولهم على ضفافه وروابيه تمدهم بالخيرات من حبوب وثمار وخضراوات ، طعاماً وشرابا هنيئاً لهم ولدوابهم . . وبين الحقول المترامية على الشاطئين أقاموا قراهم ومدنهم ، واتخذوه طريقاً يسهل لهم الاتصالات المتبادلة بين الشمال والجنوب ، فكان الركيزة المثلى التى ارتكزت عليها وحدة الوجهين البحرى والقبلى ، ونشأة الدولة ذات الحكومة المركزية التى يعتبرها المؤرخون أول دولة انشئت للناس فى مشارق الأرض ومغاربها .

● ويعتبر الاحتفال بوفاء النيل من أقدم الأعياد والاحتفالات الشعبية التى عرفها البشر ، واستمر الاحتفال بهذا الوفاء على مدى آلاف السنين من التاريخ المصرى القديم والحديث . . وكان هذا الاحتفال السنوى من أكثر الاحتفالات شعبية وصدقاً فى مصر ، ولكن للأسف الشديد أصابه الاهمال ضمن ما أصاب ، فانزوى هذا العيد الشعبى وتقلص ، وأصبح عيداً من الدرجة الثانية ، لا تعطل فيه المصالح والدواوين ، ولا تتاح فيه فرصة للمصريين للتعبر عن وفائهم للنيل وفرحتهم بوفاء النهر الخالد الذى وهبهم الأرض التى يعيشون عليها ، ومهد أمامهم سبل الحياة ، ومنحهم القدرة على إرساء أعظم الحضارات القديمة فى تاريخ الانسان .

● ولا جدال فى أن تلـك العلاقـة العاطفية التـى كان يكنهـا قدمـاء المصريين لنهر النيل قد أخذت فى العصور القديمة طابع التقديس ودخلت إلى مجال العقائد الدينية . ولذلك فلم يكـن غريباً أن يضفوا على النيل صفـة الألوهية ، فجعلوه إلها أطلقـوا عليه اسم «حابى» أو «حعبى» .

● ولكن هذا الإله لم يكن مثل الآلهة المتعددة التى كانت تعبد فى مصر القديمة ، ولم تكن له عبادة منظمة أو طقوس ومراسم لابد من الالتزام بها . . وصوروه فى هيئة بشرية فى صورة رجل ذى جسـم ممتلىء ، وتظهر فى ملامحه سمات النبل والثـراء ، ولكنه رجل يجمع بين الذكورة والأنوثة ، له بطن مثل بطون الحبالى ، وثديان كبيران كأنهما ثديا إمرأة تنبثق المياه من حلمتيهما مثل اللبن الذى ترضع بـه الأم الرؤوم أبناءها . وفى هذه الصفة التى تجمع بين الرجولة والأنوثة تعبير واضح على اعتبار النيل رمزاً للخصوبة والقوة التى تمنح الحياة وتهب الماء والغذاء كما تفعل الأم نحو أبنائها الصغار .

● ومن المؤكد أن شعراء مصر القـديمة قد صاغوا عبر آلاف السنين قصـائد شعرية فى مـدح النيل والاعتراف بفضلـه . وقد تـم العثور على إحـدى هـذه القصائد ، وقـام بترجمتها عن الهيروجيلفية عالم الآثار «ماسبيرو» نجتزىء منها أبياتا تقول : «هو النيل يفيض على الأرضين فتمتلىء مخازن الحبـوب . . وتتوافر حـاجات الفقراء . . هـو النيل يمنح لأبنائه جميع الخيرات ويطعمهم ويسقيهم ماء الحياة . . وإذا هو لم يطعم الناس ، يهجر النعيم كل البيـوت والمساكن . . وتصاب الأرض بـالخراب . . هو النيل منشىء السفن ومحقق الأمانى» .

● وهناك العديد من الأبيات الشعرية الأخرى يدور موضوعها حول الاعتراف بفضل النيل . . الذى يطعم الناس ويروى المراعى لتتغذى الماشية . . ونداه ينزل من السماء مطراً . . وهو صاحب الغلال ومخزن الأسماك والطيور . . ولولاه لا يستطيع الانسان أن يتنفس أو يعيش فيموت ملايين من الناس . . وحين يرتفع الماء فى مجراه يفرح الناس بقلوبهم ويضحكون مسرورين . . ومن كان منهم فى حزن يصبح فى ابتهاج ويمتلىء قلبه غبطة . .

« هو النيل . . لو أن ما تعجنه يداه كان ذهباً أو فضة لما أكله الناس . . لأنهم لا يأكلون الذهب ولا الفضة . . وإنما يأكلون القمح . . وهو أفضل من الأحجارالكريمة» •



أغانى الحب والغزل فى مصر القديمة

كان قـدماء المصريين مـولعين بحب الحيـاة الدنيـا بكل ما فيهـا من مباهـج ولذائذ ومتع . . وكانوا أهل فرح ومرح ، يعشقون الموسيقى والغناء ، بل ويستمتعون بمصاحبة المغنين المحترفين أثناء الغناء فيرددون من ورائهم بعض مقاطع مـا ينشدونه من أغانى أو يصحبـون « ريتم » الموسيقـى وإيقـاعـاتها بالتصفيـق بـالأيـدى . . تماماً مثلهـا يفعل المستمعـون العـاصرون مـن أهل الـريف والأحيـاء الشعبيـة المصريـة ورواد الحفـلات الغنائية .

● ويقول المؤرخـون وعلماء الحضارات أن أغـانى الحب والغزل والأغـانى العـاطفية بصفة عامة لا تظهر فى حياة الأمم إلا بعد انقضاء قـرون طويلة من البدايات الحضارية الأولى . . وخلال تلـك القرون تتطور مشـاعر وأحـاسيس الأفراد ، وتتربى عـواطفهم حتى تحسن وتجيد أسـاليب التعبير المهذب عن لـواعج الحب المتبادل بين الجنسين . . وهذه الأساليب تعبربدورها عن معالم البيئة التى يترعرع فيها هذا الحب ، وعن العادات والتقاليد السائدة فى المجتمع والتى تحكم العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة .

● وقد تركت لنا بعض الحضارات القـديمة فى الصين والهند واليونان بعض الأشعار التى كانت تعتبر نوعاً من الأغانى العاطفية إلا أن مـا تركته لنا الحضارة المصرية القديمة من أمثال تلك الأشعار الغنائية يعتبر أقدم نصوص عثر عليها لأغانى الحب والغزل .

● ولحسن الحظ فقـد تم العثـور على عشرات مـن أوراق البردى التى كتبت عليهـا مجمـوعـات من الأغـانى والأشعـار الغزليـة ، وهى أشعـار غـايـة فى الـرقة والعـزوبـة والتشبيهـات الجميلة . . ولا غـرو فالعشـاق المصريون كـانو يعبرون عن أحـاسيسهم

العاطفيـة بتشبيهات تنبع من البيئـة الجميلة التى كـانت تحيط بهم . . من نهر النيل إلى خضرة الحقول وألوان الزهور ولطف النسيم وعبقرية المكان بكل ما فيه من أشجار يانعة وطيور مغردة وطبيعة ساحرة الجمال وسماء زرقاء صافية ذات سحب بيضاء ، يتلألأ فيها نور الشمس كل نهار والضوء الفضى فى الليالى المقمرة ، بالاضافة إلى عراقة الاخلاقيات والتقـاليـد الاجتماعيـة المهذبـة التـى كـانت سـائدة بين أفـراد الشعب المصرى القـديم بمختلف طبقاته ومستوياته .

● ومن أشهر هذه البرديات التى حفظت لنا هذه التراثيات الجميلة « بردية هاريس» المحفوظـة بالمتحـف البريطانى بلنـدن ، و « برديـات شستر بيتى » المحفوظـة بمتحف تورين ، كما عثر على مجموعة من الأغانـى مكتوبة على قطع من الفخار والخزف محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة . وتتضمن هذه الوثائق الأثرية مجموعة كبيرة من أغانى الحب والغـزل فى محاسن المحبـوب ، سواء فى شكـل أغانـى فرديـة يغنيهـا الحبيب أو تغنيهـا الحبيبـة ، أو فى شكل « ديالـوجـات / دويتو » أى أغـانى ثنـائية يتبـادل المحبان غنـاء مقاطعها ، ويرد كل منهما على الآخر واصفاً حبه ومشاعره العاطفية .

● ومن الدلائل والبراهين المسلم بها ، أن جميع النصـوص الغنائية المصرية القـديمة التى تم العثـور عليها كانـت تغنى مصحوبة بـآلة أو أكثـر أو بفرقة مـوسيقية كـاملة ، وذلك استناداً إلى عشرات المنـاظر الدنيـوية المنقوشة على جـدران المعابد والمقـابر والتى تصـور لنا المنشـدين والراقصين والعـازفين ومعهم آلاتهم الموسيقيـة الشهيرة ، من آلات وتريـة مثل الهارب والعود والطنبـور ، وألات النفخ مثل المزمـار والناى والأرغـول المفرد والأرغول المزدوج ، والآلات الايقـاعية مثل الطبـول والدفوف والصنجـات والمصفقات الخشبية والنحـاسية ، إلى غير ذلـك من الآلات الموسيقية التى شـاع استعمالها فى مصر القديمة .

نماذج من أشعار الحب والغزل

من العسير هنا أن نستعرض كل أغانى الحب والغزل وأشعـارها الجميلة الرقيقة التى تركها لنا قدماء المصريين مكتوبة على صفحات البرديات أو على قطع الفخار والخزف ، أو منقوشة على جـدران المقابر . ويكفينا هنا أن نقـدم بعض النماذج من تلك الأشعار لنلمس منها ما تتضمنه من تعبيرات الحب الغزل فى المحبوب .

● وسوف نـرى أن الشعراء القدمـاء المجهولين الذيـن كتبوا وأبدعـوا تلك القصائد الغـزلية لم يكن هـدفهم محصـوراً فى مجرد التعبير عن العواطـف الجياشـة التى تختلج فى نفوس المحبين ، بل كانوا يصوغون قصائدهم مشتملة إلى جانب إظهار المحبة ، بعض الخطط التى يصطنعهـا المحبّون للقاء مـع أحبابهم ، وبعض التشبيهات الجميلـة التى تنبع من جماليـات البيئة المصريـة ، بالاضـافة إلى بعض الأوصـاف البريئة والأوصـاف الجريئة المعبرة عن مدى الحب الذى يكنه قلب العاشق الولهان .

● يقول العـاشق فى إحدى الأغـانى : « حبيبتى حـديقة . . مملوءة ببراعـم وزهور اللوتس . . وصـدرها يموج بفاكهـة الحب . . وذراعاها متعة . . وشفتـاها الجميلتان شرك منصوب للطير . . وأنا أوزة برية . . يجتذبها الطعم » .

● ويقول فى أغنيـة أخرى : « حبيبتى هنـاك على الشاطىء الآخـر . . يفصل بينى وبينهـا ماء الفيضـان . . وعلى رمـال الشاطـىء تمساح يـربض متربصـاً . . ولكنى لا أخشاه ولا أرهبه . . وسأخوض الماء حتى أصل إليها فينشرح صدرى . . وافتح ذراعى لأحتويها بين أحضانى » .

● وتقول المحبوبة فى أغنية أخرى : « يحلو لى يا حبيبى أن أذهب إلى بركة الحديقة لاستحم أمام عينيك . . وأتركك تملأ ناظريك بجمالى . . فى ثوبى الكتانى الأبيض . . وقد التصق بجسمى بعد أن ابتل . . وسأنزل إلى الماء لاصطاد لك سمكة جميلة حمراء . . أضعها بين أصابعى . . تعال يا حبيبى وانظر إلى . . . » .

● ويقول الحبيب : « . . . ليتنى أكون خادمتها لأمتع نظرى برؤيتها طول النهار . . ليتنى أكون غاسل الملابس لأنعم برائحة العطر الذى يفوح من ثيابها . . ليتنى أكون خاتماً فى إصبعها . . . الخ » . [قارن هذا التشبيه بمسرحية شيكسبير روميو وجولييت حيث جاء على لسان روميو حين شاهد جولييت لأول مرة قوله : « أه . . ليتنى كنت قفازاً فى تلك اليد . . حتى ألمس هذا الخد » .

● أما أغانى « الديالوج أو الدويتو » فهى مناجاة شعرية بين حبيبين يتناجيان ويتبادلان أسمى معانى الحب . . تقول الحبيبة مثلا : « لن ابتعد عنك يا حبيبى أبداً . . وأمنيتى أن أظل فى بيتك وتحت أمرك يا أجمل الناس وأعز الناس . . وسأضع يدى فى يدك . . أروح وأغدو معك فى كل مكان ممتع . . أنت العافية . . وأنت الحياة » .

● ويقول الحبيب فى لوعة : « سأرقد فى بيتى وأتمارض . . وحين يأتى الجيران لزيارتى . . ستكون حبيبتى معهم . . وعندئذ سيصبح الأطباء فى خجل . . لأنهم لم يعرفوا دائى ولا دوائى . . أما هى فستعرف على الفور موطن الداء . . وستكون نظرات عينيها دواء يعيد الصحة إلى جسمى . . ويعيد الشفاء إلى قلبى » .

● والملاحظ فى كثير من الأشعار الغنائية التى تدور حول أحوال الحب والغزل فى مصر القديمة ، أن الحبيب كان ينادى حبيبته بكلمة « أختى » . . وأن الحبيبة كانت تنادى حبيبها بكلمة « أخى » . . ولا يفهم من ظاهر هاتين الكلمتين أن ثمة علاقة حب أو غرام كانت تقوم بين الاخوة الأشقاء ، بل يعتبر التعبير هنا مجازياً للدلالة على قدر الاعزاز الذى يكنه كل طرف للطرف الآخر ، وهو إعزاز يصل إلى مرتبة الأخوة ، ويعبر عن نظافة وطهارة العلاقة وعذريتها .

أغانى العمل والمناسبات السعيدة

وكما كان المصريون القدمـاء أهل فرح ومرح ، كانو أيضـا أهل عمل وإنتاج ، سواء فى بناء وتشييد كل هذه المنشآت المعمارية التى تركوها لنا ، أو فى مجالات الأعمال الزراعية والصناعية والتجارية والعلمية .

● أما الشواهـد الأثرية على ذلك ، فتتمثل فى آلاف النقوش التى تصور لنـا مظاهر الحياة العملية التى تدل دلالة قاطعة على الهمة والنشاط فى ممارسة الأعمال جميعها . وقد حـرص الفنانـون فى تصـوير تلـك المناظـر على إبـراز طبيعة العمـل الجماعى أو العمل الفـردى ، مع التركيـز على الحركات الإيقـاعيـة « الريتميـة » التى يقـوم بها العمال على اختلاف تخصصاتهم أثناء أدائهم لتلك الأعمال .

● هناك نقوش تصور الأعمال الزراعيـة بالتفصيل ، فتعرض عمليات إعداد الأرض وعزقهـا وتمهيدها ، ثم عمليـات الحرث والبذار والرى والحصاد ودرس الحبـوب ونقلها لتخزينها فى الصوامع .

● ونقوش أخرى تصـور الصناع والعمال والفنيين والحرفيين أثناء ممارسـة صناعاتهم وحرفهم ، سـواء فى نحت وتشكيل الأحجار ، وأعمال النجارين وصنـاع السفن النيلية والبحرية ، وأعمال النوتية والبحارة سواء عند التجديف أو عند تسيير السفن الشراعية ، وأعمال الحمالين عند ممارسة أعمال الشحن والتفريغ ، وأعمال الحدادة وتشكيل النحاس والبرونز والـذهب والفضـة والمجوهـرات ، والأعمال الفنية والعلميـة الأخرى كـالعلاج الطبى وإجراء عمليات الختان والعمليات الجراحية والعلاج الطبى البيطرى .

● وكذلك النقـوش التى تصور أعمال الرعـاة والصيادين ، سواء عنـد رعى قطعان

الماشية بمختلف أنواعها ، أو عند صيد الاسماك والطيور ، أو عند مطاردة الوحوش فى عمليات الصيد الصحراوى .

● ويقول علماء « الفولكلور » أن أداء العمل الجماعى يتطلب نوعاً من الانتظام فى أداء الحركات الجسمانية للعمال المشتركين فى هذا العمل . وهذا التنظيم يقوم به فى العادة رئيس العمال ، أو بإنشاد أغنية تتناسب مقاطعها ولحنها مع هذه الحركات . . وفى أغلب الأحوال كان العمال يرددون بعض المقاطع أو الكلمات وراء رئيسهم لتوحيد الحركة بالنسبة لجميع العمال المشتركين فى العمل ، وكان هذا هو الأصل فى نشأة وظهور « أغانى العمل » فى المجتمعات الحضارية .

● وقد ترك قدماء المصريين مجموعة كبيرة من مقاطع ونصوص الأشعار الشعبية البسيطة التى كانت تنشد غناءً أثناء أداء الأعمال الجماعية . . مثل أغانى الفلاحين والعمال والرعاة والصيادين والشيالين من حاملى الأثقال .

● كذلك فقد حرص الفنانون المصريون القدماء على تصوير مئات من مناظر الولائم والاحتفالات الخاصة التى كانت تقام فى القصور الملكية وبيوت النبلاء والأثرياء وعلية القوم ، حيث تعزف الموسيقى وتقام حلبات الرقص وتنشد الأغانى . . وكانت هناك مجموعة من الأغانى الشائعة لمختلف المناسبات السعيدة كحفلات الزواج والختان والبلوغ وغير ذلك من المناسبات الأسرية . ومنها أغنية جميلة تقول كلماتها : « كما ينزل التيار فى النيل شمالاً . . وتهب ريح الشمال جنوبا . . أجيال تذهب . . وتأتى مكانهاأجيال جديدة . . فلا تدع قلبك يحزن أبداً . . إمض يوماً سعيداً . . ولاتذكر الشر » .

● وإلى جانب تلك الأغانى التى تشيع البهجة وتضفى جوا من المرح على المدعوين ، كانت تنشد فى تلك الولائم أيضا بعض الأغانى التى تتضمن أفكاراً فلسفية أو عقائدية . وقد عثر على نص أغنية من ذلك النوع تقول كلماتها : « متع نفسك مادمت حياً . . فأنت لا تعرف ما سوف يأتى به الغد . . ومن ذا الذى عاد من العالم الآخر ليخبرنا بما يجرى فيه ؟ . . لا يستطيع أحد أن يأخذ متاعه معه إلى العالم الآخر . . وليس فى قدرة من يذهب إلى هناك أن يعود إلينا مرة أخرى ! » .

الموسيقى .. والانسان الأول

يقول الفلاسفة ومؤرخو الفنون وأساتذة الحضارات وعلماء الانثروبولوجى [علم الانسان] أن الموسيقى نشأت مع الانسان الأول . . بل أن هذا الانسان كان يستخدم الأصوات الموسيقية للتعبير عن نفسه وأحواله قبل أن ينطق باللغة ويتعلم الكلمات وتركيبات الجمل .

● ومن الحقائق المفترضة علمياً أن الانسان الأول كان لا يمكن له الاستمرار فى الحياة إلا بجوار مصدر للمياه الصالحة للشرب ، وقرب الأشجار والنباتات التى أنعم بها الله عليه لتكون جذورها وثمارها وأوراقها مصدراً لغذائه . . وفى هذه البيئة الطبيعية ظهرت أيضا الحيوانات والطيور والزواحف الصغيرة والكبيرة بكل أنواعها وفصائلها المختلفة .

● وامتلأت هذه البيئة الطبيعية بكل الظواهر المرئية والأصوات المسموعة . . فالسماء ترعد وتبرق . . والمياه الجارية ذات خرير مميز . . وعند هبوب العواصف أو خطرات النسيم تهتز فروع الأشجار والشجيرات فى حفيف خافت أو صاخب حسب الأحوال . . والطيور تصدح وتغرد أو تنعق وتصفر بنغمات مختلفة الأصوات والدرجات ، ولكل أنواع وفصائل الحيوانات والوحوش والزواحف صوت يميزه عن غيره من مخلوقات الله . ويقول الفليسوف الألمانى شوبنهاور فى ذلك : « إن العالم فى حقيقة الأمر عبارة عن موسيقى مجسمة » .

● ومن الظواهر الواضحة فى التركيبة الجسدية للجسم البشرى أن بعض أعضاء هذا الجسم ـ عندما تؤدى وظائفها الفسيولوجية ـ تعمل طبقا لإيقاع منتظم وتميل بطبيعتها إلى الانتظام الحركى ، مثل نبضات القلب ، وحركة الرئتين فى حالتى الشهيق والزفير ، وانتظام حركات الذراعين والساقين عند السير . . . الخ .

● ومن الناحيتين العلمية والفنية تتـألف الموسيقى عادة من عنصرين هما « الميلودى والريتم » أى مـن « النغم والايقاع » . وبمعنى آخر مـن الأصوات المنغمة والايقـاعات التى تصاحب هذه النغمات . لذلك يمكن القـول بأن الانسان الأول قد أدرك بالسليقة الاحساس بهذيـن العنصرين ، وأدرك منذ البـداية أن البيئـة الطبيعية التى يعيـش فيها حـافلة بـالأصـوات الموسيقية ، وأن أقـرب هـذه الأصوات الموسيقيـة إليـه هو صـوت «المناغاة» الذى يصدر من الأطفال الرضع والأطفال الصغار قبل أن يتعلموا نطق الكلام . ويقول علماء الموسيقى أن هذه المناغاة فى حقيقة الأمر يمكن اعتبارها «نغمات» موسيقية تشغل ثلاث درجات من السلم الموسيقى .

● وبالنظر إلى أن الإنسان الأول كان ميـالاً بطبعه إلى محاكاة الطبيعة كلما استطاع إلى تلك المحاكـاة سبيلاً ، بالإضافـة إلى إحساسه المتـواصل برهبة هذه الطبيعـة والمخاوف التى يمكن أن تنتج عنهـا ، يقول بعض علماء الأنثروبـولوجى أن الإنســان الأول حاول ونجح فى تقليد الأصوات التى تتردد فى البيئة الطبيعية التى يعيش فيها ، وظهرت بذلك الموسيقى البـــدائيـة الأولى . . وكـــانت آلاتها « كلهـا » مستمـــدة من أعضـــاء الجسم الإنسانى ، حيث استخـدم الفم فى الصفير وبث الأصوات المختلفـة ، كما استخدمت اليدان فى التصفيـق ، واستخدمت القدمـان فى الدق على الأرض للمحـافظة على أداء الإيقاع المنتظم .

● وهكـذا دخلت الموسيقـى وارتبطت بجميع الحضـــارات الانســانيـة الأولى التى ظهرت فى قارة افريقيا [وفى وادى النيل المصرى على وجه الخصوص] . . كما ظهرت فى قارة آسيـا فى مناطـق وسط القارة وشرقهـا وجنوبها ، خصـوصاً فى الهنـد والصين . وقد بحث العلماء هـذه الظـاهـرة الانســانيـة وكتبـوا فيهـا مئـات مـن الكتب والنظـريـات والدراســات العلمية والفنية والتاريخيـة . ويهمنا منها ما قـالوه عن « الموسيقى فى مصر القديمة » منذ عصور ماقبل التاريخ حتى نهاية العصر الفرعونى .

الموسيقى المصرية .. فى عصور ما قبل التاريخ

يقول المؤرخون وعلماء الحضارات الذين درسوا عصور ما قبل التاريخ فى مصر [وهى عصور تسبق بـآلاف السنين العصر التاريخى المصرى الذين بدأ بتـوحيد الوجهين القبلى والبحرى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد] إن المجتمعات الانسانية الأولى التى استوطنت وادى النيل المصرى وعاشت على ضفافه ، قد تركت لنا شواهد أثرية عديدة تدل بصفة قاطعة على أن هؤلاء المصريين الأوائل قد عرفوا « الموسيقى » وربطوها بالرقص والعبادة .

● ويقول مؤرخو الموسيقى إن « الموسيقى البدائيـة » التى استطاع أن يعزفها الانسان الأول مستخدمـاً أعضاء من جسمـه [الفم واليدين والقـدمين] كآلات مـوسيقية ، لم تكن بنـاء على رغبة منـه فى الاستمتـاع والتسلية والطـرب ، بل كـانت هذه الأصـوات الموسيقيـة التى ابتدعهـا وسيلته المثلى فى التعبير عـن مشاعـر الرهبـة والخوف والقلق ، والتعبير عن النداء الجنسى ، والتعبير عـن هزائمه حين ينهزم أو انتصـاراته حين ينتصر على الأخطار التى تمتلىء بها البيئة الطبيعية التى يعيش فى كنفها .

● ولما كان الإيقـاع هو ألـزم لزوميـات الأداء الموسيقى فى صـورته الأولى ، فقـد بدأ الانسان الأول ـ منذ عصور مـاقبل التاريخ ـ فى التفكير فى إيجاد وسيلة أو « أداة » تؤدى هـذا الغرض ، تكـون أكثر كفـاءة وأضخم صوتـاً من استخـدام يديـه فى التصفيق أو استخدام قدميه فى الدق على الأرض . .

● وهكـذا استطاع الانسـان الأول أن يخترع الطبـول والـدفوف بـأنوعهـا وأشكـالها المختلفة ، مستخـدماً جـذوع الأشجار المجـوفة وجلـود الحيونـات المدبوغـة . . ومن الحقـائق المؤكـدة فى علم التـاريخ الموسيقى أن « الآلات الإيقـاعيـة » كانـت أسبق فى

الظهور وأقدم بكثير من الآلات الموسيقية الأخرى كآلات النفخ الخشبية والآلات الوترية .

● وفى علم « الثقافات والحضارات الانسانية المقارنة » أجمع العلماء على أن مصر القديمة كانت تعرف الموسيقى منذ عصور ماقبل التاريخ ومروراً بجميع حقبات التاريخ المصرى القديم كله ، بل وذكروا أيضا ان مصر كانت الرائدة والسباقة فى تطوير الموسيقى ، سواء من ناحية ابتداع وتطوير صناعة الآلات الموسيقية ، أو من ناحية تطوير استخدام الموسيقى فى معظم مناحى الحياة الاجتماعية .

● وهناك مئات ، بل آلاف ، من الشوهد الأثرية المنقوشة أو المنحوتة تدل بمنتهى الوضوح على أن المصريين القدماء — منذ عصور ما قبل التاريخ وفى كل عصورهم التاريخية القديمة- قد استخدموا الموسيقى فى ممارسة الطقوس العقائدية والعبادات الدينية ، كما استخدموها فى التربية النفسية والتعليمية ، وفى حفلات الترفيه والمرح والترويح عن النفوس وإشاعة البهجة والسرور خصوصاً بعد أن اقترنت الموسيقى بالشعر والرقص والغناء .

● ولعل أكبر دليل على مبلغ السمو الحضارى الذى بلغته الموسيقى فى مصر القديمة هو الشهادة التى أدلى بها الفيلسوف الإغريقى « أفلاطون » حين دعا فى كتابه الشهير «الجمهورية » إلى ضرورة تربية شعب هذه الجمهورية تربية فنية ، وتعويده على سماع «الموسيقى المصرية » ذات القوانين والقواعد العلمية ، والتى تتميز عن جميع موسيقات الشعوب الأخرى بجمال الألحان وحلاوة الأنغام .

● وتناول المؤرخون دراسة التطور العلمى والفنى والصناعى للموسيقى المصرية القديمة فى كل مراحل التاريخ المصرى القديم . وهى دراسة متعمقة وممتعة ، وتتضمن معلومات طريفة ومؤكدة قد لا يعرفها الكثيرون .

الموسيقى المصرية .. فى عصر الدولة القديمة

حين يتحدث العلماء والمؤرخون عن « الموسيقى » ـ كعلم وفن ـ لدى الشعوب القديمة ، فإن حديثهم يقوم فى أغلب الأحوال على افتراضات أو نظريات تقبل التشكيك كما تقبل التصديق . . ولكنهم عندما يتحدثون عن الموسيقى لدى قدماء المصريين فان بحوثهم ودراساتهم تستند إلى حقائق ثابتة تؤيدها آلاف من الدلائل والشواهد الأثرية المنقوشة أو المنحوتة أو المصنوعة .

● درس العلماء والمؤرخون الموسيقى المصرية القديمة من جانبها « الفنى » باعتبارها مؤشراً يدل على الطبيعة النفسية للشعب المصرى القديم وما كان يتمتع به من الذوق الفنى العام . . كما درسوها من الناحية « العلمية » لبيان مدى ارتباطها بالعلوم الرياضية وعلوم الفلك والعلوم الفلسفية على ما سوف نرى فيما بعد . . كذلك فقد درسوها من الناحية « الصناعية » بكل تفصيلاتها الخاصة بصناعة الآلات الموسيقية سواء من ناحية الدقة فى التصميم لأداء النغمات أو الايقاعات المطلوبة من كل آلة وأيضا من ناحية جمال الشكل .

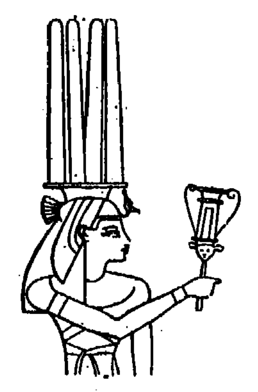
● وقد حرص العلماء والمؤرخون على دراسة التاريخ العام للموسيقى المصرية القديمة بنفس التقسيم العلمى لدراسة التاريخ المصرى القديم ، أى تقسيم هذا التاريخ إلى عصور رئيسية ثلاثة هى : عصر الدولة القديمة [من عام ٢٦٣٥ ـ إلى عام ٢١٥٥ق م] . . وعصر الدولة الوسطى [من عام ٢١٣٤ ـ إلى عام ١٦٥٠ق م] . . وعصر الدولة الحديثة [من عام ١٥٥١ ـ إلى عام ١١١٩ق م] . . ثم يجىء بعد ذلك ما اصطلح على تسميته بالعصر المتأخر الذى ينتهى عام ٣٣٢ق م حين قام

الاسكندر الأكبر بغـزو مصر وبدأ العصر البطلمى فالعصر الـرومانى . . ونبـدأ بعرض المعـالم العـامة لما انتهـت إليـه دراسات المؤرخين للمـوسيقـى المصرية فى عصر الـدولـة القديمة .

● فى ذلك العصر ـ أى منذ نحو ٤٦٠٠ سنة ـ بلغ المصريون القدماء مرحلة ناضجة فى الحضارة الموسيقيـة ، وقامـوا بتطويـر الآلات الموسيقية البـدائية التى كـانت شـائعة الاستعمال خلال آلاف السنين السـابقة على عصر الـدولة القـديمة ، كما ابتكـروا آلات موسيقية أخرى لم تكن معروفة من قبل .

● وتدل النقـوش الأثريـة التى يرجـع تاريخهـا إلى ذلك العصر الذى يغطى تـاريخ الأسرات الثالثة والرابعة والخامسـة والسادسة ، على أن العزف أو الأداء الموسيقى قد تم تنظيمه على شكل فرق مـوسيقية غنائية تتكون من عناصر ثـلاثة هى : المنشد أو المغنى الذى كان يتولى رئاسـة الفرقة وقيادتها . . وعازفو الهارب والآلات الإيقـاعية . . وعازفو الناى وآلات النفخ .

● وبدراسة تلك النقوش أيضا تبين أن الموسيقى فى ذلك العصر قد ارتبطت بالشعر والغناء والترتيـل ارتباطاً وثيقـاً ، سواء بإنشـاد الأشعار العـاطفية أو الفلسفية أو تـرتيل النصوص الدينية . . كما ارتبطت الموسيقى أيضا بـالرقص« الفنى » . . ومن المؤكد بعد دراسة حركات الراقصين والراقصات المنقوشـة على جدران المقابر التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر أن حركات الـرقص بأنواعه المختلفة كانت تصمم على أسـاس من القواعد الفنية المدروسة ولم تكن حـركات عشوائية أوكيفما اتفق ، ولذلك فقـد كان من الطبيعى أن تؤثر حركات الرقص فى الصياغة الموسيقية ، وأن تظهر بالتالى ألحان موسيقية مناسبة لأداء تلك الحركات .



الموسيقى المصرية .. فى عصر الدولة الوسطى

من الظواهر المدهشة فى الحضارة المصرية ما تؤكده النقوش الأثرية من أن مصر قد عرفت الآلات الموسيقية كاملة الصنع منذ عصور ما قبل التاريخ .

● وهناك نقش بالنحت البارز يرجع تاريخه إلى عصر ما قبل الأسرات يصور لنا أحد مناظر الصيد ، ونرى فيه تعبيراً كاريكاتيرياً لصورة ذئب يقف على قدميه الخلفيتين ويمسك بقدميه الأماميتين آلة ناى طويلة ينفخ فيها بفمه . وبتدقيق النظر فى هذا الناى نجده من النوع الطويل وذا ثقوب متعددة تمكن العازف عليه من التحكم فى حدة وغلظ النغمات .

● أما آلة الهارب ، وهى من الآلات الوترية الشهيرة فى موسيقى مصر القديمة ، فقد مرت بعديد من مراحل التطور فى صناعتها وتصميمها خلال العصر العتيق وعصر ما قبل الأسرات . ومن أقدم النقوش التى وصلت إلينا لصورة آلة الهارب المصرية وهى كاملة الصنع والتكوين ، نراها بأوتارها وصندوقها الصوتى . . وتدل هذه النقوش على أن هذه الآلة كانت ذات أحجام مختلفة ، منها الهارب ذات الحجم الكبير التى يبلغ طولها قامة الانسان ، ولذلك يقوم العازف باستخدامها وهو واقف ، ومنها آلة الهارب القصيرة ويعزف عليها العازف وهو جالس على الأرض . وقد ظلت هذه الآلة بهذا الشكل التقليدى خلال عصرى الدولتين القديمة والوسطى ، وكانت أوتارها لا تزيد عن أربعة أو خمسة أوتار ، وذلك قبل أن تتطور تطوراً هائلاً فى عصر الدولة الحديثة .

● ومن الغريب أن آلة الهارب المصرية بشكلها البسيط مازالت منتشرة بين كثير من قبائل وشعوب غرب افريقيا . كما أن هناك آلة مثيلة لها مستعملة فى بورما وبعض دول جنوب شرق آسيا .



فرقة من العازفات تقودهن عازفة على آلة الهارب



عازفة على الناى المزدوج على إيقاع

من التصفيق بالأيدى .

● أما آلة الناى فقد ظلت فى عصر الدولة الوسطى بشكلها التقليدى منذ أن ابتدعها المصريون القدماء فى عصور ماقبل التاريخ . وكان من الشائع أن يقوم عازف الناى باستخدام عدة « نايات » لتأدية مختلف أنواع الألحان ، تماماً مثل الطريقة التى يستخدمها عازفو الناى فى العصر الحديث .

● وفى عصر الدولة الوسطى ظهرت نقوش أثرية تدل على أن العزف على الناى بمختلف أنواعه [الطويل والقصير] لم يعد قاصراً على العازفين الرجال كما كان شائعاً من قبل ، بل ظهرت نقوش عديدة تصور لنا عديداً من عازفات الناى من النساء والفتيات .

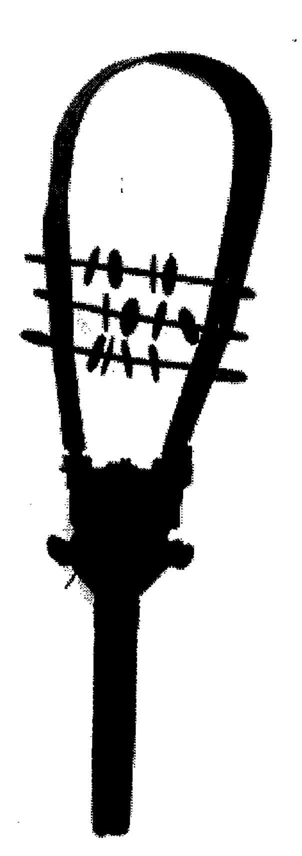
● كذلك فقد ظهرت نقوش أخرى لآلة موسيقية من آلات النفخ وهى « الزمارة المزدوجة » وهى عبارة عن قصبة من الخشب ذات بوق ينفخ فيه بالفم . وإلى جانب هذه النقوش تم العثور على زمارة مزدوجة أثرية يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى وهى محفوظة حالياً بالمتحف المصرى ببرلين . . ومازالت الزمارة المزدوجة التى اخترعها المصريون القدماء مستعملة حتى الآن فى قرى الريف المصرى ويطلقون عليها اسم «الستاوية » إذا كان عدد ثقوبها ستة ثقوب ، أو اسم « الربعاوية» إذا كانت ذات ثقوب أربعة .

● وقد حدد علماء ومؤرخو الموسيقى أنواع الآلات الايقاعية التى كانت مستخدمة فى مصر القديمة حتى عصر الدولة الوسطى فى مجموعة من الآلات هى على وجه التحديد : القضبان المصفقة وكانت تصنع من الخشب . . والأذرع المصفقة وكانت تصنع من الخشب على شكل الأيدى الانسانية . . والأرجل المصفقة وكانت تصنع هى الأخرى من الخشب على شكل الأرجل الانسانية . . والألواح المصفقة وهى ألواح خشبية يبلغ طولها نحو ٤٠ سم . . والرؤوس المصفقة وكانت تستخدم أثناء الرقص وتصنع على شكل رؤوس إنسانية أو رؤوس غزلان وتنحت من المعدن أو العظام . . والأجراس والجلاجل وكانت ذات أنواع متعددة وتصنع من المعدن . . والشخاليل وتصنع من الخيزران المجدول وبداخلها قطع من الزجاج . . والطبول بأنواعها .

● ومن أهم الآلات الايقاعيةآلة مصرية صميمة كانت تسمى آلة « السستروم » أو الصلاصل ، وكانت تصنع من البرونز أو من الذهب الخالص ، ويقتصر استخدامها فى الموسيقى الدينية التى كانت تعزف داخل المعابد ، وكان استخدامها قاصراً على النساء الكاهنات والملوك فى كثير من الأحيان .



كاهنة مصرية تعزف
على آلة السستروم .



آلة السستروم أو الصلاصل وهى آلة
إيقاعية تستخدم فى الموسيقى الدينية .

الموسيقى المصرية .. فى عصر الدولة الحديثة

فى حوالى عام ١٥٥٠ قبل الميلاد ، تمكن« أحمس » [أول بطل تحرير فى تاريخ العالم] من طـرد الهكسوس الغـزاة ، وأسس الأسرة الثامنـة عشرة التى يعتبر بعض ملوكهـا من أشهر ملـوك العالم القديم والعـالم الحديث على حد سـواء . . وبدأ بذلك عصر الـدولة الحديثة حيث سيطـرت الامبراطورية المصرية على معظـم أنحاء العالم القديم فى أفـريقيا وآسيا .

● ومما لاشك فيـه أن تلك البـلاد والمنـاطق التى فتحتهـا مصر ودخلت فى نطـاق الامبراطورية المصريـة كانت لها موسيقاها الخاصـة وآلاتها الموسيقية التى تختلف فى قليل أو كثير عن الآلات الموسيقية التقليـدية التى كـانت معروفـة فى مصر . وكما يقول علماء الحضارة ، إن حضـارات الأمم والشعوب قابلـة للامتزاج ببعضهـا طبقا لقانـون الأخذ والعطـاء . لذلـك يمكن القـول بأن الموسيقى المصريـة قـد تبادلـت التأثـر والتأثير مع موسيقـى الشعوب والأمم التى دخلت فى نطـاق الامبراطوريـة المصرية فى عصر الـدولة الحديثة .

● وتدل مئات النقوش التى يرجع تـاريخها إلى ذلك العصر على حدوث تطور هائل واسع المدى فى الموسيقى المصريـة ، سـواء من نـاحية صنـاعـة الآلات التقليديـة ، أو صناعة آلات موسيقية جديـدة لم تكن معروفة من قبل ، أو من ناحية الأداء الموسيقى . ويظهر ذلك بوضـوح فى النقوش التى تصور لنا الحفلات الموسيقية الغنـائية والراقصة ، وموسيقى الولائم والحفلات الخاصة التى كـانت تقام فى بيوت النبلاء ، والموسيقى التى كانت تعزف فى المعابد أو فى قصور الملوك .

● وبالـدراسة الفـاحصة المتأنيـة لهذه النقوش يمكن مـلاحظة أن طـابع الموسيقى

المصرية فى عصر الدولة الحديثة قد اختلف تماماً عن طابعها فى عصرى الدولتين القديمة والوسطى ، حيث كان عدد الآلات الموسيقية فى هذين العصرين محدوداً ، كما كانت هذه الآلات بسيطة وذات أصوات هادئة منخفضة . ويظهر أثر ذلك فى حركات الرقص التى أظهرتها النقوش التى يرجع تاريخها إلى هذين العصرين ، حيث تظهر حركات الراقصين والراقصات بطيئة هادئة تكاد أن تكون خالية من السرعة أو العنف .

● ويتميز طابع الموسيقى المصرية فى عصر الدولة الحديثة بالحدة والصخب والأنغام السريعة المرتفعة . ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى تعدد أنواع الآلات الموسيقية بدخول آلات جديدة وبتطور صناعة الآلات التقليدية القديمة . كما يتميز هذا الطابع أيضا بأن الغالبية العظمى من عازفى الموسيقى كانوا من النساء والفتيات ، كما يتميز كذلك بتغير السلم الموسيقى من خماسى إلى سباعى ، وهو أمر نعرضه فيما بعد .

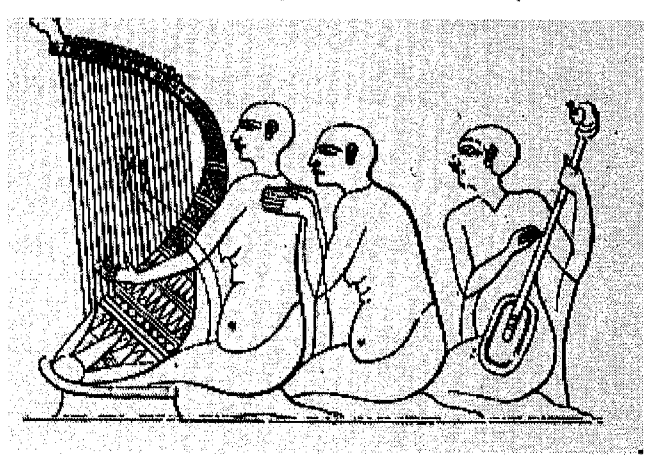
● ومن أهم الآلات الوترية التى ظهرت فى عصر الدولة الحديثة آلة « العود » وكانت ذات نوعين : العود ذو الرقبة القصيرة وهو يشبه العود الشرقى المستعمل فى مصر الآن إلى حد ما . . والعود ذو الرقبة الطويلة وهو يشبه آلتى الطنبور والبزق المستخدمتين فى الموسيقى المعاصرة . . كذلك فقد ظهرت فى نقوش الدولة الحديثة آلة موسيقية وترية تسمى « كنار » ــ بكسر الكاف وتشديد وفتح النون ــ حسب نطقها فى اللغة المصرية القديمة ، وهى آلة تشبه آلة « السمسمية » المستخدمة حالياً فى منطقة القناة .

● أما آلة الهارب فقد تطورت فى عصر الدولة الحديثة تطوراً هائلا ، حيث أصبحت تصنع من خشب الأبنوس وتزخرف وتحلى بالذهب والأحجار الكريمة ، كما تطور صندوقها الصوتى وأصبح يصمم بأشكال مختلفة ، وكبرت أحجام الآلة حتى أصبحت أكبر وأطول من قامة الانسان ، كذلك فقد ازداد عدد أوتارها كثيراً بالمقارنة بعدد أوتار آلات الهارب التى كانت مستخدمة فى عصرى الدولتين القديمة والوسطى .

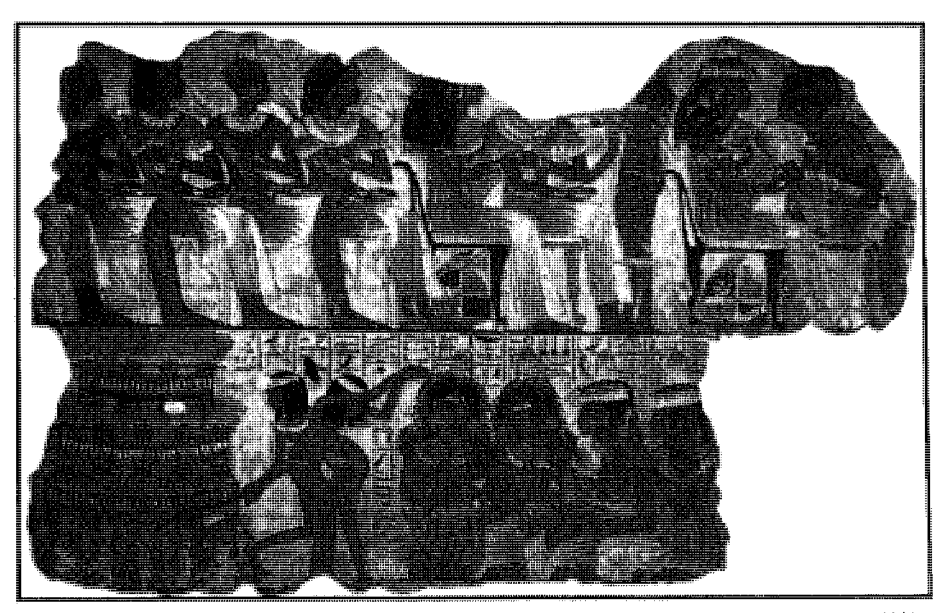
● ومن الملاحظ أن أى عازف ـ أو عازفة ـ على آلة الهارب كان يستخدم يديه الاثنتين فى العزف على وترين مختلفين فى نفس الوقت ، وبذلك كانت تخرج نغمتان متلازمتان هما « القرار والجواب » . ونتيجة لذلك يقول بعض علماء الموسيقى أن موسيقى قدماء

المصريين عرفت نـوعاً خاصاً من تعـدد الأصوات وتلازمها ، ووضعت بـذلك الأساس الذى قام عليه « علم الهارمونى » فى الموسيقى الأوربية .

● ومن آلات النفخ الجديدة التى ظهرت بمصر فى عصر الدولة الحديثة آلة « النفير » أو « البوق » وكانت تصنع من المعدن ويصل طـولها إلى نحو نصف متر أو أكثر قليلا . وكان أغلب استعماله فى الأغراض العسكرية .



عزف على آلة الهارب وآلة الطنبور .



الموسيقى والرقص فى الولائم الفاخرة .

ارتباط الموسيقى المصرية القديمة بعلم الفلك

عانيت كثيراً فى تحصيل المعلومات العلمية الخاصة بموضوعات فن الموسيقى عند قدماء المصريين ، فقد كانت هذه المعلومات عبارة عن شذرات و إشارات قصيرة متناثرة فى عديد من الكتب والمراجع والمعاجم التى تتناول التاريخ المصرى القديم والحضارة المصرية القديمة . . إلا أنى أشير إلى كتاب صغير الحجم عظيم القيمة صدر سنة ١٩٣٦ بعنوان « موسيقى قدماء المصريين» للمؤرخ الموسيقى الكبير الاستاذ الدكتور محمود أحمد الحفنى رحمه الله وأكرم مثواه ، فقد تضمن هذا الكتاب القيم معلومات علمية وفنية وتاريخية جديرة بكل تقدير واحترام عن الموسيقى فى مصر القديمة .

● ومن الموضوعات الملفتة للنظر مما ورد فى هذا الكتاب ، موضوع يتناول منزلة الموسيقى المصرية القديمة بين العلوم والفنون التى عرفتها الحضارة المصرية . . فقد كانت الموسيقى والديانة والفلك والهندسة والطب والفلسفة علوماً مقدسة . وكان الكهنة هم المشرفين على دراستها وتدريسها ، وذلك على أساس أن جميع العلوم المقدسة تتصل ببعضها وتهدف كلها إلى الرقى بالانسان والتسامى بالحياة الانسانية فى إطار من الفضائل والمثل العليا .

● وفى جميع حقب التاريخ المصرى القديم ارتبط الشعر بالموسيقى ارتباطا وثيقا حتى أصبحا فناً واحداً . وكان مفهوم الشعر فى مصر القديمة واسع المدى ، تدخل فى نطاقه أحكام الدين وأصول الحكمة والفلسفة والأمثال الشعبية ، ومعلومات التاريخ ، ومبادىء العلوم وقواعدها . وكانت له مهمة تعليمية بالدرجة الأولى تتعلق بفن الخطابة . وكانت معظم هذه القصائد الشعرية تلقى ملحنة فى صحبة الموسيقى . وجرت العادة على أن يصطحب الخطيب عازفاً ليعزف له على آلته الموسيقية ـ وغالباً ما تكون آلة الهارب ـ ويكون العزف هيناً خافتاً لطيفاً لا يشوش على صوت الخطيب و إنما

يعينه على إلقاء الخطبة بطريقة تجذب أسماع الحاضرين وتدمجهم فى الموضوع بارتياح .

● وبطبيعة الحال فقد كانت الموسيقى قاسماً مشتركاً فى التراتيل الدينية التى كانت تنشد فى المعابد ، فقد كانت هذه التراتيل منغمة وذات ألحان خاصة تعزفها آلات إيقاعية أهمها آلات « السستروم » [الصلاصل المعدنية] والكاسات والصاجات وأنواع المصفقات الأخرى .

● وقد تم العثور على نص أدبى قديم يؤكد مدى الارتباط التام بين الموسيقى والدين فى مصر القديمة . يقول النص : « عندما حكم أوزيريس أرض مصر . . رفع عنها الفقر والحياة الهمجية . . وأرشد الناس إلى روح الاجتماع وسر الحياةبما فرضه من قوانين . . وألزمهم بتعظيم الآلهة . . فهذب العالم كله . . وأدخل إليه المدنية والحضارة دون استعمال السلاح . . بل باستعمال أشرف الفنون وأحلاها . . وهى الموسيقى والشعر » .

● وقام بعض علماء ومؤرخى الموسيقى بدراسة مدى الارتباط بين الموسيقى المصرية القديمة وعلم الفلك ، فوجدوا هذا الارتباط وثيقاً وتدل عليه الشواهد الأثرية بأقصى قدر من الوضوح . . وأثبتوا أن قدماء المصريين قد لاحظوا الشبه الكبير بين الأجرام السماوية فى انتظام حركتها الفلكية وارتباطها ببعضها ، وبين النغمات الموسيقية التى تتألف منها الألحان ، وهى بدورها ذات نظام ثابت وتترابط مع بعضها فى تآلف وانسجام .

● وفى عصرى الدولتين القديمة والوسطى عرف المصريون القدماء الكواكب الخمسة الشهيرة وهى : عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل . ولذلك فقد ابتدعوا السلم الموسيقى الخماسى . . وفى عصر الدولة الحديثة أضافوا الشمس والقمر إلى تلك الأجرام السماوية ، فغيروا السلم الخماسى وجعلوه سبع نغمات أساسية تتضمن جميع الألحان الموسيقية .

● وتدل الشواهد الأثرية أيضا على أن المصريين القدماء كانوا يرمزون إلى كل نغمة من النغمات السبع التى يتألف منها السلم الموسيقى برمز هيروجليفى هو نفس الرمز الذى يشيرون به إلى كل جرم من الأجرام السماوية السبعة .

● ويقـول بعض المؤرخين وعلماء الحضـارة إن هـذه الفكرة التـى ابتـدعها قـدمـاء المصريين فى جعل السلم الموسيقى سباعياً ، كـانت الأساس الذى أوحى إلى حضارات أخرى بفكـرة تقسيم الأيام إلى أسـابيع يتألف كل منهـا من سبعـة أيام ، بل وبـاطلاق أسماء تلك الكواكب والأجرام السماوية السبعة على أيام الأسبوع .



آلة وترية وآلة إيقاعية



آلة وترية تحمل على الكتف

حركات يدى المايسترو .. ابتكار مصرى قديم

تدل النقوش الأثرية التى تصور لنا الحفلات الموسيقية والغنائية فى مصر القديمة على أن وظيفة المايسترو أو قيادة الفرقة الموسيقية كانت منوطة بالمغنى أو المنشد الذى كان يتولى رئاسة الفرقة ويوجه أداءها الموسيقى .

● وتصور لنا النقوش هذا القائد جالساً فى العادة وليس واقفاً فى مواجهة الفرقة كما هو معروف فى الموسيقى الحديثة . وكانت له طريقة تقليدية نمطية فى الجلوس جاثياً على إحدى ركبتيه ، بينما تكون ركبته الأخرى مرفوعة ومثنية .

● وفى معظم هذه النقوش نجده ملوحاً بيديه بحركات مختلفة يفهمها عازفو الآلات الموسيقية ويسترشدون بها فى عزف الأنغام المطلوبة وتنظيم الإيقاعات التى تصاحب الألحان المعزوفة . ولذلك نلاحظ أن جميع العازفين على مختلف الآلات الموسيقية سواء الآلات الإيقاعية أو الآلات الوترية أو آلات النفخ ، كانوا يواجهون المغنى [قائد الفرقة] وهم مستغرقون فى النظر إلى حركات يده لتأدية العزف المطلوب والارتفاع والانخفاض بالنغمات أو الإيقاعات طبقا لمفهوم هذه الحركات .

● ونفهم من ذلك أن حركات يدى قائد الفرقة الموسيقية كانت على درجة كبيرة من الأهمية لضبط الإيقاعات والألحان . ولذلك فلم يكن غريباً أن قدماء المصريين كانوا يرسمون « ساعد اليد » للتعبير عن كلمة « الموسيقى » فى الكتابة الهيروجليفية .

● ويقول علماء الموسيقى ومؤرخوها الأجانب إن حركات اليد فى الغناء والموسيقى المصرية القديمة هى الأصل الذى تطور وأخذت عنه طريقة « تدوين النوتة الموسيقية» . ومن المعروف فى تاريخ الموسيقى ـ كما يقول الدكتور محمود الحفنى ـ أن الأوربيين عندما ابتدعوا فكرة تدوين الموسيقى ، لجأوا فى البداية إلى استعمال الطريقة

المسماة « نويمن » NEUMEN وهى تدوين الموسيقى برموز لا تظهر مقدار حدة كل نغمة بمفردها ، ولا تظهر مقدار زمنها ، بل تبين فقط اتجاه اللحن ومقدار ما بين النغمات من مسافات . ويقول مؤرخو الموسيقى الأوربيون إن هذه الطريقة فى التدوين هى نفسها الطريقة المصرية القديمة ، والفارق الوحيد بين الطريقتين أن المصريين القدماء كانوا يرسمون حركة اليدين فى الهواء ، فى حين أن الأوربيين استطاعوا تدوين مدلول هذه الحركة على الورق .

● ومن المعروف أن تدريس الموسيقى للأطفال ـ فى العصر الحديث ـ يستعمل « لغة اليد » فى تعليم الأطفال كيفية عزف النغمات والإيقاعات . وذلك على أساس أن كل نغمة من النغمات السبع الأساسية التى يتكون منها السلم الموسيقى لها حركة من حركات اليد تدل على هذه النغمة المطلوبة .

● ومن أغرب المعلومات التى يمكن استخلاصها من النقوش الأثرية المصرية التى صورت المغنى أو المنشد فى مختلف أوضاعه ، ان المغنى عندما كان يندمج فى الغناء ، كان يضع كف يده اليسرى على خده بحيث يكون الإبهام موضوعاً خلف الأذن . ولم تكن هذه الحركة حركة مظهرية ، وإنما كانت لازمة ضرورية لتمكين المغنى أو المنشد من تنغيم صوته طبقاً للحن الأساسى الذى يؤديه ، حيث يقوم المغنى بالضغط بابهامه على مكان « قناة استاكوس » وهى القناة الهوائية الموصلة بين الأذن والأنف ، فيؤدى هذا الضغط إلى السيطرة على تموجات الهواء الموجودة بالقناة ، ويؤدى ذلك بالتالى إلى تنغيم الصوت وترخيمه طبقا للموهبةالصوتية للمغنى وخبرته ومدى كفاءة قدرته على الأداء الغنائى .

● ولهذا يمكن القول بأن تأثير الموسيقى المصرية القديمة لم يكن قاصراً على موسيقى حضارات العالم القديم فى آسيا وافريقيا ، بل امتد هذا التأثير إلى الموسيقى التى شاعت فى الحضارات الأوربية فى العصور القديمة . وأغلب الظن أن هذا التأثير كان عن طريق الموسيقى الاغريقية التى تأثرت إلى حد كبير بقواعد وقوانين الموسيقى المصرية القديمة .

آلة الأرغن .. اختراع مصرى قديم

منذ أن عرف المصريون القدماء فن الموسيقى ابتدعوا أنماطاً وأشكالاً من الآلات التى تؤدى الايقاعات والنغمات المختلفة . وكانت تلك الآلات بدائية فى بداية الأمر ، ثم قام المصريون بتطويرها عبرمراحل تاريخهم القديم وعلى مدى آلاف السنين .

● وبالنظر إلى المكانة الرفيعة التى احتلتها مصر فى العالم القديم ، فقد اعتبرت هذه الآلات نماذج لصناعةالآلات الموسيقية التى عرفتها شعوب ودول العالم القديم شرقاً وغرباً وجنوباوشمالا . . وهكذا انتقلت الآلات الموسيقية المصرية وانتقلت معها موسيقاها إلى العالم القديم ، سواء فى ذلك تلك الآلات الإيقاعية أو آلات النفخ أو الآلات الوترية .

● ويقول معظم المؤرخين أن الحضارة الاغريقية كانت الوارثة الحقيقية للحضارة المصرية القديمة ، وأن الاغريق كان لهم فضل تطوير ما ورثوه من الحضارة المصرية من فنون وعلوم ، أكثر من فضلهم فى ابتداع علوم وفنون جديدة . ويعترف المؤرخون أيضا بأن الإغريق القدماء كانوا الاساتذة الذين استرشدت بهم الحضارة الرومانية القديمة التى انتشرت بدورها فى بقاع شاسعة من قارات أوربا وآسيا وأفريقيا وفى كل المناطق التى خضعت لسيادة الامبراطورية الرومانية .

● وعن طريق الإغريق والرومان والحضارة العربية فى الأندلس ، تكونت الأسس التى قامت عليها الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى ، وانبثقت بالتالى حضارة «الرنيسانس» أو عصر النهضة فى أوربا ، والتى أدت بدورها إلى انبثاق الحضارات الأوربية الحديثة .

● و إذا طبقنا هذا التتابع فى تطور ونمو كل تلك الحضارات ، نجد أن جذورها تمتد فى أعماق التاريخ حتى تصل إلى بذورها الأولى التى نبتت فى مصر القديمة . وبالنسبة للموسيقى ، وهى فرع أكيد من فروع الحضارة ، نجد على سبيل المثال أن آله الهارب التى تحتل الآن مكانة أساسية فى بعض الأعمال الموسيقية التى تعزفها الأوركسترات السيمفونية الحديثة ، هى آلة يعترف الجميع بأنها آلة مصرية قديمة وصميمة ، مرت بمراحل عديدةمن التطور سواء فى العصور القديمة أو فى العصر الحديث .

● ولا ينكر أحد من مؤرخى الموسيقى أن « آلة الأرغن » قد ارتبطت منذ نشأتها الأولى بالتراتيل الدينية ، حتى أصبحت الآن على رأس الآلات الموسيقية الشائعة فى معظم الكنائس الأوربية وكنائس العالم الغربى بصفة عامة .

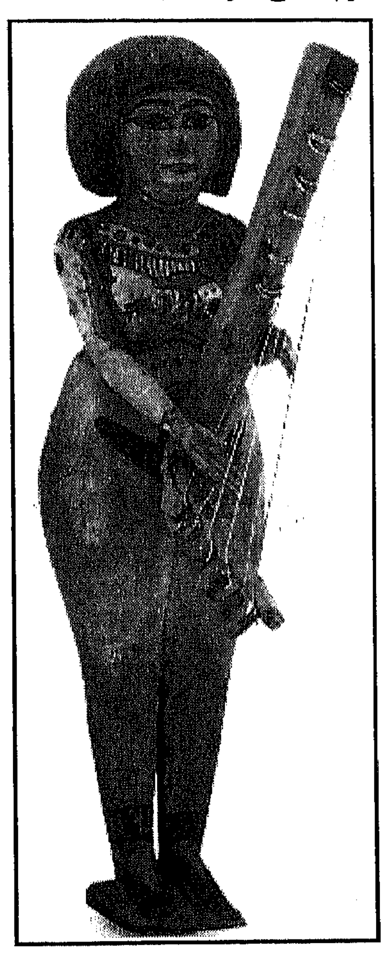
● وقد مرت آلة الأرغن ـ عبر تاريخ طويل ـ بعدة تطورات آلية وميكانيكية لعل أهمها ذلك التطور الهائل فى حجم الآلة وطريقة تشغيلها والذى حدث فى القرن الخامس عشر حيث تم صنع آلة أرغن ضخمة يقال أن صوتها كان يسمع على بعد ميل من مكان العزف عليها . وقد أدى هذا التطور إلى ظهور أنواع وأشكال وأحجام عدة من تلك الآلة على النحو الذى نعرفه الآن فى العصر الحديث .

● والأرغن من الناحية الفنية عبارة عن آلة موسيقية أنبوبية تصدر منها الأنغام من داخل أنابيب مختلفة الأطوال ، فالأنابيب الأكثر طولاً تصدر منها الأصوات الغليظة ، وكلما قصرت الأنابيب فإن أصواتها تزداد حدة . وتصدر جميع الأصوات الحادة والغليظة بواسطة الضغط على مفاتيح تشبه مفاتيح آلة البيانو . وكانت الطرز القديمة من آلة الأرغن تعمل بضغط الهواء ، أما الآلات الحديثة فقد أصبحت تعمل الآن بواسطة أجهزة كهربائية و إلكترونية . وأغرب أنواع آلة الأرغن هى « الأرغن المائى » الذى كان يعمل بضغط الماء على الهواء . وهى أقدم آلة أرغن ظهرت فى تاريخ الموسيقى ، وكان ظهورها على أرض مصر القديمة .

● ويقول الدكتور محمود الحفنى فى كتابه « موسيقى قدماء المصريين » أن أول آلة «أرغن مائى » ظهرت فى الاسكندرية خلال العصر البطلمى ، وعلى وجه التحديد نحو

عام ١٧٠ قبل الميلاد . . وكانت من اختراع شخص اسمه « كتيسيبيوس » كنوع من تطوير آلة موسيقى القرب ، وقد استعمل فيها الماء كوسيلة لضغط الهواء . وقد انتقلت صناعة تلك الآلة العجيبة من مصر وشاع استعمالها فى معظم أرجاء الامبراطورية الرومانية وفى جميع بلدان أوربا ، بعد أن كتب المؤرخ « هيرون السكندرى » آنذاك وصفاً تفصيليا لتلك الآلة وطريقة صنعها وكيفية تشغيلها .

● ونستنتج من تلك المعلومة أيضاً أن موسيقى القرب كان شائعة فى مصر القديمة حيث كانت تستعمل القرب المصنوعة من الجلد اللين فى تخزين الهواء اللازم للنفخ فى المزمار أو المزامير ذات الثقوب التى يعزف عليها العازف النغمات والألحان المطلوبة .



نموذج أثرى مصنوع من الخشب الملون لعازفة على آلة الهارب .

تأثير الموسيقى المصرية فى حضارات العالم القديم

بعد مرور نحو ثلاثة آلاف سنة على بداية التاريخ المصرى القديم ، بدأ نجم الحضارة المصرية فى الأفول ، وضعفت الدولة والحكومة ، وتعرضت مصر لمحن الغزوات المتعاقبة من جانب الليبيين ، والأثيوبيين ، والأشوريين ، والفرس ، إلى أن وقعت فى نهاية الأمر فى أيدى المقدونيين بقيادة الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، ثم بدأ بعد ذلك ما يسمى بالعصر اليونانى الزومانى .

● وبالرغم من تعرض مصر لتلك الغزوات المتعاقبة ، إلا أن شعبها قد بذل كل ما فى وسعه من امكانية التمسك بأسس الحضارة العريقة التى أرسى قواعدها ومبادئها وخصائصها على مدى آلاف السنين السابقة على تلك الغزوات . . حافظ الشعب على تراثه من الموسيقى والأغانى . وكان كهنة المعابد بنفوذهم القوى وباعتبارهم الفئة التى كانت تمثل المثقفين الذين تولوا مبادرة التمسك بأهداب الحضارة المصرية التى توارثتها الأجيال ، هم الذين حرصوا كل الحرص على حث الشعب المصرى على المحافظة على تراثه والابتعاد عن أى تأثير أجنبى دخيل .

● ويقول المؤرخون فى ذلك أن الدولة المصرية قد شاخت كما دب الوهن فى قدرة مصر العسكرية ، ولم يعد لديها سوى ذكرى الجيوش الكبرى التى قادها الملوك والفراعنة المحاربون العظام الذين نشروا النفوذ المصرى والحضارة المصرية فى ربوع ومناطق شاسعة فى آسيا وأفريقيا . . ولذلك فقد وقعت مصر فريسة سهلة لتلك الأمم الافريقية والآسيوية الغازية التى كانت تملك جيوشاً فتية مسلحة بأقوى الأسلحة ، وتحدوها رغبة عارمة فى غزو مصر والسيطرة عليها ، حيث شاعت شائعة بين تلك

الدول ، ان الدولـة التى تستطيع أن تسيطر على مصر ، تستطيع بالتـالى أن تسيطر على العالم القديم بأجمعه .

● ويقول منطق التـاريخ أن الدول ذات الحضـارة العظيمة الراسخـة إذا غلبت على أمرها وتعرضت لغزو دولة أقل منها حضارة ، فمن المؤكد أن الدولة الغازية ستتأثر بنحو أو بآخر بحضارة الـدولة المغلوبة . وهذا بالضبط ما حدث بـالنسبة للموسيقى المصرية القـديمة التى أثـرت فى مـوسيقى كل الأمم التـى قامت بغـزو مصر تبـاعاً فى العصـور القديمة . وإن كـانت تنقصنا بعض الشواهـد الأثرية أو التاريخية التـى تدل على مدى تأثـر تلك الأمم بالموسيقـى المصرية القديمـة ، فإن الشـواهد التى تـركتها لنـا الحضارة اليونانية القديمة تدل دلالة قاطعة على مدى تأثر تلك الحضارة بالموسيقى المصرية .

● وعلى سبيل المثـال يقول هيرودوت فى حديثـه عن مصر التى قـام بزيـارتها خلال القرن الخامس قبل الميلاد انه « سمع فى اليونان عشرات من الأغانى الشعبية وكلها ذات إيقاعات وألحان مأخـوذة من الموسيقى المصرية » . وإذا كانت الموسيقى اليـونانية تعتبر أقدم موسيقى فى أوربـا قامت على أسس وقواعد وقوانين علمية وضعهـا كبار الفلاسفة اليونانيين من أمثـال فيثاغورس وأفلاطون ، فإن جميع هؤلاء الفـلاسفة الكبار تعلموا فى مصر وتأثرا بحضارتها ، وأدركوا أن الموسيقى المصرية القديمة لم تكن موسيقى جزافية ، وإنما كانت تقوم على أسس وقوانين رياضية ، وكل مـا فى الأمر أن هؤلاء الفلاسفة نقلوا تلك القوانين لتبنى على أساسها موسيقاهم المحلية .

● ويكفى أن نشير هنا إلى مـاكتبه أفلاطـون فى كتاب « الجمهوريـة » حيث أوصى شعب الجمهوريـة بالاستماع والاستمتاع بـالموسيقى المصرية وحـدها ، باعتبـارها أرقى موسيقى فى العالم ، ولأنها أعظم نموذج يمكن أن تحتـذيه أى موسيقى تنشد التعبير عن الحقيقة والجمال وحلاوة النغم ، ولأنها أيضـا خير مثال لقدرة الفن الموسيقى على تهذيب العقول وترويح النفوس .

محاولات إحياء الموسيقى الفرعونية

من أغرب الحكايات التى تروى عن الآلات الموسيقية فى مصر القديمة ، ما قيل عن تجربة النفخ فى أحد المزامير التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون . . فقد قيل انه بالرغم من قدم هذه الآلة إلا أن النفخ فيها أصدر نغمة قصيرة تم تسجيلها ، وما أن أذيعت تلك النغمة فى إذاعة بى بى سى البريطانية حتى أعلنت الحرب العالمية الثانية فى أوائل سبتمبر ١٩٣٩ بعد دقائق من تلك الإذاعة .

● وأعتقد أن هذه الحكاية تعتبر نوعاً من افتعال الأخبار المثيرة التى تنشر بين حين وآخر حول أعاجيب ما يسمى « لعنة الفراعنة » . وأغلب هذه الأخبار ملفقة ولا سند لها من العلم والحقيقة .

● غير أن هناك بحوثا علمية كثيرة حاول العلماء إجراءها لمعرفة نوعية النغمات والألحان التى كانت شائعة فى مختلف العصور التاريخية لمصر القديمة . وذلك استنادا إلى ما تم العثور عليه من آلاف النقوش التى تظهر فيها صور الآلات الموسيقية التى كانت شائعة الاستعمال فى مصر القديمة ، سواء فى ذلك تلك الآلات الإيقاعية أو آلات النفخ أو الآلات الوترية ، بالاضافة إلى تلك القطع الأثرية النادرة التى تم العثور عليها مدفونة ببعض مقابر الملوك والنبلاء ، وبعض هذه الآلات الموسيقية معروضة الآن فى بعض المتاحف العالمية مثل اللوفر وليدن وتورينو ومتروبوليتان والمتحف البريطانى والمتحف المصرى بالقاهرة .

● لقد كان من السهل الميسور العثور على عشرات بل ومئات من نصوص الأشعار الغنائية سواء بالنسبة للأغانى والأناشيد والتراتيل الدينية ، أو الأغانى التى كانت تنشد لرثاء الموتى عند زيارة مقابرهم أو فى أثناء تشييع الجنازات وعمليات الدفن ، أو الأغانى

التى تتضمن أشعار الحكمة والنصائح باتباع المثل العليا فى الأخلاق والسلوكيات ، أو الأغانى الفلسفية التى تنادى بالتمتع بمسرات الحياة ولذائذها بشرط الابتعاد عن الشر أو الإثم أو إيذاء الآخرين ، أو الأغانى العاطفية بأشعارها الرقيقة التى تمجد الحب العذرى والعواطف النبيلة ، أو الأغانى المفرحة التى كانت تنشد فى الولائم والحفلات الخاصة ببيوت النبلاء أو قصور الملوك ، أو أغانى العمل التى كان ينشدها العمال والفلاحون والحرفيون والصيادون والبحارة حين كانوا يبحرون بقواربهم ومراكبهم وسفنهم فى النيل أو فى أعالى البحار .

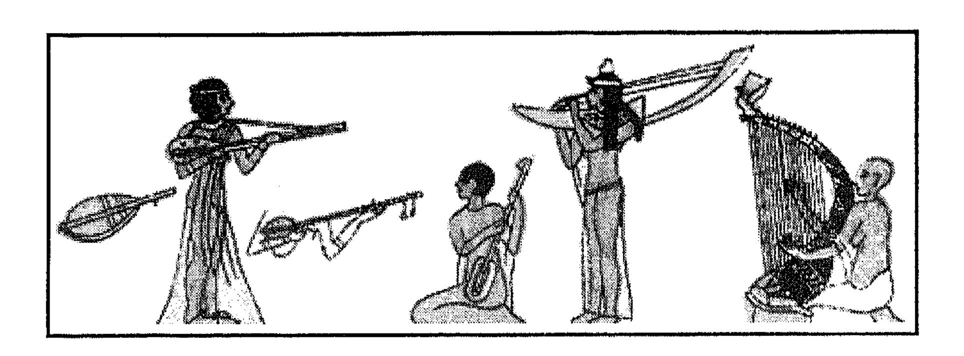
● ولكن كان من الصعب ، بل ومن المستحيل ، معرفة نوعية الإيقاعات والنغمات الموسيقية التى كانت تصاحب ألحان تلك الأغنيات . . فكيف يمكن استعادة الأصوات التى انطلقت من حناجر المغنين والمنشدين والمرتلين فأشجت سامعيها وأمتعتهم بالأشعار التى اختلفت ألحانها وتنوعت ؟! . . إن ذلك ضرب من ضروب المستحيل . . فلم تكن هناك أجهزة تسجيل تحفظ لنا تلك الألحان ، ولم تكن هناك طريقة لتدوين النوتة الموسيقية لنتعرف على طبيعة الألحان وكيفيتها .

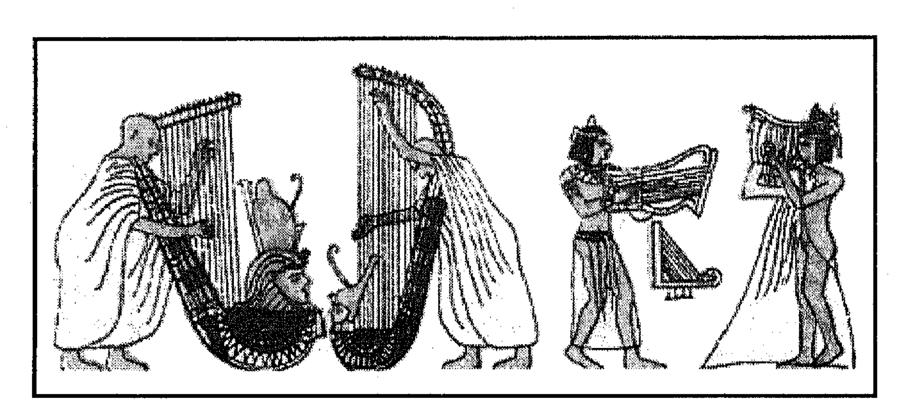
● ومع ذلك فلم تنقطع محاولات علماء الآثار وعلماء الموسيقى ــ منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن ـ فى معرفة طبيعة الأنغام التى كانت تصدرها الآلات الموسيقية التى عرفتها مصر القديمة . . وأجريت تجارب عديدة على آلات النفخ والآلات الوترية ، إذ لم تكن هناك جدوى من إجراء التجارب على الآلات الإيقاعية من طبول ودفوف ومصفقات وصلاصل وشخاليل .

●قام هؤلاء العلماء بعمل دراسات علمية دقيقة مكنتهم من صنع نماذج « طبق الأصل » من آلات النفخ التى كان يستعملها قدماء المصريين ، بنفس المقاسات ونفس السمك والطول وعدد ما فيها من ثقوب ومدى اتساعها للتحكم فى النغمات المطلوبة ، ثم قام موسيقيون محترفون بالعزف على تلك الآلات للتعرف على طبيعة الأصوات التى تصدر منها .

● وتوصل العلماء بذلك إلى نتيجة علمية مؤداها أن المصريين القدماء قد توصلوا إلى

القواعـد الحسابيـة والريـاضية للأنغـام الموسيقية ، وعـرفوا الأنغـام الكاملـة وأنصاف النغمات . واكتفى العلماء بتلك النتيجـة العلمية ، ولكنهم لم يتـوصلوا ـ ولن يتـوصل أحد ـ إلى استعادة طبيعة ونـوعية الألحان التى كـانت تؤديها هذه الآلات أثنـاء العزف الموسيقى أو أثناء الغناء .





بعض أنواع الآلات الوترية المستخدمة
فى عزف الموسيقى المصرية القديمة .

مصر القديمة .. كل أيامها أعياد

كان قدماء المصريين من أكثر شعوب العالم القديم احتفالاً بالأعياد . . كانت هناك أعياد دينية وأعياد رسمية وأعياد شعبية تغطى المناسبات الزراعية والمناسبات الخاصة بالحرف على اختلاف أنواعها ..

● ويقول الدكتور سليم حسن : « إننا يمكن أن نستخلص من النقوش والمتون المصرية القديمة أن جميع أيام السنة كانت كلها أعياداً . . ولا أدل على ذلك من أن أيام الشهر كان كل واحد منها يقام فيه عيد له اسمه الخاص به . غير أننا للأسف لا نعرف شيئا عن معظم هذه الأعياد غير أسمائها . ولا نزاع فى أن هذه الأعياد جميعها ترجع فى نشأتها الأولى إلى أقدم عصور التاريخ المصرى القديم ، إذ أنها ولدت مع العقائد الدينية المصرية العتيقة » .

● وبالدراسة المتأنية لآلاف النقوش المصرية التى يرجع تاريخها إلى مختلف حقب التاريخ المصرى القديم منذ عصور ما قبل الأسرات ومروراً بالعصر العتيق وعصر الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة والعصر المتأخر والعصر اليونانى الرومانى [أى على مدى فترة زمنية تمتد نحو أربعة آلاف سنة] . . نجد الدلائل الواضحة التى تبين لنا كيفية احتفال المصريين القدماء بأعيادهم الدينية والرسمية والشعبية .

● وكانت الأعياد الدينية تقام فى مختلف الأقاليم والبلاد المصرية . وقد وصلت إلينا ـ لحسن الخط ـ عدة نقوش ونصوص مكتوبة تشرح لنا هذه الأعياد وما كان يجرى فيها من طقوس احتفالية . وبطبيعة الحال لا يتسع المجال هنا لعرض كل هذه الأعياد ، ويكفى أن نشير إلى أشهرها .

● عيد مسرحية آلام أوزيريس : وكان يقام سنوياً فى أبيدوس [حاليا العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج] . وكانت هذه المسرحية تتألف من ثمانية فصول يستغرق عرضها

أكثر من ثمانية أيام ، تمثل خلالها كل التفاصيل المأساوية التى تعرض لها أوزيريس منذ كان يحكم مصر ويقيم العدل فى ربوعها إلى أن قتل غيلة ، ثم عودته إلى الحياة فى نهاية الأمر، تأكيداً لعقيدة البعث وعودة الحياة بعد الموت ، وهى العقيدة التى كانت تعتبر لب الديانات المصرية القديمة .

● ويقول الدكتور نجيب ميخائيل فى بحثه القيم عن « الزراعة فى مصر القديمة » إن أوزيريس كان يعتبر أيضاً إلهاً للقمح عند قدماء المصريين ، ولذلك كانت الأعياد تقام فى كافة المناطق والأقاليم المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى بمناسبة بدء حصاد القمح . . وكانت أعياداً صاخبة تقدم فيها باكورة المحصول قرباناً للآلهة المحلية بتلك الأقاليم، كما كانت تمثل فيها فصولاً من مسرحية آلام أوزيريس وبعثه إلى الحياة بعد الموت . ويقول كذلك إنه حضر احتفالاً حديثا فى إحدى قرى الصعيد بمصر الوسطى بمناسبة بدء حصاد محصول القمح . . وشاهد فى هذا الاحتفال رقصة شعبية يقوم بها رجل وامرأة يرقصان على أنغام الموسيقى الشعبية المعروفة فى صعيد مصر . وكانت الرقصة تعبيرية تؤدى بحركات رزينة فيها كثير من تعبيرات العزة والكبرياء . . وفجأة سقط الرجل على الأرض دون أن تصدر منه أية حركة ليبدو كما لو كان قد مات أو قتل . . وعندئذ اشتد رقص المرأة وهى تدور حوله فى هياج وندب وعويل وبكاء . . ثم انحنت فوق الرجل الراقد على الأرض وقبلته « قبلة الحياة » فإذا بالرجل ينهض حياً وسط تهليل المشاهدين وعلى أنغام موسيقية صاخبة تعبر عن أعلى مراحل السرور . ولا شك فى أن هذه الرقصة تعتبر سليلة الرقصات المماثلة التى كانت معروفة فى مصر القديمة والتى كانت تؤدى فى أعياد الحصاد ، وتعيد إلى أذهان من يعرف التاريخ المصرى والعقائد المصرية القديمة ذكرى قبلة الحياة التى أعطتها إيزيس لأزويريس فعاد إلى الحياة من جديد .

● ومن الأعياد المصرية القديمة التى تظهر ملامحها فى الأعياد الشعبية المصرية الحديثة عيد « الأوبت » الذى كان يحتفل فيه بخروج تمثال آمون من معبد الكرنك فى موكب صاخب حتى يصل إلى معبد الأقصر وتبدو ملامحه فى الاحتفال الحديث بمولد

«أبو حجاج الأقصرى » . . وكذلك عيد شم النسيم . . وعيد الغطاس . . وعيد وفاء النيل .

، ● ولا شك فى أن جميع هـذه الأعيـاد الدينيـة والشعبية والـرسمية [كـأعياد تتـويج الملوك] كـانت أصلح فرصة للعروض الفنيـة من تمثيل وترتيل وإنشـاد وموسيقى ورقص وغناء».



نساء من الطبقة العليا
فى أحد الاحتفالات .

الرقص المصرى القديم .. فن محترم

يجمع علماء الحضارة والاجتماع والأنثروبولوجى [علم الانسان] على أن « الرقص » كان من أقدم وسائل التعبير عن المشاعر الانسانية لدى الانسان البدائى ، وأن الرقص منذ بدايته كان مرتبطاً بما كانت تعتقده المجتمعات الانسانية البدائية فى عالم السحر والمعتقدات الدينية . ويهمنا هنا أن نعرف موقع فنون الرقص فى مصر القديمة .

● ليس هناك جدال فى أن مصر القديمة قد عرفت الرقص منذ عصور ما قبل التاريخ . وقد تم العثور على العديد من الشواهد الأثرية التى تدل على أن الرقص فى تلك العصور كان مرتبطا بالعقائد الدينية التى كانت سائدة فى تلك العصور ، وانه كان يؤدَّى لتحقيق أغراض سحرية .

● ولكن بعد أن دخلت مصر القديمة عصورها التاريخية [بعد توحيد الوجهين سنة ٣٢٠٠ ق م] بدأت الحضارة المصرية ترتقى سلم التطور لتبلغ قمة ما وصلت إليه من رقى فى عصر الدولة الحديثة [وعلى وجه الخصوص فى عصر الأسرات ١٨ ، ١٩] . وكما رأينا من قبل كيف وصلت الموسيقى المصرية القديمة إلى مستواها الرفيع فى ذلك العصر ، فقد كان من الطبيعى أن الرقص . . وهو فن مرتبط بالموسيقى والغناء أن يرقى إلى ذلك المستوى ويصبح فناً عريقاً راسخاً ذا قواعد ومناهج تحكمه فى كافة أنواعه وأشكاله .

● وقد أدى تطور الموسيقى إلى تطور حركات الرقص واتخاذه لأشكال لم تكن معروفه من قبل . كما أدى ارتباط الرقص بالموسيقى إلى مساعدة الراقصين الرجال أو الراقصات من النساء والفتيات على اتقان الحركات التعبيرية للرقص طبقا لمدى تجاوبهم مع ما تعزفه الموسيقى من إيقاعات وألحان . وبالتالى فإن هذا الاتقان يزيد بهجة المشاهدين

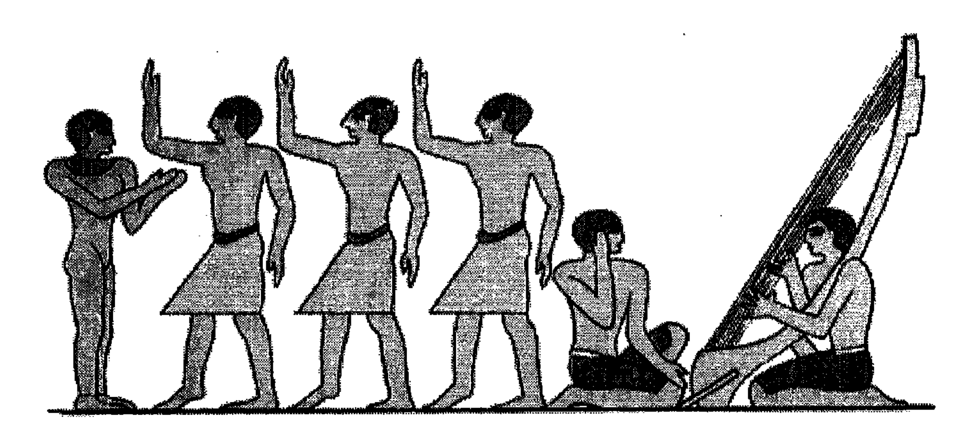
الذين أصبحوا يتمتعـون متعة مزدوجة عن طريق النظر بـالعين والسماع بالأذن . وتدل مئات النقوش الأثـرية التى تصور لنا مشاهد الـرقص فى مختلف حقب التاريخ المصرى القديـم على استخدام جميع أنواع الآلات الموسيقيـة من إيقاعيـة ونفخ ووتريـة أثناءأداء مختلف أنواع الرقصات ، وذلك إلى جانب مصاحبة الرقص فى بعض المشاهد لإيقاعات من تصفيق الأيدى أو طرقعة الأصابع .

● وقد قام كثيرون من المؤرخين وعلماء المصريات بدراسة تلك النقوش واستخلصوا منها فصـولاً ودراسات قيمـة ضمنوهـا فى كتبهم العديـدة عن التاريخ المصرى القـديم والحضارة المصريـة القديمـة . غير أن هناك كتـاباً فريـداً تخصص فى دراسة « الـرقص المصرى القـديم » للمؤلفـة التشيكية « إيـرينا لكسـوفـا » تفضل بترجمته شيخ الأثـريين المصريين الاستـاذ الدكتـور محمد جمال الـدين مختار ، وراجع تـرجمته الاستـاذ الدكتـور عبـدالمنعم أبوبكـر . رحمهما الله وأكرم مثـواهما . وقد صـدرت الطبعة العـربية من هـذا الكتاب فى مصر عام ١٩٦١ .

● وبالدراسة المتأنية لهذا الكتاب القيم نلاحظ على الفور مدى الجهد العلمى الذى بذلته المؤلفة لتجميع مادتها العلمية والتاريخية عن موضوع الرقص عند قدماء المصريين ، حيث رجعت إلى (٥٢) مـرجعـاً علمياً من الكتـب والدراسـات التـوثيقية التى قـام بها المؤرخون وعلماء المصريات ومـؤرخو الفنون منذ منتصف القرن ١٩ وحتـى تاريخ إعداد هذا الكتاب ، وأغلب هـذه المراجع مكتوب باللغة الألمانية إلى جـانب اللغتين الفرنسية والانجليزية .

● وقد خلصـت المؤلفة إلى تصنيف فن الـرقص المصرى القـديم فى (١١) نوعـاً من أنواع فنون الـرقص طبقا للنقوش الأثرية التـى تم اكتشافها والعثور عليها مـرسومة على جدران المعـابد والمقابـر أو مرسـومة على البرديات . وبـدأت بدراسة « الـرقص الحركى الخالص » الذى كان بمثابة تصريف للطـاقة الزائدة لإدخال المسرة على كل من الراقص والمشاهد . . ثم « الرقص الرياضى » وكانت له أنواع مختلفة ، حركات بعضها فى غاية الصعوبة ، ، كما يدخل فيه الرقص البهلوانى « الأكروباتيك » . . ثم « رقص المحاكاة»

وكانت حـركاته وخطواتـه محاكاة لحركات الحيـوانات أو محاكاة تمايل النباتـات أو محاكاة الظواهر الطبيعية الأخرى كهبوب النسيم والرياح . . ثم « الرقص الزوجى » الذى كان يقوم به رجلان أو امـرأتان أو رجل وامرأة . . و« الرقص الجماعى » الذى كـانت تقوم به فرقة كاملـة . . و « الرقص الحربى » كوسيلة لتسلية القوات العسكـرية ورفع معنوياتها . . و « الرقص التمثيلى » . . و « الرقص الجنائزى » سـواء عند تشييع الجنازات أو عند زيارة المقابر . . وأخيراً « الرقص الدينى » الذى كان جزءاً لا يتجزأ من الخدمة الدينية .



ارتباط الرقص بالموسيقى والغناء .

فكرة الباليه ..نشأت فى مصر القديمة

التعريف الفنى للباليه انه رقص يقوم به شخص أو شخصان أوعدة أشخاص يروون فيه مسرحية أو حكاية على أنغام الموسيقى وبحركات محسوبة تعبر عن شخصيات الحكاية ومواقفها وأحداثها .

● وظهر الباليه لأول مرة فى أوربا فى حفلات الطبقة الأرستقراطية خلال عصر النهضة خصوصاً فى إيطاليا . ثم انتقل إلى فرنسا وتطور هناك ، وظل قاصراً على أعضاء الطبقة الارستقراطية والبلاط الملكى من الرجال والنساء الذين كانوا يقومون بالرقص طبقا لخطوات وحركات مصممة سلفاً على أنغام الموسيقى ، وكانت تتخلل الرقص جمل حوارية وأشعار غنائية ، كما كانت العروض تتم داخل ديكورات معينة وبملابس خاصة تتناسب مع فكرة كل عرض وشخصياته . ومن المعروف أن الملك لويس الرابع عشر [١٦٣٨ ـ ١٧١٥ م] كان يشترك فى الرقص بنفسه فى بعض العروض ومن شدة ولعه واهتمامه بهذا الفن الرفيع أنشأ له « الأكاديمية الملكية لرقص الباليه » فى باريس .

● وانتشر فن الباليه بين الطبقات الارستقراطية فى كافة الممالك والامبراطوريات الأوربية عبر القرون التالية حتى بلغ أعلى مراحل تطوره خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، حيث أصبح فناً راقياً مستقلاً بذاته وألف له كبار الموسيقيين العالميين ، وخرج من نطاق الأرستقراطية وأصبح فى متناول متذوقى الفنون الرفيعة من جميع الطبقات الاجتماعية الأخرى .

● وإذا كان فن الباليه يقوم أساساً على فكرة التعبير بخطوات وحركات الجسم البشرى عن موقف تمثيلى معين تصحبه الموسيقى المناسبة ، فإن الباليه طبقاً لهذا المفهوم

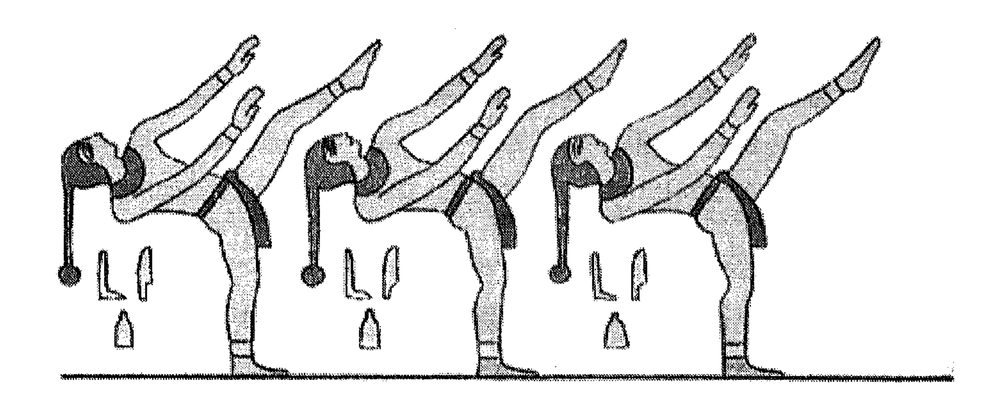
يكون قـد نشأ أولاً فى مصر القديمة ، حيث تـوجد عشرات ، بل مئـات ، من النقوش التى تصور لنا رقصات فنية يشترك فيها الـرجال والنساء ويعبرون بها عن مواقف تمثيلية وتعبيرية محددة . وقد حرص الفنانون الذين رسموا تلك النقوش على وضع « عناوين » للوحاتهم للإشارة إلى موضوع تلك الـرقصات وتوضيح الحركات التى يقوم بها الراقصون والراقصات .

● وعلى سبل المثال : هنـاك نقوش تصور لنا مشـاهد رقصة يقـوم بها رجل وامرأة ، وضع الفنـان الذى رسمها عنـاوين تختلف باختـلاف الحركات التعبيرية التـى يقوم بها الـراقصات مثل : « الاشتيـاق » . . و « الانطلاق » . . و « الـدوران المرح » . كما أن هنـاك نقوشـاً أخرى تصـور لنـا مشاهـد رقصـة يشترك فها رجـلان وامرأة تحت عنـوان «البحث عن حسناء » . . ورقصة أخرى عنوانها « الاختطاف السرى » . . . الخ .

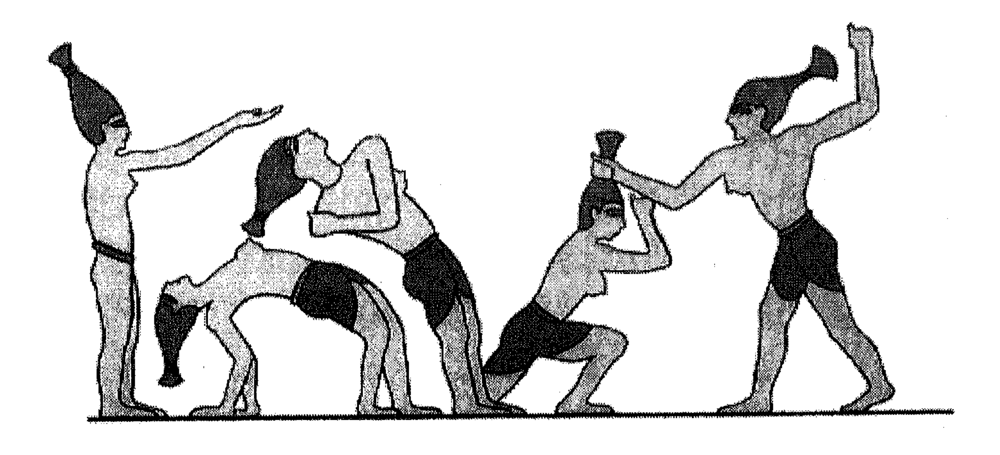
● ومن أهم المشاهد الـراقصة التى سجلتها النقوش الأثرية المصريـة القديمة والتى يمكن اعتبارها من الارهاصات الأولى لفن الباليـه بمفهومه الواسع ، المشاهد التمثيلية الراقصة التى تصور لنا رقصة بعنوان «تحت قدميك » تقوم بها امرأتان تمثل إحداهما ملكا مصريـاً منتصراً على ملك أو أمير من الأعـداء ، حيث نـرى المرأة التى تمثـل دور الملك المصرى وهى تمسك بشعر المرأة التى تمثل دور العدو وتهم بضرب هذا العدو الجاثم تحت قدميهـا تعبراً عن الاستسلام وطلبـاً للعفو والنجاة . ويصـور لنا الفنان فى هـذا المشهد الراقص مضمون تلـك اللوحة التقليدية التى ظهـرت فى بداية عصر الأسرة الأولى والتى تصور مشهد الملك مينا وهو يقبض على شعر عدو راكع تحت قدميه ويهم الملك بضرب هذا العدو على رأسه ، وهـو المشهد الذى أصبح تقليدياً واستمـر تصويره مئات المرات طوال حقبات التاريخ المصرى القديم .

● ونلاحظ فى هذا النقش الأثرى أن الفنان المصرى القـديم الذى رسم هذه اللوحة قد اكتفى بتصوير النتيجة النهائية التى تنتهى بها الرقصة التمثيلية ، ولنا أن نتخيل تلك الرقصة منـذ بدايتها ونرى الـراقصة التى تمثل دور الملك وهى تطارد الـراقصة التى تمثل

دور العدو ، كما نتخيل مشاهد المبارزة أو الصراع الذى نشب بينهما حتى ألقى العدو سلاحه وارتمى على الأرض مستسلماً تحت قدمى الملك المصرى المنتصر . أما الإيقاعات والألحان الموسيقية التى كانت تصاحب هذا الباليه المصرى القديم فإن تخيلها يعتبر ضرباًمن المستحيل .



أصعب من حركات الباليه الحديث .



حركات راقصة تعبر عن مواقف درامية

الدراما الراقصة .. فى مصر القديمة

ذكرنا فيما سبق أن الرقص نشأ مع نشأة المجتمعات الانسانية القديمة فى مختلف أنحاء العالم باعتباره وسيلة فردية أو جماعية للتعبير عن مختلف المشاعر الانسانية من أفراح وأحزان ومخاوف واطمئنان. كما أن جميع هذه المجتمعات الانسانية القديمة قد اتخذت الرقص وسيلة للعبادة وممارسة السحر إلى غير ذلك من الممارسات الاجتماعية التى كانت تتناسب مع طبيعة العمل الأساسى لتلك المجتمعات كالزراعة أو الرعى أو الصيد .

● وبالرغم من تشعب سبل المجتمعات الانسانية القديمة فى تشكيل حضاراتها المختلفة ، إلا أن معظم هذه الحضارات خصصت للرقص والغناء والموسيقى مكانا رفيعا بين فنونها بل وفى صميم الطقوس والعبادات الخاصة بعقائدها الدينية .

● وقد حظيت الكثير من تلك الحضارات القديمة بميزة الرسوخ والاستمرار بفنونها وآدابها النابعة من بيئتها المحلية والمعبرة عن عقائدها الدينية وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية . وابتدعت معظم تلك الحضارات لنفسها مجموعات من الأساطير والحكايات تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل ، وتظل لاصقة بضمير الجماعة ، معبرة عن أدق وأهم الخصائص التى تتميز بها كل حضارة عن غيرها من الحضارات الأخرى .

● وبطبيعة الحال اختلفت طرق هذه الحضارات القديمة فى كيفية تداول الأساطير وتوارثها والمحافظة على استمرارها وبقائها . وقد اتبعت كل حضارة ما يناسبها فى هذا السبيل ، مثل تدوين هذه الأساطير وكتابتها أو الحرص على حكايتها شفاهة وانتقالها بذلك من الآباء إلى الأبناء ، أو روايتها مرتلة فى المعابد بواسطة الكهنة ورجال الدين ،

أو تعليمها للتلاميـذ فى المدارس ، أو تمثيلها وعرضها داخل إطـار من الموسيقى والغناء والرقص أثناء الاحتفالات بالمناسبات الدينية والشعبية .

● ومن العسير هنـا أن نستعرض الموقف الـذى اتخذتـه كل حضارة من حضـارات العالم القديم حيـال ارتباط أساطيرها بالرقـص والغناء والموسيقى ، ويكفى أن نشير هنا إلى مثال مازال حياً وموجوداً حتى الآن بالرغم من مرور آلاف السنين على نشأته الأولى . ونعنى به « الـدراما الراقصـة » التى تعتبر من الفنون العـريقة الأصيلة لشعـوب جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى .

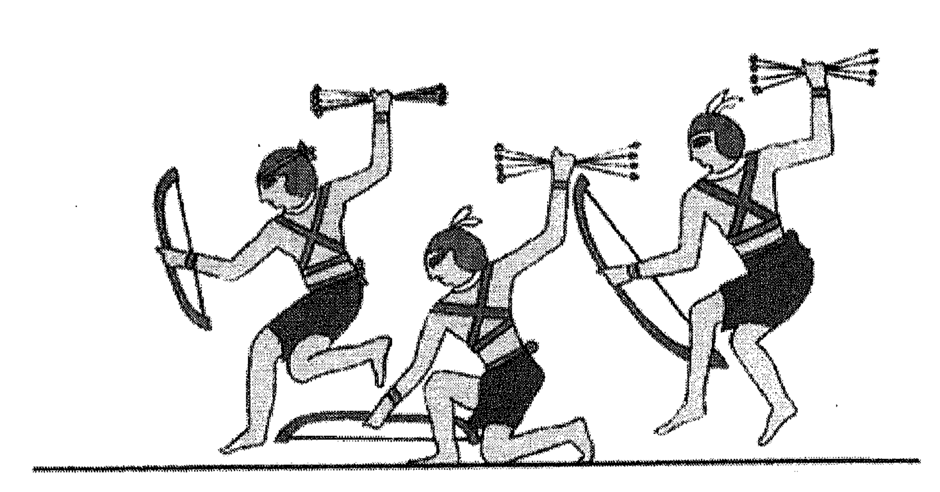
● ويمكن تعريف هذه « الـدراما الراقصة » بأنها نوع خـاص من العروض المسرحية المحليـة ، يدور حـول محور من الأساطير الشعبيـة والدينيـة القديمـة ، ويتلون بصفـة أساسيـة بكل ألوان الأيديـولوجية الصينية أو الأيـديولوجية الهنـدية أو بألوانها الممتـزجة معاً .

● ومهما اختلفت الموضوعات المحلية لتلك الأساطير بين دولة وأخرى أو بين شعب وآخر فى منطقة الشرق الأقصى فإن أسلوب ومنهج هذه الأسـاطير عند عرضها مسرحياً يتلخص فى تقديم حكايات وشخصيات وأحداث وحوارات تلك الأساطير فى إطار من التمثيل والـرقص والموسيقـى . وعلى سبيل المثـال فإن الهنـد مـا زالت تقـدم حتى الآن عروضـاً درامية راقصة مثل « شـاكونتالا » و« رمـايانا » و« بـراتايودهـا » وغيرها ، وذلك بالرغم من أن بعض هذه العروض يرجع تـاريخها إلى عدة قرون قبل ميلاد السيد المسيح وتقـوم هـذه العـروض جميعهـا على أساس مـزيـج بين تمثيل النصـوص الأدبيـة لتلك الأساطير مع الرقص الهندى التقليدى والموسيقى الهندية التقليدية .

● ويهمنا هنـا أن نشير إلى الشواهد التاريخيـة والأثرية المصرية التى تـدل على وجود مثل هذه العروض الدرامية الراقصة فى حضارة مصر القديمة . . فهناك نقوش تصور لنا عدداً من مشاهد أسطورة « إيزيس وأوزيريس » وشخصياتها المختلفة . ونشير أيضا إلى ما ذكـره « هيردت » ـ الذى زار مصر خـلال القرن الخامس قبل الميـلاد ـ من أنه شـاهد تمثيل كل الفصول السرية التى كان يقوم الكهنـة بتمثيلها داخل المعابد ، وكل الفصول

العلنية التى كانت تعرض على المشاهدين فى ساحات المعابد أوفى خارجها .

● ونكتفى هنا بعرض موجز لما ذكره « هيرودوت » فى وصف الصراع الذى دار بين أنصار « حورس » وأنصار « ست » الذى اشترك فى تمثيله ـ على قرع عنيف من الطبول ـ عشرات من الممثلين يحملون عصياً وأسلحة رمزية ، وانهمكوا فى الرقص الحربى العنيف [الذى يشبه رقصة التحطيب المعروفة الآن فى مصر المعاصرة] . وهو رقص ظنه « هيرودوت » انه صراع حقيقى بين الطرفين سقط فيه كثيرون بين مصابين وقتلى ، رغم أن المصريين أكدوا لـه أن الأمر لايعدو أن يكون تمثيلا متقناً لتأكيد انتصار الخير على الشر وفكرة تجدد الحياة إلى أبد الآبدين .



من حركات الرقص الحربى .

رقصة « الموت » الأوربية .. أصلها مصرى قديم

مؤرخـو الفنون الأوربية يتتبعون المعلـومات الشحيحة لـرقصة أوربية قـديمة تسمى «رقصة الموت » . وأرجعوا تاريخ هذه الرقصة إلى عصر الحضارة الاتروسكية التى سادت فى بعض مناطـق إيطاليا خـلال القرن الثامن قبـل الميلاد سابقـة للحضارة الرومـانية ، حيث تم العثور على نقوش فى مقبرة اتروسكية تصور بعض مشاهد هذه الرقصة .

● ويذكـر بعض هؤلاء المؤرخين ان رقصـة الموت كانت شـائعة فى كثير من المنـاطق الأوربية فى العصور الـوسطى ، وانها كانت فى الأصل مسرحية أخلاقيـة من المسرحيات الدينيـة التى ظهرت خلال القرنين ١٣ ، ١٤ تتضمـن حواراً صوتياً وحـركياً كما تتضمن تعبيرات إيمائية [بانتوميم] بين شخص يرمز إلى الموت وممثلين يرمزون إلى جميع الطبقات الاجتماعية بدءاً من بابا روما إلى أقل الأشخاص قدراً فى طبقات السلم الاجتماعى .

● وكـان الحوار الشعرى فى هـذه المسرحية مصحـوباً بمـوسيقى مناسبـة وحركـات تناسب الموسيقى ومضمون الحوار ، وذلك للتعبير عن قوة الموت باعتباره قدراً محتوماً لا مفر منه .

● وخـلال النصـف الأول من القـرن الخامـس عشر بـدأ التعبير عـن رقصـة الموت بالنقوش والـرسوم على جدران المقابـر والكنائس والكاتدرائيـات الكبرى . مثل نقوش مدافن « الأبرياء » فى باريس ونقوش كاتدرائية سان بول فى لندن .

● ثم عادت رقصة الموت إلى الظهور مرة أخرى فى الأعمال الأدبية والموسيقية الأوربية خلال القـرن ١٩ وحتى الآن . ومن أشهـر هذه الأعمال القصيـدة التى كتبها الشـاعر

والمؤلف المسرحي والروائي الألماني « يوهان فولفجانج فون جوته » [١٧٤٩ ـ ١٨٣٢] بعنوان « رقصة الموت » ، والعمل الموسيقى الرائع للمؤلف المجرى «فرانزليست» [١٨١١ ـ ١٨٨٦] والعمل الموسيقى الشهير للمؤلف الفرنسى « سان سانس » [١٨٣٥ ـ ١٩٢١] الذى زار مصر وألف هذا العمل الذى ذاعت شهرته بعنوان « رقصة الموت » DANCE MACABRE .

● والذى يهمنا هنا هو الاشارة إلى أن « رقصة الموت » هذه ذات أصل مصرى قديم، نبعت من تصنيف « الرقص الجنائزى » الذى كان شائعا فى مصر القديمة . وأغلب الظن أن الاتروسكيين الذين زحفوا فى العصور القديمة إلى بعض مناطق إيطاليا كانوا فى الأصل من سكان آسيا الصغرى . ومن المعروف أن هذه المنطقة كانت على علاقة بمصر القديمة وتأثرت بحضارتها .

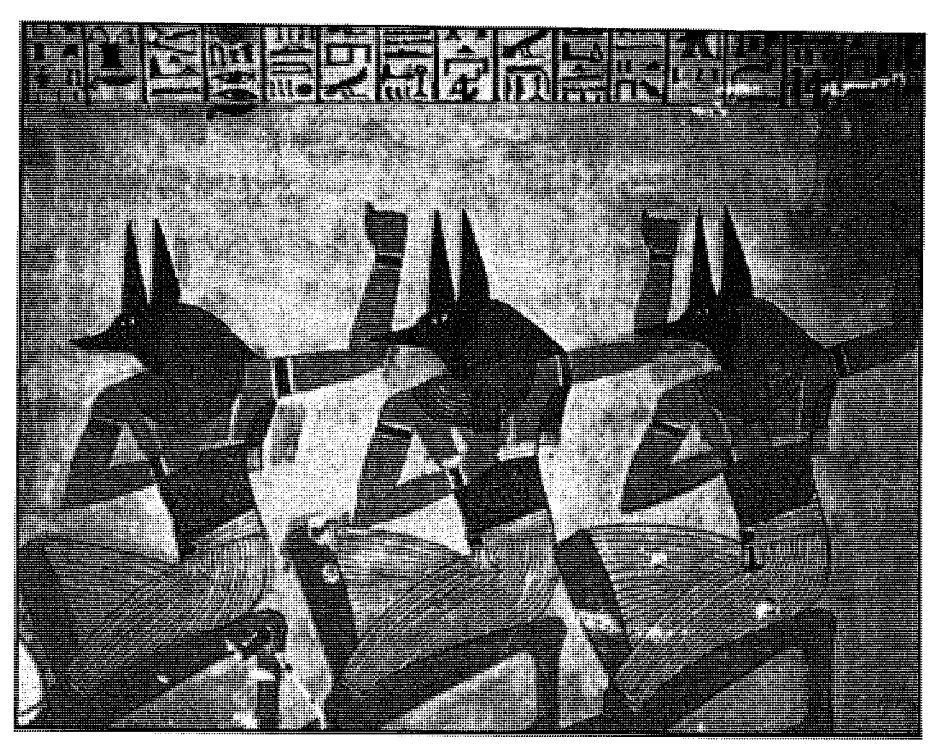
● وهناك مئات من النقوش الجدارية بالمقابر الأثرية التى يرجع تاريخها إلى مختلف حقب التاريخ المصرى القديم تصور لنا نوعاً من الرقص الدينى وهو « الرقص الجنائزى» الذى كان من العادات والتقاليد الشائعة فى مصر القديمة . وتصور معظم هذه النقوش مجموعات من النساء متشحات بأردية طويلة ، يؤدين حركات راقصة على إيقاع الدفوف ، ويلوحن بأغصان الشجر . وهناك نقوش أخرى تصور اشتراك الرجال مع النساء فى أداء هذه الرقصات الجنائزية . سواء عند تشييع جنازة الميت إلى مثواه الأخير ، أو عند زيارة المقابر لإدخال السرور إلى أرواح الموتى وللاعتبار بذكر الموت كمصير حتمى لكل البشر .

● وكان الغرض من أداء الرقص الجنائزى فى مصر القديمة هو التعبير عن حزن الفراق ، وإدخال السرور إلى روح الميت ، وطرد وإبعاد الأرواح الشريرة التى قد تؤذى الميت فى حياته فى العالم الآخر .

● وتدل النقوش الأثرية التى تصور الرقصات الجنائزية فى مصر القديمة على أن حركات الرقص بالأيدى والأذرع والسيقان أو بالجسم البشرى كله كانت ذات طابع خاص يختلف تماماً عن حركات أنواع الرقص الأخرى التى عرفتها مصر القديمة ، الأمر

الذى يؤكد أن حركات الرقص الجنائزى كانت نابعة من فكرة الموت للتعبير عن المشاعر الانسانية الخاصة بها .

● وحتى عهـد قريب جـداً ، كانت هنـاك عادة شعبيـة منتشرة فى القرى والأحيـاء الشعبية هى استئجار بعض « الندابات » طوال الأيام الثلاثة التالية لوفاة الميت ، ليقمن بضرب الدفوف وإقـامة رقصات عصبية يمكن وصفها بالهيستيريـة ، على إيقاعات من التصفيق بالأيدى ولطم الخدود .



ثلاثة راقصين يؤدون رقصة الموت وهم يلبسون أقنعة الإله أنوبيس { إله الموت } .

إحتراف الرقص وفن تصميم الرقصات فى مصر القديمة

من المشاهـد الأثرية الملفتة للنظـر تلك النقوش العديـدة التى تصور لنا عـديداً من الـراقصات المصريـات وهن يـؤدين رقصاتهن ويعـزفن ــ فى الـوقت نفسه ــ على آلات موسيقية مثل الطنابير والمزامير المفردة والمزدوجـة ، وهى آلات قد تتعب الراقصات أثناء آدائهن للرقص ، كما قد تؤدى إلى ضعف العزف الموسيقى .

● ولاشك فى أن أولئك الراقصات كن لا يستطعن تقديم مثل هذا العرض الموسيقى الراقص إلا بعد أن يجتزن تمرينات وتدريبـات شاقة على أداء مثل تلك العروض ، الأمر الذى حدا ببعض مـؤرخى الفنون إلى القول بأن مصر القديمـة عرفت نظام الاحتراف ، وكانت هنـاك راقصات من النسـاء وراقصون من الـرجال كانـوا يتخذون الرقـص مهنة وحرفة ، ويقدمون عروضهم فى الحفلات والمناسبات لقاء أجر معلوم .

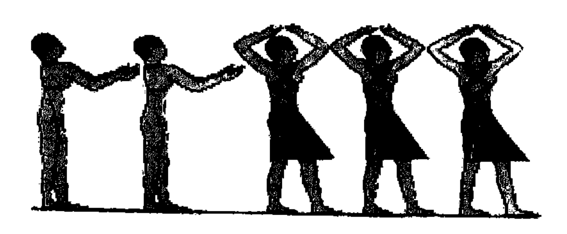
● ومن أطرف الأدلة الأثرية التى نستشف منها هذه النتيجة تلك المذكرات القديمة التى كتبها شاب من مدينة « سيراكيوز » بجزيرة صقلية كان قد زار مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ونـزل ضيفاً على أحد أثـرياء المصريين ، وكـان المضيف قد أقام لضيـوفه وليمة فاخرة تخللتهـا حفلة موسيقية راقصة ، وصفها الشـاب السيراكيوزى وصفاً شيقا ودقيقا ، تناول فيه الفرقة الموسيقية الكاملة التى كانت تتكون من عازفين وعازفات على مختلف الآلات الموسيقيـة مثل الهارب والجنك والقيثارة والكنـارة والمزمار المفـرد والمزدوج والدفوف والصنوج والشخاليل وغيرها من آلات النفخ والآلات الوترية والإيقاعية .

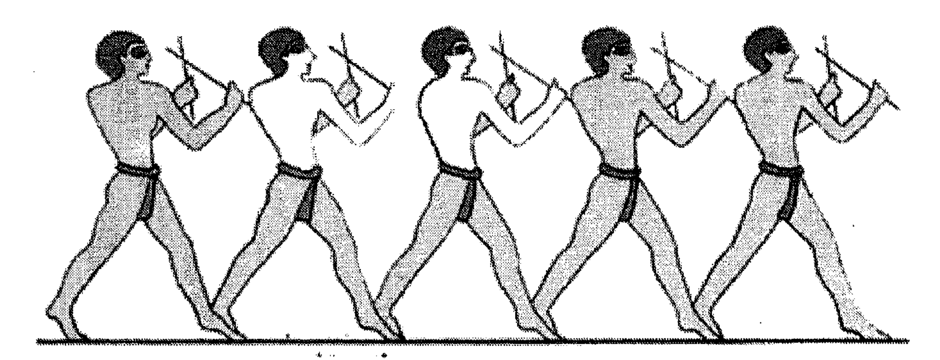
● كما وصف أيضـا ملابس الـراقصين والراقصـات وماكانـوا يرتـدونه من مـلابس ومايتحلون به من أساور وأقراط وقلائد وأكاليل من الزهور لتزيين الصدور والرؤوس .

ثم وصف عـرضاً للرقص « الأكـروباتيك » قامت بـه فرقة من الـراقصين الرجال كـانوا يقفزون قفزات عالية رشيقة ، ويصعدون فـوق أكتاف بعضهم مكونين تشكيلاً هرمياً . وبطبيعة الحال فـإن تلك الحركات الأكـروباتيـة الراقصة لا يمكـن أن تقوم بها إلا فـرقة رقص محترفة .

● وهنـاك شواهـد أثريـة أخـرى تتجلى فى النقوش التى تصـور حـركات « الـرقص الجماعى » الذى تشترك فيـه مجموعة من الـراقصات النساء أو الراقصين الـرجال أومنهما معاً . ونلاحظ فى معظم تلك النقوش أن هذا الرقص الجماعى متماثل الحركات ، بمعنى أن المشتركين فيـه من الـراقصين والراقصـات يـؤدون حركـات متماثلـة سواء بـالأذرع أو بالسيقـان أو بالأوضاع التـى تتخذها أجـزاء الجسم المختلفة أثناء الـرقص . ولا يمكن تصور تقـديم هذا العرض الراقص المنضبـط والمتماثل فى حركاته وتعبيراتـه إلا بعد عمل «بروفات » وتدريبات فنيـة لتنظيم حركات الرقص وخطواته وكافـة تشكيلاته ، وهو ما يعرف الآن بمصطلح « الكـوريوجرافى » أى فن تأليف الحركـات الراقصة سـواء أكانت فرديـة أم ثنائية أم جماعية . وهـو الفن الذى يعتمد عليـه رقص الباليه والاستعـراضات الجماعية الراقصة فى زماننا الحاضر .

● وإذا سلمنا جـدلاً بوجـود « فن تصميم الرقصـات » فى مصر القديمـة ، فسوف يكون من السهل علينا فهم وتـذوق مئات المشاهد المنقوشة على جدران المقـابر والمعابد الأثرية التـى تصور أنواعاً متعـددة من الرقص الفردى والثنائى والجماعـى ، سواء أكان رقصاً ريـاضياً أم جنائزياً . وسـوف يكون من السهل أيضا أن نتفهـم هذا التماثل الفنى الدقيـق والمتناسق فى حـركات وخطوات الـرقص الجماعى المسجلـة فى النقوش الأثـرية المصرية القديمة .





هذا التماثل فى الحركات لابد أن يكون متفقا عليه عند تصميم هذه الرقصة الجماعية .



مشهد للرقص الجماعى مع استخدام الآلات الإيقاعية .

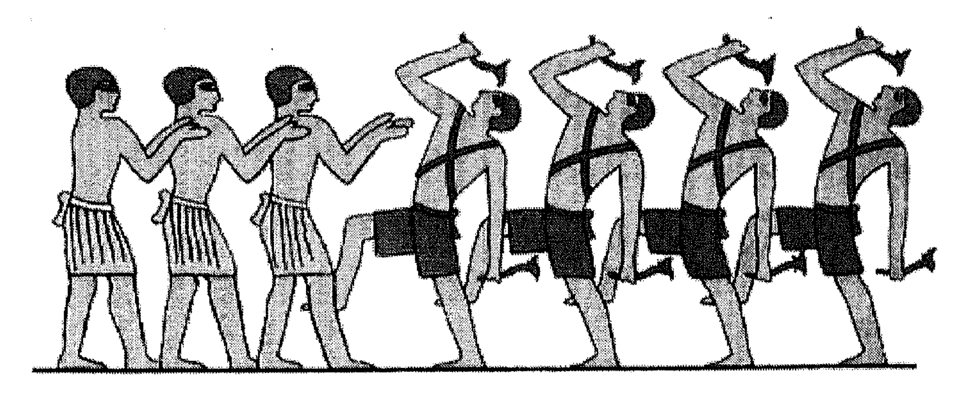
ملابس وإكسسوارات الرقص .. فى مصر القديمة

لو تأملنا مئات النقوش الأثرية التى تصور فنون الرقص فى مصر القديمة ، لهالنا هذا التنوع الكثيف فى ملابس الراقصين والراقصات والإكسسوارات أو الأدوات التى يحملونها أو يستخدمونها أثناء الانهماك فى أداء الأنواع المختلفة من الرقصات التى عرفتها مصر القديمة .

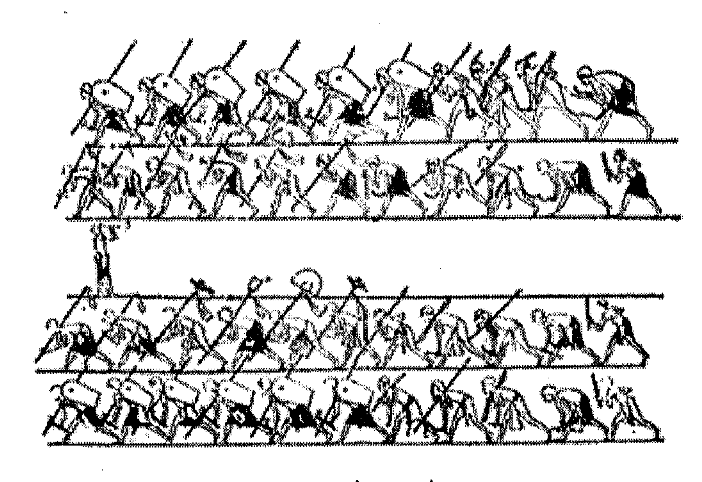
● هذا الاختلاف فى تصميم أشكال الملابس يرجع أساساً إلى عدة أسباب ، منها - طبعا - اختلاف ملابس النساء عن ملابس الرجال ، واختلاف شكل الملابس التى كانت ترتديها الراقصات المصريات عن ملابس الراقصات الآسيويات أو الأفريقيات ، واختلاف أشكال وطرق تصميم الملابس لتتناسب مع نوعية الرقصات التى كان يؤديها الراقصون أو الراقصات للتعبير عن نوعية الرقصة التى كانوا يؤدونها .

● والملاحظ بصفة عامة أن ملابس الراقصات كانت تصمم بطريقة تتيح لهن حرية التعبير بحركات أجزاء الجسم . . ولذلك فهى إما أن تكون قصيرة لإظهار حركة السيقان والأرجل ، أو تكون بلا أكمام لإظهار حركة الأذرع والأيدى . . أما إذا كانت الراقصات يرتدين ملابس طويلة ذات أكمام واسعة وتغطى أجسامهن بالكامل ، فإن هذه الملابس تكون فى العادة مصنوعة من قماش شفاف لا يحجب حركات أعضاء الجسم المستخدمة فى التعبير الراقص .

● ومن الخطأ القول بأن تلك الملابس القصيرة أو الملابس الشفافة التى كانت ترتديها الراقصات فى مصر القديمة ، كانت بقصد إثارة الغرائز باظهار مفاتن الجسم الانثوى . . فمن المعروف مثلا أن ملابس راقصات الباليه فى العصر الحديث تكشف الكثير من أجزاء الجسم ، ومع ذلك فلا تسبب للمتفرج أية إثارة لغرائزه ، وذلك



مشهد من الرقص الجماعى واكسسواراته .



مشهد من الرقص الحربى واكسسواراته .

لانصراف ذهن المتفرج إلى موضوع الباليه ، وإلى قدرة الراقصات على التعبير عن أحداث أو شخصيات هذا الموضوع ، وإلى تذوق الموسيقى الرفيعة المصاحبة للعرض ومدى تطابقها وانسجامها مع حركات الراقصات وخطواتهن والتشكيلات الفنية التى يؤدينها طبقا للتصميم الذى وضعه مصمم الرقصات ومخرج العرض .

● ومع ذلك فقد حرص الفنانون القدماء الذين صوروا مشاهد الرقص على إظهار الراقصات فى كامل زينتهن المناسبة لنوعيات الرقصات التى كن يتحلين بها من أقراط وعقود وأساور وخلاخيل وأحزمة ، بالاضافة إلى ما كن يشبكنه فى شعورهن من دبابيس وأمشاط وورود وأزهار .

● وكانت طرق تصفيف الشعر تختلف حسب « الموضة » التى كانت تسود بين سيدات كل عصر ، أو حسب ما تراه الراقصة مناسباً لوجهها ومنظرها العام . . فهناك نقوش تصور راقصات ذوات شعر طويل منسدل ، أو ذوات شعر قصير مقصوص بطريقة « آلاجارسون » أو ملموم ومرفوع إلى أعلى الرأس ليأخذ شكل التاج ، أوملموم إلى الخلف بطريقة الموضة المعروفة الآن باسم « شينواه » . كما أن هناك راقصات كثيرات كن يستعملن « الباروكات » ذات الأشكال المختلفة التى كانت سائدة فى مصر القديمة .

● أما الاكسسوارات التى كانت تستعملها الراقصات كجزء متمم للرقص فتختلف حسب طبيعة ونوعية الرقصات التى يعرضنها ، فهناك من يمسكن فى أيديهن آلات موسيقية يعزفن عليها أثناء الرقص ، ومن يمسكن بأغصان الشجر أو سعف النخيل أو زهور اللوتس ، ومن يحافظن على تنظيم الإيقاع وضبطه باستخدام الدفوف ذات الأشكال والأحجام المختلفة ، أو المصفقات الخشبية أو العاجية ، وكثير منها على شكل رؤوس غزلان .

● أما الاكسسوارات التى كان يستعملها الراقصون الرجال فتكاد تنحصر فى « الرقص الحربى » حيث يمسكون بالأقواس والسهام والحراب والدروع أو بعصى « البومورانج » وهى عصى ذات شكل تقليدى معقوف كانت تستعمل فى صيد الطيور فى مصر القديمة .

فن العرائس .. فى مصر القديمة

ارتبطت العـرائس بخيال الانسـان منـذ فجر تـاريخه الحضـارى ، فهى نتاج خيـال الانسان الأول ، وهـى المحرك المثير الـذى أوسع هذا الخيـال وأخصبه ، وزاد من أفقـه ومداركه .

● وفنون العرائس كانت معروفة لدى قدماء المصريين والفينيقيين والأشوريين والهنود والصينيين واليابانيين القدماء ، وعرفتها الحضارة اليونانية القديمة قبل أن تعرف المسرح الدرامى نفسـه . . ولا عجب فى ذلك ، فالثابـت تاريخياً أن العرائس كـانت أسبق من الانسـان فى التمثيـل والتشخيص ، وأنها كـانـت الأولى فى طـابـور الفنــون التعبيريـة الأخرى .

● وحتى نتأكـد من إثبات هـذه الفرضيـة علينا أن نسترجع مشـاهداتنـا لأى طفل يلعب بعروستـه أياً كان شكلهـا ، ولنتذكر انفعالات هـذا الطفل وانطباعاتـه من تلك العلاقة المتخيلـة بين هذا الطفل وعروسته التى يلعب بها . . إن الطفل يعـامل عروسته وكأنها انسان حى ، فهو يتبادل معهـا الحوار ، ويصدر إليها الأوامر ، أو يتلطف معها ويـرفع إليها الـرجاء ، أو يعـاقبها عنـدما يتخيـل أنها فعلت أمراً يستحق العقـاب . . وعادة يقوم الطفل بتهيئـة عروسته للنوم ولا يتركهـا إلا عندما يتأكد لديـة احساس فنى صادق بأن عروسته قد نامت فعلاً .

● إذن فنحن أمام عمليـة « تمثيل » يقوم بها الطفل بـالاشتراك مع العروسـة . وهذا التمثيل أو التشخيص هـو الذى هيأ العـرائس لكى تؤدى الأدوار التـى أبدعهـا الخيال الانسـانى وضمنها الأسـاطير والقصص الخياليـة التى تحفل بها الحضـارات الانسانيـة القديمة فى مختلف بقاع الأرض .

● وانطلاقاً من هذا الفهم نستطيع أن نعرف الدور الـذى كانت تقـوم به عشرات الدمى والعرائس التى عثر عليها بين الآثار المصرية . . فقد تم العثور على عرائس يرجع تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ فى مصر . . بالاضافة إلى عرائس أثرية أخرى من نتاج العصور التاريخية المتعاقبة فى مصر القديمة .

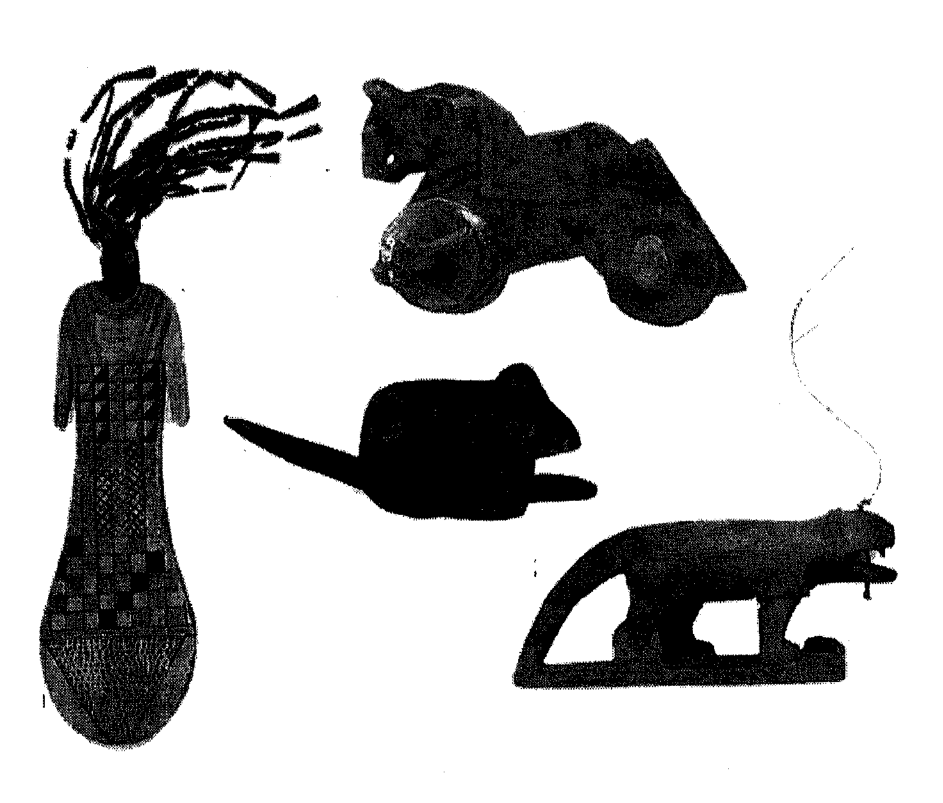
● وفى عـام ١٩٠٤ عثر عـالم الآثـار الفـرنسى « مسيـو جاييـه » على مجمـوعـة من العرائس المصريـة المصنوعة مـن الخشب وذات رؤوس مصنوعة مـن العاج وكلها قـابلة للتحريك بـواسطة خيوط تتحكم فى تحريك أجزائهـا وأطرافها . . كذلك تـوجد ضمن المقتنيات الأثرية المصرية المعروضة فى متحـف اللوفر بباريس ، عروسة على شكل ذئب ولها فم تحركه الخيوط فتحا وغلقا .

● وبـالنظر إلى سمعـة مصر القديمـة فى ممـارسة فنـون السحـر ، فقد ذكـر بعض المؤرخين أن مصر كانت المهـد الأول للسحر ، ومنها أخـذته شعوب العـالم القديم . . وثمة قصـة قديمـة مسجلة تحكى لنـا حادثـة ضبط بعض السحرة وبعض النسـاء من حريم الملك رمسيس الثالث [الأسرة العشرون] الـذين ضبطوا متلبسين ومعهم عروسة مصنوعـة من الشمع على هيئة الملـك ، وكانوا يتلـون عليها بعض التعـاويذ السحـرية قاصـدين إيقاع الأذى بـالفرعـون . وتحكى لنا القصـة وقائع التحقيق مع هـؤلاء الجناة واجراءات محاكمتهم .

● ويحكى لنا هيرودوت فى حـديثه عن مصر انه شـاهد مراسم الاحتفال بعيـد الإله أوزيريـس ، ووصـف لنا مـا شاهـده من ممارسـات احتفاليـة دينية وشعبيـة تتعلق بهذا العيد ، وذكر أيضا أن بعض النساء المصريات المصابات بالعقم ، كن يشتركن فى موكب الاحتفال وهن يحملن على رؤوسهن عرائس تتحرك بـالخيوط ويمثلن بها أسطورة مصرية قديمة تتناول موضوع النسل والإنجاب .

● وورد بدائرة المعـارف الفرنسية وصف لعـرض عرائسى من مصر القـديمة لتمثيل قصـة إيزيس وأوزريس . وكـان هـذا العرض مقسماً إلى عـدة مناظـر وفصول ، وكـان الكهنـة ينشدون أشعـاراً للتعليق على الأحـداث وتوضيحهـا . ويتضمن المنظـر الأول

عرضاً تقوم فيه إيزيس بالبكاء والنحيب على زوجها بعد مقتله . وفى المنظر الثانى تقوم إيزيس بجهـودها فى البحث على جثة زوجها التى ألقيت فى النيل . وفى المنظـر الثالث تعود إيزيس إلى النحيب على جثة زوجها بعـد أن عثرت عليها . ويتضمن المنظر الرابع والأخير المشهد العاطفى المؤثر حين تقوم إيزيس بتقبيـل أوزيريس قبلة الحياة فتعود إليه الروح وتبدأ دورة الخصب والحياة من جديد . . وفى آخر العرض العرائسى تظهر بعض الراقصات ليؤدين رقصة تعبر بـالغناء أيضا عن عودة الخصب والنماء إلى الأرض وكل ما عليها من كائنات .



أنواع من الدمى والعرائس المصرية القديمة ، وبعضها متحرك .

● أولاً : المراجع العربية :

١ ـ العمارة فى مصر القديمة — تأليف : د . محمد أنور شكرى

٢ ـ حضارة مصر والشرق القديم — تأليف : الدكاترة : إبراهيم رزقانه
محمد أنور شكرى ، عبد المنعم أبو بكر
حسن محمود ، عبد النعيم حسنين

٣ ـ الحضارة المصرية — تأليف جون ولسون — ترجمة : د أحمد فخرى

٤ ـ الماضى الحى — تأليف : إيفار ليسنر — ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد

٥ ـ الرمز والاسطورة فى مصر القديمة — تأليف : رندل كلارك — ترجمة : أحمد صيلحة

٦ ـ تاريخ مصر القديمة [جزءان] — تأليف : د . رمضان السيد

٧ ـ فن الرسم عند قدماء المصريين — تأليف : وليم بيك — ترجمة : مختار السويفى

٨ ـ تاريخ العمارة المصرية القديمة — تأليف : د . اسكندر بدوى

٩ ـ هردوت يتحدث عن مصر — تأليف : هرودت — ترجمة : د . محمد صقر خفاجة

١٠ ـ نمو الحضارة — تأليف : و . ج . برى — ترجمة : لويس اسكندر

١١ ـ علماء الآثار — تأليف : تشارلز مايكل دورتى — ترجمة : محمد عبد الفتاح ابراهيم

١٢ ـ فن التصوير المصرى القديم — تأليف : نينا ديفز — ترجمة : د . حسن صبحى بكرى ، وعبد الغنى الشال

١٣ ـ أهرام مصر — تأليف : إ . إ . س . إدواردز — ترجمة مصطفى عثمان

١٤ ـ أسرار الهرم الأكبر — تأليف : محمد العزب موسى

١٥ ـ المواد والصناعات عند قدماء المصريين — تأليف : ألفريد لوكاس — ترجمة : د . زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم

١٦ ـ فى رحاب المعبود توت — تأليف : د سامى جبره — ترجمة : عبد العاطى جلال

١٧ ـ مصر الفراعنة — تأليف : سير ألن جاردنر — ترجمة : د . نجيب ميخائيل ابراهيم

١٨ ـ عندما حكمت مصر الشرق — تأليف : جورج شتايندورف ، وكيث سيل — ترجمة : محمد العزب موسى

١٩ ـ آثار الأقصر — تأليف : د . محمد عبد القادر محمد

٢٠ ـ الآثار المصرية فى وادى النيل — تأليف : جيمس بايكى — ترجمة : لبيب حبشى ، وشفيق فريد

العنوان	التأليف	الترجمة
٢١ ـ وادى الملوك	تأليف : عزيز مرقص منصور	
٢٢ ـ الفن المصرى [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٣ ـ مصر فى عيون الغرباء [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٤ ـ مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية	تأليف : مختار السويفى .	
٢٥ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية	تأليف : د. أحمد قدرى [بالانجليزية]	ترجمة : مختار السويفى ومحمد العزب موسى
٢٦ ـ نفرتيتى الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد	تأليف : جوليا سامسون	ترجمة : مختار السويفى
٢٧ ـ سرقة ملك مصر	تأليف : محسن محمد	
٢٨ ـ مجوهرات الفراعنة	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : مختار السويفى
٢٩ ـ المجمل فى تاريخ مصر	تأليف : د . ناصر الأنصارى	
٣٠ ـ على هامش التاريخ المصرى	تأليف : عبد القادر حمزة	
٣١ ـ الموسوعة الأثرية العالمية	تأليف : مجموعة من علماء الآثار الأجانب	ترجمة : محمد عبد القادر محمد ود. زكى اسكندر
٣٢ ـ تاريخ الحضارة المصرية [العصر الفرعونى]	تأليف : نخبة من المؤرخين وعلماء الآثار المصريين	
٣٣ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى	تأليف : جيمس هنرى برستيد	ترجمة : د . حسن كمال
٣٤ ـ فى موكب الشمس [جزءان]	تأليف : د . أحمد بدوى	
٣٥ ـ موسوعة الفراعنة	تأليف : باسكال فيرنوى ، وجان يويوت	ترجمة : د . محمود ماهر طه
٣٦ ـ الأدب الثورى عبر التاريخ	تأليف : محمد مفيد الشوباشى	
٣٧ ـ مصر القديمة [١٦ جزءاً]	تأليف : د . سليم حسن	
٣٨ ـ الأدب المصرى القديم [جزءان]	تأليف : د . سليم حسن	
٣٩ ـ معجم الحضارة المصرية القديمة	تأليف : مجموعة من المؤرخين وعلماء الآثار الأجانب	ترجمة : أمين سلامة
٤٠ ـ الحضارة المصرية	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : مختار السويفى
٤١ ـ حتشبسوت : الملكة الفرعون	تأليف : سوزان راتييه	ترجمة : فاطمة عبد الله محمود مراجعة : د . محمود ماهر طه
٤٢ ـ رمسيس الثانى : فرعون المجد والانتصار	تأليف : كنث كتشن	ترجمة : د . أحمد زهير أمين مراجعة : محمود ماهر طه
٤٣ ـ الفن المصرى القديم	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : د . أحمد زهير أمين
٤٤ ـ إيمحوتب : إله الطب والهندسة	تأليف : ج . هارى	ترجمة : محمد العزب موسى
٤٥ ـ خطوات الإنسان الأول على أرض مصر	تأليف : عزت السعدنى	

٤٦ ـ المدخل إلى علم التاريخ	تأليف : د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ	
٤٧ ـ أعمال الحفر الأثرى	تأليف : ليونارد وولى	ترجمة : د . حسن الباشا
٤٨ ـ انتصار الحضارة	تأليف : جيمس هنرى برستيد	ترجمة : د . أحمد فخرى
٤٩ ـ مصر القديمة : دراسات فى التاريخ والآثار	تأليف : مختار السويفى	
٥٠ ـ الحياة اليومية فى مصر	تأليف : بيير مونتيه	ترجمة : عزيز مرقس منصور
٥١ ـ مرحلة التعليم العالى فى مصر القديمة	تأليف : سمير أديب	
٥٢ ـ الأسرة المصرية فى عصورها القديمة	تأليف : د . عبد العزيز صالح	
٥٣ ـ أبيدوس	تأليف : د . عبد الحميد زايد	
٥٤ ـ آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية	تأليف : تأليف : محرم كمال	
٥٥ ـ الطب المصرى القديم	تأليف : د . حسن كمال	
٥٦ ـ تاريخ الصيدلة والعقاقير	تأليف : الأب ج . شحاتة قنواتى	
٥٧ ـ التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة	تأليف : ليز مانكه	ترجمة : د . أحمد زهير أمين مراجعة : د . محمود ماهر طه
٥٨ ـ قدماء المصريين والاغريق	تأليف : جان فركرتيه	ترجمة : د . كمال الدسوقى ومحمد على كمال الدين مراجعة : د . محمد صقر خفاجة
٥٩ ـ فى المعرفة التاريخية	تأليف : أرنست كاسيرر	ترجمة : أحمدحمدى محمود مراجعة : على أدهم
٦٠ ـ العادات المصرية بين الأمس واليوم	تأليف : وليم نظير	
٦١ ـ فن النحت	تأليف : صبحى الشارونى	تقديم : د . ثروت عكاشة
٦٢ ـ المسرح المصرى القديم	تأليف : اتيين دريوتون	ترجمة : د . ثروت عكاشة مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
٦٣ ـ الرقص المصرى القديم	تأليف : إيرينا لكسوفا	ترجمة : د . محمد جمال الدين مختار مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
٦٤ ـ المرأة الفرعونية	تأليف : كريستيان نوبلكور	ترجمة : فاطمة عبد الله محمود مراجعة : د . محمود ماهر طه
٦٥ ـ فجر التاريخ	تأليف : ج . ل . مايرز	ترجمة : على عزت الأنصارى مراجعة : د . عبد العزيز كامل
٦٦ ـ دور المرأة فى المجتمع المصرى القديم	تأليف : د . عبد الحليم نور الدين	

٦٧ ـ الدور السياسى للملكات فى مصر القديمة	تأليف : د . محمد على سعد الله	تقديم : د . محمد جمال الدين مختار
٦٨ ـ أساطير فرعونية		ترجمة كمال الحناوى
٦٩ ـ أبو الهول	تأليف : د. سليم حسن [بالانجليزية]	ترجمة : جمال الدين سالم مراجعة : د . أحمد بدوى
٧٠ ـ الديانة المصرية القديمة	تأليف : ياروسلاف تشرنى	ترجمة : د . أحمد قدرى مراجعة : د . محمود ماهر طه
٧١ ـ معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية	تأليف : د . سيد توفيق	
٧٢ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	تأليف : أ . ج . سبنسر	ترجمة : أحمد صليحة
٧٣ ـ حديث الفنون	تأليف : أحمد شفيق زاهر وآخرين	
٧٤ ـ فى الأدب المصرى القديم	تأليف : د . أحمد عبد الحميد يوسف	
٧٥ ـ نهاية مدينة فرعونية	تأليف : الحسينى صالح	تقديم : د . ضياء أبو غازى
٧٦ ـ التاريخ والسير	تأليف : د . حسين فوزى النجار	
٧٧ ـ أساطير مصرية	تأليف : د . عبد المنعم أبو بكر	
٧٨ ـ الآلات الحجرية وعصور ما قبل التاريخ	تأليف : د . على على السكرى	
٧٩ ـ الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين	تأليف : وليم نظير	
٨٠ ـ الأزياء فى مصر القديمة	تأليف : د . محمد جمال الدين مختار ومحمد عبد اللطيف الطنبولى	مراجعة : د . أحمد بدوى

● **ثالثا: من مصادر الصور والأشكال الداخلية :**

٩٦ ـ متحف الأقصر للفن المصرى القديم [كتالوج] ـ أصدار : مركز البحوث الأمريكى بمصر ، والمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . ترجمة :عبد العزيز صادق .

٩٧ ـ الماضى يبعث حيا ـ تأليف : إدنا مجوير . ترجمة : إبراهيم زكى خورشيد .

٩٨ ـ مجلة « شل» [١١ عددا] .

٩٩ ـ المتحف المصرى ـ موجز فى وصف الآثار الهامة ـ إصدار ١٩٥٤ .

100 - EGYPT - 1900 : SHELL COMPANIES IN EGYPT .

101 - ART THROUGH THE AGES .

102 - EGYPT REVEALED - SCENES FROM NAPOLEON ' S DESCRIPTION DE L ' EGYPT

BY : ROBERT ANDERSON AND IBRAHIM FAWZY.

103 - THE SPLENDERS OF EGYPT .

BY : MICHAEL DAVISON .

104 - WONDERS OF TUTANKHAMUN.

BY : DAVID P. SIL VERMAN .

105 - UPPER EGYPT .

BY : DINO SASSI .

106 - DAS ALTE REICH - Ä GYPTEN IM ZEITAL TER DER PYRAMIDEN. [KATALOG].

107 - VALLEY OF THE KINGS [CATALOGUE] .

108 - DENDERAH - KARNAK - LUXOR [CATALOGUE] .

109 - EGYPT [CATALOGUE] .

BY : A.BBAS CHALABY .

المؤلف

● وكيل الوزارة بقطاع النقل البحرى سابقا . من مواليد باب الشعرية بالقاهرة عام ١٩٣٣ . ليسانس فى القانون والاقتصاد ١٩٥٥ ، ودبلوم عال فى القانون البحرى ١٩٧٥ .

●محاضر فى الاقتصاد والعلوم البحرية والنقل الدولى فى مراكز التدريب والتنمية الادارية بمصر والدول العربية . وتعتبر مؤلفاته ومترجماته فى علوم النقل البحرى من الكتب الرائدة غير المسبوقة باللغة العربية .

● كتب العديد من سيناريوهات الأفلام الثقافية التسجيلية عن التاريخ المصرى القديم ، والآثار الاسلامية بمصر ، وأعلام العرب ، وقصص القرآن . . بالاضافة إلى العديد من البرامج الثقافية بالتليفزيون والإذاعة المصرية وهيئة الاذاعة البريطانية بلندن .

● نشرت له عشرات من القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينيات وحتى الآن فى مجلات : روزاليوسف وصباح الخير ونصف الدنيا والكاتب والقوات المسلحة والاذاعة والتليفزيون وكتب للجميع ومجلة حورس التى تصدرها مصر للطيران . . كما كتب عشرات المقالات المتخصصة فى مجلات الهلال والعربى والمسرح والقاهرة والثقافة والأوبرا وإدارة الأعمال ، وجرائد الأهالى والوفد والجمهورية والأخبار والأهرام .

كتب للمؤلف

● **فى الاقتصاد والعلوم البحرية :**

١ ـ اقتصاديات النقل البحرى .

٢ ـ أساسيات النقل البحرى والتجارة الخارجية

٣ ـ المصطلحات الفنية البحرية .

٤ ـ المصطلحات التجارية الدولية .

٥ ـ دراسة تحليلية عن عقد البيع البحرى « فوب» [محاضرات] .

٦ ـ عمليات نقل البضائع على سفن الخطوط المنتظمة [محاضرات] .

٧ ـ عمليات نقل البضائع على السفن المستأجرة [محاضرات] .

٨ ـ عمليات الموانى وعمليات الشحن والتفريغ [محاضرات] .

٩ ـ سند الشحن « دراسة تحليلية »[محاضرات] .

١٠ ـ قطاع النقل البحرى فى مصر .

١١ ـ محاضرات فى البيوع البحرية .

١٢ ـ القانون البحرى « ترجمة » ـ تأليف : إيمانويل دفورسكى .

١٣ ـ تأجير السفن «ترجمة » ـ تأليف : بيرجر نوسوم

١٤ ـ انتاجية الرصيف « ترجمة » ـ تأليف : دى مونيه .

١٥ ـ الرقابة على الأعمال البحرية عن طريق الميزانية « ترجمة » تاليف : ج سيموندز.

١٦ ـ سفن الحاويات والموانى المعدة لاستقبالها « ترجمة » ـ تأليف : أ . إيفانس .

١٧ ـ مصطلحات التجارة الدولية والنقل البحرى وأنواع النقل الدولى الأخرى .

١٨ ـ حساب الوقت والعوامل المؤثرة فيه [فى عمليات شحن وتفريغ السفن] ـ تحت الطبع .

فى الأدب والفن :

١٩ ـ ألوان من النشاط المسرحى فى العالم .

٢٠ ـ خيال الظل والعرائس فى العالم .

٢١ ـ الرقص والحضارة « دراسة تاريخية . فولكلورية . إثنولوجية » .

٢٢ ـ زرع النوى « رواية أدبية » .

٢٣ ـ مساخر من العاصمة والأقاليم « مجموعة قصصية » .

٢٤ ـ عذراء سرابيوم « مجموعة قصصية » ـ تحت الطبع .

٢٥ ـ الضحك بسبب « من الأدب الساخر » .

٢٦ ـ الضحك بالراحة « من الأدب الساخر » .

٢٧ ـ الضحك علينا « من الأدب الساخر » ـ تحت الطبع .

٢٨ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الأول .

٢٩ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثانى .

٣٠ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثالث .

٣١ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الرابع .

● **روايات ومسرحيات مترجمة :**

٣٢ ـ أوليفر تويست ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٣ ـ الآمال الكبرى ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٤ ـ ثورة على السفينة بونتى ـ تأليف : وليم بلاى .

٣٥ ـ توم سوير ـ تأليف : مارك توين .

٣٦ ـ مغامرات هكلبرى فين ـ تأليف : مارك توين .

٣٧ ـ رجال عظام ونساء عظيمات ـ تأليف : ليزلى ليفيت .

٣٨ ـ دافيد كوبر فيلد ، ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٩ ـ جزيرة الكنز ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .

٤٠ ـ دكتور جيكل ومستر هايد ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون

٤١ ـ كنوز الملك سليمان ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٢ ـ نجمة الصباح ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٣ ـ مون فليت ـ تأليف : ميد فوكنر .

٤٤ ـ المفتش العام ـ تأليف : نيكولاى جوجول

٤٥ ـ روبنسون كروزو ـ تأليف : دانييل ديفو .

● فى الآثار والتاريخ المصرى القديم :

٤٦ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية « مترجم » تأليف الدكتور أحمد قدرى [بالانجليزية] . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٧ ـ فن الرسم عند قدماء المصريين « مترجم » تأليف : وليم بك . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٨ ـ مصر والنيل [فى أربعة كتب عالمية] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٤٩ ـ مراكب خوفو [حقائق لا أكاذيب] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٠ ـ الحضارة المصرية من عصور ماقبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة «مترجم» ـ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥١ ـ نفرتيتى : الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد « مترجم » ـ تأليف : جوليا سامسون . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٢ ـ مجوهرات الفراعنة « مترجم » ـ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته الدار الشرقية .

٥٣ ـ صفحات من تاريخ الاسكندرية ـ تحت الطبع .

٥٤ ـ كليوباترا ـ تحت الطبع .

٥٥ ـ مصر القديمة ـ دراسات فى التاريخ والآثار

٥٦ ـ أم الحضارات ـ الجزء الأول .

الفهرس

● الاهــداء	٥
● تقديم : بقلم الاستاذ الدكتور جاب الله على جاب الله	٩
١ـ مصر من مليون سنة	١٣
٢ـ مع الانسان المصرى الأول	١٦
٣ـ المصريون الأوائل : من أين جاءوا . . وكيف عاشوا ؟	١٩
٤ـ القرى المصرية فى عصور ما قبل التاريخ	٢٢
٥ـ فضل المرأة المصرية فى اكتشاف معدن النحاس	٢٦
٦ـ فى قرية صعيدية . . منذ ٦٥٠٠ سنة	٢٩
٧ـ الصعايدة الأوائل . . أقدم المعدنين فى مصر	٣٢
٨ـ الصعايدة الأوائل . . وحياة أكثر تقدماً وحضارة	٣٥
٩ـ فى الوجه القبلى . . قبل مينا بألف سنة	٣٨
١٠ـ فى الوجه البحرى . . قبل مينا بألف سنة	٤١
١١ـ وحدة مصر . . قبل مينا بألف سنة	٤٤
١٢ـ تجربة وحدة مصر . . فى عصور ما قبل التاريخ	٤٧
١٣ـ عين شمس . . عاصمة مصر الأولى	٥٠
١٤ـ أمجاد مصرية . . فى عين شمس القديمة	٥٢
١٥ـ عين شمس . . وأقدم تقويم شمسى فى العالم	٥٥

١٦ـ مصر علمت العالم حساب الأيام والسنين ٥٨
١٧ـ التقويم القبطى . . عمره الحقيقى ٦٣٠٠ سنة ٦١
١٨ـ البحرية المصرية فى عصور ما قبل التاريخ ٦٥
١٩ـ حين خرج المصريون الأوائل إلى البحر ٦٨
٢٠ـ هل وصل قدماء المصريين إلى أمريكا ؟ ٧١
٢١ـ أول أسطول تجارى فى تاريخ العالم ٧٤
٢٢ـ أول سفن ناقلات للجنود فى تاريخ العالم ٧٧
٢٣ـ زيارة لأقدم مركب عثر عليه الانسان ٨٠
٢٤ـ أول سيدة بحار فى تاريخ العالم ٨٣
٢٥ـ دور السفن المصرية فى طرد الهكسوس ٨٦
٢٦ـ أول أبطال التحرير فى تاريخ العالم ٨٨
٢٧ـ العصر الذهبى للبحرية المصرية القديمة ٩٠
٢٨ـ أشهر أسرة ملكية فى تاريخ العالم ٩٣
٢٩ـ أول رحلة بحرية كشفية فى تاريخ العالم ٩٦
٣٠ـ تحوتمس الثالث . . واللورد اللنبى . . ومنتجومرى ٩٩
٣١ـ حين أصبحت مصر قمة الحضارة فى العالم القديم ١٠٢
٣٢ـ أخناتون . . وديانة التوحيد بالله ١٠٤
٣٣ـ نفرتيتى . . الجميلة التى حكمت مصر ١٠٧
٣٤ـ أعظم كنز أثرى عثر عليه الانسان ١١٠
٣٥ـ نهاية الأسرة ١٨ . . وحكم ضباط الجيش ١١٣

٣٦ـ الأسرة ١٩ . . وعودة الروح العسكرية ١١٦
٣٧ـ الضابط العظيم . . سيتى الأول ١١٨
٣٨ـ الامبراطورية المصرية . . تستعيد شبابها ١٢١
٣٩ـ رمسيس الأكبر . . سيد العالم ١٢٤
٤٠ـ الدبلوماسية والمعاهدات الدولية . . اختراع مصرى ١٢٧
٤١ـ سيد البنائين . . وازدهار الفنون والآداب ١٣٠
٤٢ـ رمسيس الثانى . . والخديوى توفيق ١٣٣
٤٣ـ هكذا يحترمون حضارتنا ١٣٦
٤٤ـ كيف عالجوا رمسيس فى باريس ١٣٨
٤٥ـ أول مرة يذكر فيها اسم اسرائيل فى مصر ١٤١
٤٦ـ آخر الفراعنة العظام ١٤٤
٤٧ـ سيناريو أول معركة بحرية فى تاريخ العالم ١٤٧
٤٨ـ أول اضراب عمالى فى تاريخ العالم ١٥٠
٤٩ـ أول محضر تحقيق بوليسى فى تاريخ العالم ١٥٢
٥٠ـ المصريون القدماء . . أول المشرعين فى العالم ١٥٤
٥١ـ أول من عرفوا الهندسة والحساب والعلوم الرياضية ١٥٧
٥٢ـ ازدراء الملوك والسخرية بالحكام فى مصر القديمة ١٦٠
٥٣ـ فن الكاريكاتير . . اختراع مصرى قديم ١٦٣
٥٤ـ الأدب المصرى . . أقدم آداب العالم ١٦٦
٥٥ـ الأدب السياسى . . فى مصر القديمة ١٦٨

٥٦ـ حرية الفكر والقول فى مصر القديمة ١٧٠
٥٧ـ أثر الأدب المصرى القديم فى الآداب العالمية ١٧٢
٥٨ـ الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران . . أصلهما مصرى قديم ١٧٤
٥٩ـ سندريللا . . فى الأدب المصرى القديم . ١٧٧
٦٠ـ عصر البلطجة والبلطجية فى مصر القديمة ١٨٠
٦١ـ أول انقلاب طبقى فى تاريخ العالم ١٨٣
٦٢ـ فكرة العدل أساس الملك ١٨٥
٦٣ـ قبل أن تحكم . . تعلم كيف تحكم ١٨٨
٦٤ـ نصائح . . للمواطن الصالح ١٩٠
٦٥ـ وعلموا الناس مبادىء الأخلاق والسلوكيات الطيبة ١٩٢
٦٦ـ آداب الحديث . . وآداب المائدة وزيارة البيوت ١٩٤
٦٧ـ الدراما المصرية . . أسبق من الدراما الإغريقية ١٩٦
٦٨ـ بردية الرمسيوم المسرحية ١٩٨
٦٩ـ أول شعراء العالم ٢٠٠
٧٠ـ حين طالب الشعب بحقه فى الخلود ٢٠٣
٧١ـ غزل المصريين القدماء فى نهر النيل ٢٠٥
٧٢ـ أغانى الحب والغزل فى مصر القديمة ٢٠٨
٧٣ـ نماذج من أشعار الحب والغزل ٢١٠
٧٤ـ أغانى العمل والمناسبات السعيدة ٢١٢
٧٥ـ الموسيقى . . والانسان الأول ٢١٤

٧٦ـ الموسيقى المصرية . . فى عصور ما قبل التاريخ ٢١٦
٧٧ـ الموسيقى المصرية . . فى عصر الدولة القديمة ٢١٨
٧٨ـ الموسيقى المصرية . . فى عصر الدولة الوسطى ٢٢٠
٧٩ـ الموسيقى المصرية . . فى عصر الدولة الحديثة ٢٢٤
٨٠ـ ارتباط الموسيقى المصرية القديمة بعلم الفلك ٢٢٧
٨١ـ حركات يد المايسترو . . ابتكار مصرى قديم ٢٣٠
٨٢ـ آلة الأرغن . . اختراع مصرى قديم ٢٣٢
٨٣ـ تأثير الموسيقى المصرية فى حضارات العالم القديم ٢٣٥
٨٤ـ محاولات إحياء الموسيقى الفرعونية ٢٣٧
٨٥ـ مصر القديمة . . كل أيامها أعياد ٢٤٠
٨٦ـ الرقص المصرى القديم . . فن محترم ٢٤٣
٨٧ـ فكرة الباليه . . نشأت فى مصر القديمة ٢٤٦
٨٨ـ الدراما الراقصة . . فى مصر القديمة ٢٤٩
٨٩ـ رقصة الموت الأوربية . . أصلها مصرى قديم ٢٥٢
٩٠ـ احتراف الرقص . . وفن تصميم الرقصات فى مصر القديمة ٢٥٥
٩١ـ ملابس وإكسسوارات الرقص . . فى مصر القديمة ٢٥٨
٩٢ـ فن العرائس . . فى مصر القديمة ٢٦١
● المراجع ٢٦٤
● المؤلف . . وكتب للمؤلف ٢٧٠

سبحان الله الذى وهب مصر عبقرية الموقع والمكان ، وجعلها تاجا على رأس التاريخ والزمان .

هى بلد يمتد عمقها فى الطرف الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا . . وتطل على البحر المتوسط ومن ثم على أوربا . . ولها باب فى سيناء يفتح أمامها قارة آسيا . . ويجرى فى ربوعها من الجنوب إلى الشمال نهر من أعظم وأكرم أنهار العالم . . يعيش على ضفافه شعب من أعرق شعوب الدنيا وأسبقها فى سبل الحضارة وصنع التاريخ .

وهذا كتاب حرص مؤلفه « **الكاتب الكبير الاستاذ مختار السويفى** » على تغطية كل معالم الحضارة الانسانية التى صنعها قدماء المصريين فى المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية والعمرانية والاجتماعية والطبية والفكرية والثقافية .

ويقول « **الأستاذ الدكتور جاب الله على جاب الله ـ الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار المصرية** » فى تقديمه وترحيبه بهذا الكتاب : إن مؤلفه ـ كما هو معروف عنه ـ عاشق لتراب وطنه ، ترجم عشقه إلى قراءة تاريخه والغوص فى أعماق حضارته ، فوجد فى ذلك متعة ملأت عليه كيانه . . ولأنه يدرك تماما مدى أهمية التاريخ فى تنمية الوجدان والحس الوطنى ، فإنه يتحف المكتبة العربية بين حين وآخر بعدد من الكتب المؤلفة والمترجمة ، أفرغ فيها كل ما يحصل عليه من معلومات ، وكل ما يتوصل إليه من بحوث وآراء واستنتاجات ، بعد قراءة عشرات الموسوعات والمراجع العلمية فى تاريخ وحضارة مصر القديمة .

« **الناشر** »

